

كيف تم الاعتراف بعبادات انكلترا في كليرندون

عام ١١٦٤م، فيه جرى اجتماع بحضور الملك هنري، في كليرندون Clarendon ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني، وذلك برئاسة جون أسقف أكسفورد، بناء على طلب من الملك، وكان بين الحضور أيضاً رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات ونبلاء المملكة، وفيه جرى الاعتراف— أو البحث— ببعض العادات وحریات التصرف العائدة لاجراءات الملك، التي هي اجراءات قضائية لها علاقة بالملك هنري وبجده وبآخرين، وهي اجراءات قضائية ينبغي مراعاتها والتمسك بها من قبل الجميع في المملكة، وذلك فيما يتعلق بالخلافات وعدم الوفاق الذي غالباً مايتفجر بين رجال الدين والقضاة التابعين لمولانا الملك، ولنبلاء المملكة، ومن هذه العادات جرى الاعتراف آنذاك بقسط منها هو الموجود في الستة عشر بنداً المقبلة فيما يلي:

١— بالنسبة للأوقاف والهدايا إلى الكنائس؛ إذا نشب أي خلاف بين العلمانيين، أو بين رجال الدين والعلمانيين، أو بين رجال الدين، ينبغي محاولة حسم ذلك في محكمة بلاط مولانا الملك.

٢— لايجوز منح الكنائس الموجودة في إقطاعية الملك، بشكل أبدي من دون موافقته وإجازته.

٣— سوف يجري استدعاء أي واحد من رجال الدين المتهمين' بأية جريمة من قبل القضاء الملكي إلى محكمة البلاط الملكي، للإجابة على أي سؤال سوف تقرر محكمة البلاط الملكي وجوب طرحه عليه، وكذلك إلى المحكمة اللاهوتية للإجابة على أية سؤال يقررون وجوب طرحه عليه، هذا ولسوف يرسل القضاء الملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة ليرى كيف ستتم معالجة القضية، وإذا ما اعترف رجل الدين أو

أدين، فلن تتدخل الكنيسة في المستقبل لحمايته.

٤- مامن رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي شخص صاحب منصب رفيع، يجوز له مغادرة المملكة من دون الحصول على إجازة من الملك، وإنهم إذا ما رغبوا في مغادرتها، سوف يستعد الملك ويملك السلطة— إذا ما رغب— في الحصول على الضمانات منهم، في أنهم لن يقوموا لا بإيذاء الملك أو المملكة، لا في أثناء الذهاب، أو البقاء، أو الإياب.

٥- ليس على الأشخاص المحرومين كنسيا تقديم كفالة « ad re-manens »، وليس عليهم أداء يمين، بل الذي عليهم تقديمه كفالة مع تعهد، بأنهم سوف يمثلون أمام القضاء الكنسي حيث يجري تحليلهم.

٦- سوف لن يجري اتهام أي رجل علماني، إلاّ بتهم قانونية، وشهود بحضور الأسقف، وبذلك لن يفقد رئيس الشمامسة حقوقه، أو أي شيء يصبح حقاً له من خلال ذلك، وإذا كان المستدعون إلى المحاكمة من النوعية التي لا يرغب أحد باتهامهم أو يتجرأ على ذلك، سوف يقوم عمدة القرية، بناء على طلب من الأسقف، بجعل اثني عشر رجلاً مخلصاً، يقسمون أمام الأسقف، بأنهم سوف يعلنون الحقيقة المتعلقة بتلك المسألة وفقاً لضمائرهم.

٧- مامن واحد له مكانته عند الملك، أو أي واحد من خدمه الخاص، سوف يجري حرمانه كنسياً أو وضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، حتى تجري مشاوره الملك، إذا كان في المملكة، أو إذا كان مسافراً فتم استشارة قضاته، حتى يتم فعل ما هو صحيح حول هذه المسألة، وبذلك تجري تسوية كل ما هو عائد إلى محكمة البلاط الملكي فيها، وكذلك من جهة أخرى بالنسبة لما هو عائد إلى المحكمة اللاهوتية.

٨- الالتماسات، إذا ماتم رفعها، فستكون من رئيس الشمامسة إلى الأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة، وإذا ما أخفق رئيس الأساقفة في معالجة القضية على الفرقاء الذهاب للمثول أمام مولانا الملك، حتى يمكن بتدخله انهاء الخلاف في محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لن تتطور الاجراءات أكثر من دون موافقة مولانا الملك.

٩- إذا مانشب خلاف بين علماني وكاهن، حول مبنى، رغب الكاهن أن يدعي أنه ديني، لكن العلماني ادعى أنه ملك علماني، فإن القضية يجري حلها، عن طريق شهادة اثني عشر رجلاً مخلصاً، من خلال المحكمة الملكية الرئيسية، فالشهود سيقرون فيما إذا كان المبنى دينيا أو علمانيا، وذلك بحضور قاضي الملك، فإذا تقرر أن المبنى دينيا، فسوف تجري المرافعة على القضية في المحكمة اللاهوتية، وإذا ما كان ملكاً علمانيا، فسوف تجري المرافعة في المحكمة الملكية، مالم يكن الاثنان قد تداعيا حول مبنى يعود للأسقف نفسه أو البارون، فوقتها تجرى المرافعة في محكمته، وينبغي أيضا عدم حرمان المتولي للمبنى قبل الدعوى حتى يتم القضاء عليه بذلك، واعلانه.

١٠- إذا ما كان أي انسان، ينتمي إلى مدينة، أو قلعة، أو منطقة، أو قرية ملكية، جرى استدعائه من قبل رئيس الشمامسة أو الأسقف للتحقيق معه حول جريمة، ولم يستجب للدعوة، سوف يكون قانونيا وضعه تحت عقوبة المنع، لكن ليس الحرمان الكنسي، حتى يتم اعلام المسؤول الملكي الرئيسي في ذلك المكان بالأمر، حتى يتدبر استجابته للدعوة، وإذا ما أخفق المسؤول الملكي في هذه المسألة، فإنه سيكون تحت رحمة الملك، وسوف، بناء على ذلك، يقوم الأسقف بإرغام الفريق المتهم بموجب النظام اللاهوتي.

١١- سوف يحتفظ رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجميع الشخصيات الأخرى ذات المكانة لدى الملك بممتلكاتهم الملكية، مثل البارونات،

ومقابل ذلك سوف يستجيبون لاستدعاء إلى العدالة الملكية وللمسؤولين الملكيين، وعليهم مراعاة جميع العادات الملكية واتباعها، والتصرف باستقامة مثل البارونات الآخرين، حتى يجري تطبيق قرارات العدالة على الأعضاء الخاسرين، أو الموت.

١٢— إذا ماشغرت رئاسة أساقفة، أو أسقفية، أو رعاية دير، أو رئاسة رهبان من مملكة الملك، فلسوف تكون بيده، ولسوف يتلقى منها جميع الموارد، وتكون الإجراءات القضائية فيها مثلما هي في مملكته، وعندما يحين الوقت للتعين في تلك الكنائس، سوف يقوم مولانا الملك بالتوصية بأفضل الأشخاص إلى تلك الكنيسة، وستتم أعمال الانتخاب في بيعة الملك ومع موافقة الملك وبمشورة الملك بالنسبة للأشخاص الذين سوف يجري استدعائهم لذلك الغرض، وسوف يقدم الشخص المنتخب الطاعة والولاء لمولانا الملك، ليكون سيده ومولاه عن حياته وعن أطرافه، وعن سمعته الأرضية، باستثناء نظمه قبل تكريسه.

١٣— وإذا مارفض أي واحد من نبلاء الملك تقديم العدالة إلى رئيس أساقفة، أو أسقف أو رئيس شمامسة عن نفسه أو عن أي من رجاله، سوف يتولى مولانا الملك الفصل القضائي بينهم، وإذا صدف وقام أي واحد بالاعتداء على أي من حقوق الملك، سوف يتولى رئيس الأساقفة، أو الأساقفة، أو رؤساء الشمامسة إجراء المحاكمة من أجله وتقديم الترضية إلى الملك.

١٤— لايجوز حجز المواشي العائدة للمصادرة لصالح الملك، في الكنيسة أو في المقبرة، مراغمة للعدالة الملكية، لأنهم ملك للملك، سواء أو وجدوا في الكنيسة أم خارجها.

١٥— الائتماسات من أجل الديون المستحقة، سواء أكانت مفروضة بيمين توثيق أم لا، هي من اختصاص المحكمة الملكية.

١٦- لا يجوز حجز أبناء الفلاحين من دون موافقة مولاهم، الذي من المعروف أنهم ولدوا في أرضه.

وأقسم على الاعتراف بهذه الطرائق أو وسائل التقصي فيما يختص بالعبادات السيئة، والحريات، والمفاخرات، المكروهة من قبل الرب القدير: من قبل رئيس الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، إلى جانب الايرلات، والبارونات، والنبلاء، الذين عبروا عن عودهم سواء بكلمات الفم، أو في كلمات الوعد الصادق، بأنهم سوف يحافظون على هذا كله ويراعونه لصالح مولانا الملك، ولورثته، بإيمان صحيح، ومن دون ريبة بالنوايا، إلى الأبد.

كيف ندم رئيس الأساقفة توماس لتسرع بإعطاء الموافقة على العادات

ونتيجة لهذه القواعد التشريعية، مارست السلطة العلمانية الجبابة من دون معارضة، من جميع المؤسسات اللاهوتية، سواء أتعلقت بالأشياء أو بالأشخاص، خارقة بذلك الامتيازات اللاهوتية، لأن الأساقفة التزموا بالصمت، أو بالحري تدمروا مستهجين صمتاً بدلاً من المقاومة المعلنة، وبناء عليه اكتشف رئيس الأساقفة توماس توريطه لنفسه، وتسرع في الموافقة على هذه القوانين غير التقية، التي يتوجب على جميع المسيحيين مقبتها ورفضها، ولأنه أقسم على مراعاتها، فلقد سبب له هذا ندماً عظيماً، وأثر على نفسه تأثيراً كبيراً، فأخضع جسده إلى استخدام أخشن الطعام، وأقسى أنواع الملابس، وأوقف نفسه عن تأدية الصلوات عند المذبح، حتى اعتقد من قبل البابا الحاكم أن اعترافه وثمار توبته جديرة بتحليله، ذلك أنه أرسل على الفور رسلاً إلى بلاط روما، ليعرض أمام الحبر الروماني، كتابة فيها شرح لقضية الكنيسة، وهي القضية التي كانت أيضاً قضيته، وتمنى على البابا أن يحلله من تعهده المتسرع، ولقد حصل على هذا التحليل في كلمات الرسالة التالية:

تحليل رئيس الأساقفة من قسمه المتسرع

« من الاسكندر أسقف [وخادم عبيد الرب إلى أبنائه بالمسيح، تمنيات بالصحة]، ليكن معلوماً لديكم يا إخوتي بأن أخباراً قد وصلت إلى أذني، أنكم اقترحتم بسبب بعض الاضطرابات والفوضى التوقف عن ترتيب القداس وعن تكريس جسد ودم ربنا، وإن خطورة مثل هذا القرار، وبشكل خاص من قبل هؤلاء الأشخاص الهامين، مع امكانية قيام شروور من ذلك، ينبغي أن يكون موضوعاً لتفكير وتمعن عميق من قبلكم، وأن يشغل ذلك نشاطكم واهتمامكم، وسوف تتولى حكمتكم تقدير الفوارق بين الأعمال المدبرة وبين الأعمال التطوعية، وبين مايقترف صدوراً عن الجهل أو صدوراً عن الحاجة، لأننا نقرأ بأن الذنب لا بد أن يكون دوماً تطوعياً، لأنه لو لم يكن كذلك لتوقف عن كونه ذنباً، وبناء عليه، إذا كان بإمكانكم اتهام أنفسكم بأي عمل، ضميركم غاضب منه، مهما كان نوعه، ننصحكم بالاستغفار منه وبالاعتراف به إلى كاهن يكون مستقيماً وحكياً، وهو إذا مافعل، فإن الرب الرحيم، الذي ينظر إلى قلوبكم أكثر من نظره إلى أعمالكم الظاهرة، سوف يتولى برحمته الغفران لكم، ونحن أيضاً باعتمادنا على فضائل الرسولين: بطرس وبولص، نقوم بتحليلكم مما اقترتم، وبتحريركم منه بوساطة سلطاتنا الرسولية، وفضلاً عن ذلك ننصحكم، لابل نأمركم، بأن لاتتوقفوا منذ الآن فصاعداً، على هذا الأساس، عن الإحتفال بالقداسات»، [صدر في ١ - نيسان ١١٦٤ م].

كيف رسم الملك بوجوب تلقي رجال الدين العقوبة

من العلمانيين

وفي العام نفسه، بما أن الملك كان راغباً بالتأكيد على معاقبة الجرائم بالقسوة المستحقة، وأن كرامة جميع الطوائف ينبغي معاملتها بعدل، أكد

أنه من غير المنطقي، أن يقوم رجال العدالة لديه بالارغام على تسليم رجال الدين، الذين أدينوا بجرائم إلى أسقف الأسقفية من دون عقوبة، ولذلك أمر بأن جميع رجال الدين الذين وجدتهم أساقفتهم مجرمين، يتوجب تجريدهم واخراجهم من طوائفهم، بحضور رجال العدالة الملكيين، وأن يسلموا بعد ذلك إلى المحكمة الملكية من أجل المعاقبة، واتخذ رئيس الأساقفة موقفاً معارضاً، بأن مامن أحد يجوز تجريده واخراجه من طائفته من قبل أساقفته، ثم تلقيه بعد ذلك أية عقوبة من محكمة علمانية، لأن ذلك سوف يبدو وكأنه انزال عقوبة مزدوجة على جريمة واحدة، ويعود أصل هذا الخلاف إلى فيليب دي بروك، قانوني بدفورد Bedford الذي عندما استدعي للمحكمة بتهمة القتل، استخدم لغة مهينة نحو القاضي، وهذا ما لم يستطع نكرانه عندما مثل أمام رئيس الأساقفة، ولذلك جرد من وقفه الكنسي، ونفي من المملكة لمدة عامين، وكان هذا هو السبب التاسع لتوفر مشاعر البغضاء بين الملك وبين رئيس الأساقفة.

كيف أهين توماس المبارك من قبل الملك في نورثامبتون وترك المملكة

وبناء عليه، عندما رأى رئيس الأساقفة أن حريات الكنيسة قد أزيلت تماماً الآن، ركب سفينة من رومني Romney، وعزم على الذهاب إلى روما، من دون علم الملك، لكن الرياح كانت معاكسة، وسافت السفينة عائدة إلى انكلترا، وأضاف هذا سبباً عاشراً إلى العداء بينه وبين الملك، ولهذا السبب جرى استدعائه للمثول أمام القضاة الملكيين، للإجابة على شكوى قدمها جون ماركال Mareschal، فيما يتعلق باحدى القرى، التي — كما قيل — تملكها رئيس الأساقفة من دون اعاقبة بتملكها، وذلك لمدة طويلة، وأخيراً وبعد نقاش طويل جرى نقض القرار، وحكم بغرامة للملك قدرها خمسمائة باوند، وقدم رئيس

الأساقفة على الفور ضمانة بالدفع في ذلك الموضوع، وشكل هذا المناسبة الحادية عشرة للعدوانية ضد رئيس الأساقفة، الذي مازال ضميره نقياً.

واتهم في نورثامبتون حول أعمال عملت أثناء مستشاريته، وظهر هناك شخصياً في الثالث عشر من تشرين الأول، حيث تقرر هناك أن من المتوقع عليه تقديم حساب عن المال الذي كان قد تسلمه طوال السنين العديدة التي تسلم فيها الأثاث في قلعتي آي Eye وبيركها مبستد، وفيما يتعلق بما كان قبل سيامته لرئاسة الأساقفة، جرى الاعلان من قبل هنري ابن الملك وولي عهده، ومن قبل القضاء الملكي تحرره من جميع المطالب المدنية، ومع ذلك حاول النجاة من القرار غير العادل، بالمرافعة إلى الكرسي البابوي، حيث جرى الحظر على كل أساقفته المساعدين، وعلى سواد المؤمنين اصدار أحكام عليه، لأنه أبوهم وقاضيهم، لكن النبلاء والأساقفة، الذين جمعهم الملك لهذه الغاية أصدروا قرار حكم عليه، مع أنه لم تجر إدانته، ولم يعترف شخصياً بأنه مجرم، بل رافع ملتصقا بالامتياز له شخصياً ولكنيستته، وهكذا قام رئيس الأساقفة الذي شعر بالضيق، والإهانة، وبالهجران من قبل الأساقفة، برفع صليبه عالياً بيديه، وغادر المحكمة بشكل مكشوف، وقام في الليلة التالية بمغادرة البلدة بشكل خاص، وأخفى نفسه أثناء النهار، وارتحل أثناء الليل فقط، ووصل بعد عدة أيام إلى ميناء ساندوش Sandwich، حيث أبحر في قارب صغير، وعبر إلى فلاندرز، وهكذا وصل المدفوع إلى المنفى، والمعترف بالمسيح إلى السين Sens حيث جرى استقباله من قبل البابا الاسكندر، ومنح مسكناً في دير بونتني.

إفادات رسل الملك ضد رئيس الأساقفة

وجرى في الوقت نفسه إرسال رسل من قبل ملك انكلترا إلى البابا في السين، وقد أخبروا قداسته بإصرار كامل، أنه نتيجة لخلاف نشب الملك وبين رئيس أساقفة كانتربري، جرى تحديد يوم، بموافقة من

الطرفين ، حتى يمكن تسوية الخلاف بينهما في مؤتمر، وفقا للعدالة، وفي اليوم الذي تحدد من قبل السلطات الملكية، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، مع رجال الكنيسة الآخرين من أجل أن تكون الإجراءات القضائية معروفة من قبل المؤتمر كله، وأن يكون من السهل تفصي الأمور إن كانت عادلة أو مزيفة، وأضافوا أنه في اليوم المحدد قدم الفساد للسلام والمثير للاضطراب في المملكة نفسه أمام الملك، غير واثق بعدالة قضيته، ورافعاً أمامه صليب ربنا، وكأنه كان داخلاً إلى حضرة طاغية، ومع ذلك لم ينزعج جلاله الملك، بل عهد بالقرار حول المسألة إلى الأساقفة، حتى يمكن بهذه الطريقة إزالة جميع أنواع الشكوك، والذي بقي هو فقط قيام الأساقفة باتخاذ القرار حول القضية، حتى يمكن إعادة الصداقة ثانية إلى مابين الفريقين، فيعودا صديقين، ويدفنا كل العداوات بينهما، لكن الفريق الثاني قدم اعتراضاً على أنه سيحاكم من قبل الملك، وأن ذلك فيه ابتعاد عن حصانة الكرسي المقدس، غير مدرك أنه حتى وقار الكنيسة وشرفها لا يجوز تعريضه بأية وسيلة إلى التسويات، وكان المرغوب فيه، هو المداجاة لبعض الوقت حتى يمكن للكنيسة أن تعيش لبعض الوقت بسلام، علاوة على ذلك سارع إلى منح نفسه اسم «أب»، حتى يكون من الرعونة بالنسبة للأبناء إدانة أبيهم، بل أن يكون من الضروري تواضع الأبناء للحفاظ على كرامة الأب، حتى لا يوصلوا كراهية الأب إلى الأبناء، وكان المطلب الرئيسي للسفراء أن يرسل البابا اثنين من نوابه، ليقوما — من دون التماسات — بحسم الخلاف بين رئيس الأساقفة والملك، وحاولوا أخيراً، بوساطة مختلف الوعود، إقناع البابا حتى يقوم بتثبيت العادات والصلاحيات المطلقة في إنكلترا، التي ادعى الملك بأنها عاداته الموروثة، وأنها انتقلت إليه من جده هنري الأول، لكن بعدما عاد الرسل وأخبروا الملك بأنهم أخفقوا في مهمتهم، ثار غضبه، وانفعل كثيراً، وبعث بالرسالة التالية إلى عمد مناطق إنكلترا لتعميمها.

رسالة الملك إلى عمدة كنت ضد رجال دين توماس المبارك

إنني أمرك من الآن فصاعداً، أنه إذا ماسيحاوّل أي واحد، سواء أكان من رجال الدين، أو العلمانيين الاستدعاء إلى بلاط روما، أن تعتقله، وتضعه في السجن حتى يجري اعلام جلالتي، وأن تستولي على، وتضع بين يديك، جميع موارد، وممتلكات رجال دين رئيس أساقفة كانتربري، كما سوف يبين لك راندلوف دي بروك **Randolf de Broc** وضباطي الآخرين، وأن تعتقل جميع آباء وأمّهات، وأخوان، وأخوات، وأحفاد، وحفيدات رجال الدين الذين هم مع رئيس الأساقفة، وأن تضعهم مع قطعانهم في حفظ أمين حتى يجري إعلام جلالتي، وأن تجلب هذه العجالة معك عندما يجري استدعاك.

وكتب إلى غيلبرت أسقف لندن، الرسالة التالية:

رسالة الملك إلى أسقف لندن كما تقدم أعلاه

إنك غير جاهل بالتعامل المؤذي الذي تلقيته أنا ومملكتي من توماس رئيس أساقفة كانتربري، وكيف بانحطاط قد هرب من البلاد، وبناء عليه، إني أمرك أن تتولى منع رجال الدين الذين بقيوا معه بعد فراره، وجميع الآخرين الذين عملوا في سبل الإساءة إليّ أو إلى مملكتي، منعهم من تلقي أية اجراءات قضائية لصالحهم في أسقفيتك من دون إذني، وأن لاتعطي أية تسهيلات أو تأييد مهما كان نوعه لرجال الدين المذكورين

وكتب الملك أيضاً إلى رجال القضاء لديه وفق مايلي:

رسالة الملك إلى رجال القضاء لديه

ضد رئيس الأساقفة توماس المبارك

إذا تم العثور على أي واحد حاملاً رسائل أو توصيات من مولانا البابا، أو من رئيس الأساقفة توماس تحوي منع خدمات تعبدية مسيحية

في انكلترا، ينبغي اعتقاله وابقائه بالسجن حتى تعلم جلالتي بذلك، علاوة على ذلك، مامن كاهن، أو راهب، أو راهب نظامي، أو مهتدي، أو أي رجل آخر، سوف يسمح له بعبور البحر، إلا إذا كانت لديه رسائل من قاضينا أو منا شخصياً بشأن عودته، وإذا ماتم العثور على أي واحد يعمل بشكل معاكس ينبغي اعتقاله وايداعه السجن، ولا يجوز لأي انسان الادعاء إلى البابا أو إلى رئيس الأساقفة توماس، كما لا يجوز النظر بأي دعوى باسميهما، أو تسلم وصاية منهما في انكلترا، وإذا ما نظر أي انسان أو قبل بأية دعوى من هذا القبيل، ينبغي اعتقاله وسجنه، وإذا ماراعى أي أسقف، أو راعي دير، أو رجل دين، أو علماني، واعترف بأي قرار منع، فلسوف ينبغي نفيه من المملكة على الفور، مع جميع أقربائه، ولا يجوز أن يأخذ معه أيأ من قطعانه معه، بل ينبغي الاستيلاء على قطعانه وكل ممتلكاته، ووضعها في أيدينا، وجميع رجال الدين الذين لديهم موارد في انكلترا، سوف يجري إزالتها كلياً في كل منطقة من مناطق انكلترا، إلا إذا عادوا إلى ممتلكاتهم في انكلترا خلال ثلاثة أشهر، وذلك إذا رغبوا في الحفاظ على هذه الممتلكات، ولكن إذا لم يعودوا إلى انكلترا مطلقاً، فإنه سوف يجري انتزاع مواردهم من أيديهم، هذا ويتوجب مثول أسقفي لندن ونوروك أمام رجال عدالتنا، لفعل ما هو صحيح، لأنهما تصرفا بشكل مضاد لقوانين المملكة، وأصدرا قرار منع كنسي ضد الايرل هيوج، كما أصدرا قرار حرمان من شركة المؤمنين ضد هذا الايرل نفسه، وواظبوا على جباية بنس بطرس والاحتفاظ به، حتى تعلموا من جلالتنا الملكية قرارها حول ذلك».

وأمر الملك أيضاً بمصادرة ممتلكات كنيسة كانتبري مع ممتلكات رئيس الأساقفة وكهنته، وبنفي جميع أقربائه — وهو عمل لم يسمع بمثله في جميع التاريخ الماضي — بصرف النظر عن الأوضاع، أو الجنس، أو العمر، وبدون المبالاة بأن الكنيسة الكاثوليكية قد اعتادت أن تصلي من

أجل الهراطقة، والمنشقين، وغير المؤمنين، واليهود، فقد منع الملك الآن كل انسان من الصلاة من أجل رئيس الأساقفة.

حول الإفادات التي عملها توماس رئيس الأساقفة المبارك أمام مولانا البابا

وعندما وجد توماس المبارك، وهو يعاني من كل هذه الأضرار، أنه حرم من صلوات أساقفته المساعدين، انطلق يوم البلاط الروماني، وهناك عمل الخطاب التالي أمام مولانا البابا:

« إلى حضرتك أيها الأب المقدس، قد طرت أنا طالبا اللجوء، وأنا أنتحب لأن الكنيسة مع امتيازاتها قد دمرت حسب إرادة الأمراء، ومن أجل هذه القضية، اعتقدت أنه صحيح أن أمنع نفسي من الاقتراب من الشر، ولقد استدعيت كرجل علماني إلى أمام الملك للاجابة على بعض الأمور الإدارية، التي كنت عنها مسؤولاً عندما كنت مستشاراً، علماً أنه في الوقت الذي رقيت فيه، صدر الاعلان بأنني كأسقف منتخب متحرر من جميع الواجبات المدنية، وجاء ذلك من قبل الابن الأكبر للملك، ومن قبل قاضي الملكة، وأنا الآن مهجور في المنطقة التي تطلعت إليها للمساعدة، لأنني علمت بأن إخواني الأساقفة قد أرسلوا إلى المحكمة، وهم مستعدون لاصدار قرار ضدي، وهكذا وأنا مسحوق تقريباً من قبل حشد أعدائي، لقد فررت إلى حضرتك، التي هي الملاذ الأخير للمظلومين، ففي ظل حمايتك يمكنني أن أبرهن أنه لا تجوز محاكمتي من قبل أولئك الحكام، كما أنه لا تنطبق عليّ أحكامهم، لأن ذلك ماذا يمكن أن يكون سوى سلب الكنيسة من حقها؟ إن معنى ذلك هو اخضاع السلطة الروحية إلى السلطة الدنيوية، وإنه ما أن تجري الموافقة على هذه السابقة، حتى سيتم تطبيقها بشكل عام، ويقول الأساقفة بأن هذه الأشياء هي التي لقيصر وينبغي تسليمها لقيصر، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي بالحقيقة إطاعة الملك في أشياء كثيرة، لكن إذا جرى ذلك

سيتوقف عن كونه ملكاً، ولن يعمل ذلك قيصراً، بل طاغية، وهنا إن الذين سوف يقاومونه، سيفعلون ذلك لصالحهم وليس لصالحي، وما الذي كانه سبب هذه العداوة الكبيرة، ثم أوليس القضاء عليّ، سوف يكون قضاء عليهم أيضاً؟ ففي الوقت الذي أهملوا فيه واجباتهم الروحية من أجل واجباتهم الدنيوية، لقد أخفقوا وسقطوا معاً، وبناء عليه انظر بتمعن، أيها الأب المقدس، بمسألة نفبي وأحوال تعذيبي، وتذكر أنني كنت من قبل في موضع الفخار، وأنني منه طردت ظلماً، وفي سبيلك، طبّق عقوباتك الحادة، واضغط على الذين سببوا هذا العذاب وأثاروه، لكن لاتلق بالقضية أمام باب الملك، لأنه هو الوكيل والأداة، إن لم أقل هو الفاعل لكل هذه المؤامرات.

كيف ألغى البابا الحكم الذي أصدره الأساقفة

ضد رئيس الأساقفة

وبعدما استمع البابا إلى هذه الافادات، اجتمع — كما قيل — مع كرادلته للتشاور، وبعد ذلك بعث بالرد التالي على رئيس الأساقفة: « إن الأدنى لا يمكنه أن يحكم على سيده الأعلى، وخاصة على الذي هو متوجب عليه تقديم الطاعة له، بحكم كونه أسقفه، وكل من القانون اللاهوتي والقانون البشري واضح تماماً بهذا الشأن، وكذلك أوامر الآباء المقدسين، والآن، نحن الذين واجبنا هو تصحيح الذي فعل بشكل ضار، نعلن أن القرار الذي أصدره الأساقفة والبارونات بمصادرة جميع ممتلكاتك، هو ليس فقط مضاداً للعدالة، بل لجميع القوانين اللاهوتية أيضاً، على أساس أنه ليس لديك مقتنيات، غير التي صودرت من الكنيسة، ولذلك قررنا بأن مثل ذلك القرار هو ملغى ولاشأن له، وقد قمنا هنا بموجب سلطاتنا الرسولية بإلغائه، ونعلن أنه لن يمتلك قوة من الآن فصاعداً، ولن يشكل سابقة قانونية فيما بعد بالنسبة لك وخلفائك، أو بالنسبة للكنيسة التي هي مودعة بعهدتك، وبالنسبة

للبقية، إذا كان أولئك الذين قاموا بالعدوان أو تسبوا بأذى لك أو لكهنتك في الممتلكات أو في الحاجيات، العائدة لكنيستك عندما تخفق الاجراءات القانونية في استرداد الذي أخذوه، أو تقديم ترضية مقابلة للأشياء نفسها، عليك عدم التردد في ممارسة عدالتك اللاهوتية في أول فرصة مناسبة، وكل ماتراه مناسباً بشكل منطقي لفعله في ذلك الشأن، نحن سوف نرى ذلك جيداً وساري المفعول، أما بالنسبة لشخصية الملك، فإننا لانعطيك سلطة محددة عليها، علماً بأننا لانلغي سلطاتك الأسقفية التي تسلمتها لدى سيامتك، بل على العكس إننا نرغب في الحفاظ عليها بشكل كامل وسليم»، وانسحب بعد هذا رئيس الأساقفة للعيش في دير بونتني Pontigny.

زواج ماتيلدا ابنة الملك من دوق سكسوني

عام ١١٦٥م، فيه قدم رينالد رئيس أساقفة كولون، الذي كان قد أيد انشقاق أوكتايفان ضد البابا الاسكندر، إلى الملك هنري في وستمنستر لمرافقة عودة ماتيلدا الابنة الكبرى للملك، لتكون زوجة لهنري دوق سكسوني، واستقبله النبلاء الانكليز بشكل فخم، لكن روبرت إيرل ليستر — القاضي الملكي — رفض تحيته بقبله، لأنه لم يحلل قط منذ أن جرى حرمانه كنسيا من قبل البابا الاسكندر، ولذلك فإن جميع المذابح التي عمل عليها المنشق قداسات جرى هدمها، وفي العام نفسه ولدت الملكة اليانور للملك هنري ابنة أعطيت اسم جوانا، وجرت سيامة غيوفري، أسقف القديس أساف بالميرون والزيت في كنيسة أول الشهداء الانكليز، القديس ألبان، وكان ذلك عند المذبح العالي، في يوم عشاء ربنا، وذلك بفضل امتيازات الدير، وبحضور راعي الدير روبرت.

وفي العام نفسه، ألقى نور الدين، الذي كان أميراً تركياً قويا، الحصار على قلعة حران، في منطقة أنطاكية، ولدى السماع بذلك من قبل بوهموند أمير أنطاكية، وريموند كونت طرابلس، وسلمان أسقف

كليكية، وطوروس أمير أرمينية (الصغرى)، قاموا برفع الحصار، وأرغموا نور الدين على رفع الحصار، وقاموا من دون حذر، وبطيش بمطاردته إلى مسافة بعيدة، لكن نور الدين تمكن من إعادة تجميع رجاله، واستدار لمواجهة مطارديه، فاستطاع أسر النبلاء المتقدم ذكرهم، وألقاهم في السجن في حلب، وتولى بعد ذلك معاودة حصار البلدة والتضييق عليها، فاستسلمت بدون صعوبة مرغمة على فعل ذلك.

كيف حرم كنسيا القديس توماس الذين اعترفوا بعبادات انكلترا

عام ١١٦٦م، فيه عبر الملك هنري إلى نورماندي، في بداية الصوم الكبير، وعندما سمع رئيس أساقفة كانتبري بذلك، غادر بونتني إلى فيزلي، وقام في يوم الصعود، بحضور الناس الذين اجتمعوا هناك للاحتفال بالعيد، من كل من السكان المحليين والغرباء، بارتقاء المنبر، وتولى الحرمان كنسياً مع شموع مضاءة، جميع العادات الموروثة لانكلترا، مع جميع المعترفين بها، والمدافعين عنها، والمحرضين عليها بشكل عام، وخص بالتسمية رتشارد دي لوسي، ورتشارد رئيس شامسة بواتيه، وجوسلين بوليل Baliol ، وألان دي نيفل Neville ، وآخرين كثير، ولكن بما أن جميع هؤلاء قد حرموا كنسياً غيابياً، ومن دون استدعائهم، والتبين أنهم مجرمين، فقد استأنفوا إلى البابا، وأخبروا بذلك رئيس الأساقفة نفسه، ولم يتمنعوا عن الدخول إلى الكنيسة، وبعد مدة قصيرة، جرى إرسال وليم أوف بافيا Pavia، وجون أوف نابل Naples، كمندوبين رفيعي المستوى a latere للحبر الأعظم، وقد استدعيا الملك هنري، ورئيس الأساقفة لمقابلتهما في مونتميريل Mont-mirail ، وشعر رئيس الأساقفة أنها يميلان إلى ترجيح وجهة نظر الملك، ومع ذلك خضع لحكمها على شرط، أن يملك مجدداً هو وكهنته— تماشياً مع قوانين الكنيسة— جميع الممتلكات التي أخذت منهم، ولكن بما أن المندوبين لم يكونا راغبين بالموافقة على هذا، وغير

قادرين، عادا إلى بلاطهما من دون نجاح، وكانا على كل حال، قد قاما أولاً بتحليل الذين تولى رئيس الأساقفة حرمانهم كنسياً، وجرى تحليل آلان دي نيفيل من قبل غيلبرت أسقف لندن، على شرط— أكسده بقسمه— أنه وهو على طريقه إلى القدس، سوف يمر بالبابا، وسيلتزم بقراره.

وقدم في الوقت نفسه لويس ملك فرنسا إلى بونتلي، ولكي ينقذ طائفة رهبان السسترشيان من ضغوط ومؤثرات غضب الملك هنري، لأنهم آووا رئيس الأساقفة توماس لديهم لمدة عامين، أخذ رئيس الأساقفة معه إلى سين وحافظ عليه هناك لمدة أربعة أعوام، في دير القديس كولومبا Columba، وجرى في الوقت نفسه فرض ضريبة أربعة بنسات على كل هايد في جميع أرجاء انكلترا، بهدف ارسال المساعدة إلى الأرض المقدسة، وجرى جرّ بعض الوعاظ بعقائد مزيفة في أكسفورد إلى أمام القضاة، بحضور الملك والأساقفة، وجرت إدانتهم بالابتعاد عن الايمان الكاثوليكي، وجرى أولاً رسم علامات على وجوههم ليتمكن الناس جميعاً من معرفتهم، ثم نفيوا من المملكة، وولدت في السنة نفسها اليانور، ملكة انكلترا، ولداً منح اسم جون، وأيضاً فارق هذه الحياة روبرت راعي الدير الثامن عشر لسانت ألبان، وكان ذلك يوم عيد الرسولين سمعان وجود Jude، بعدما حكم الدير بكثير من الأبهة خلال أربعة عشر عاماً.

رسالة توماس رئيس الأساقفة المبارك إلى ملك انكلترا

وأمل بالوقت نفسه، توماس رئيس أساقفة كانتربري، أنه بتواضعه في نفسه، سوف يقهر الملك هنري، فكتب إليه الرسالة التالية:

« لقد اشتقت، واشتقت إلى رؤية وجهك، والتحدّث معك، جزئياً— في الحقيقة— لصالحي، إنها بشكل رئيسي لصالحك ومن أجلك، ذلك

أنك إذا مارأيت وجهي، يمكنك أن تستعيد في ذهنك وتذكر، الخدمات التي قدمتها لك بأعظم حماس، حتى يكون ضميري راضياً، وبناء عليه ليعينني الرب، في يوم الحساب الأخير، عندما سنقف أمام حسابه، لتلقى وفقاً لما عملنا في الجسد، سواء أكان خيراً أم شراً، وأن تتولى الرأفة علي، لأنني أنا الآن مرغم على العيش على الصدقة، بين أناس غرباء البلاد، ومن أجلك لثلاثة أسباب هي: لأنك مولاي، وملكي، وولدي في الروح، وكمولاي، يتوجب عليّ أن أقدم لك مشورتي، وكملكي إنه مفترض بي أن أقدم لك الاحترام والتذكير، وكابن لي عليّ تهديك وتقويمك، فالملوك يجري مسحهم على الرأس، وعلى الصدر، وعلى الذراعين، وفي ذلك إشارة إلى: المجد، والقداسة، والقوة، ومعروف أن الملوك في قديم العصور، الذين لم يراعوا وصايا وأوامر الرب، بل أذنبوا ضد أوامره، قد حرموا من كل من المجد، والقداسة، والقوة، وخذ مثلاً على ذلك شاؤول، وسليمان، لكن الذين بعدما اقترفوا الذنوب، وتواضعوا بأنفسهم أمام الرب، كان أن حظوا بنعمة الرب، مثلما حدث لداوود، ولحزقيا، ولآخرين كثير، وهنا إذا كنت ترغب يامولاي بنصيحة تابعك، وبتهديب أسقفك، وبرعاية والدك، تمنع عن أن تكون لك صداقة في المستقبل مع المنشقين، ولاتعقد أية اتفاقات معهم، وتذكر الوعد الذي قطعته، ووضعته كتابة على المذبح في وستمنستر، في أن تحفظ حريات الكنائس وكنت قد فعلت ذلك عندما كرست ومسحت لأن تكون ملكاً، أعد كنسية كانتربري، التي منها تلقيت ترقيتك وتكريسك، إلى الوضع الذي كانت عليه في أيام سلفنا، لكن إذا لم تفعل هذه الأشياء كن متأكداً أنك سوف تشعر بقساوة انتقام الرب».

كيف ارتيب بتوماس المبارك من قبل الأساقفة

وكان في العام نفسه قد سمع مساعدو الأساقفة لكنيسة كانتربري،

بأن القديس توماس، ورئيس أساقفة كانتبري قد حرم كنسيا المؤيدين للعادات السيئة لانكلترا والمدافعين عنها، وقد شمل الحرمان بشكل عام كل من أسائهم مع الملك، وخشية منهم من أن يعيد القرار ضد كل واحد منهم بالاسم، لجأوا إلى الاستئناف مع أن ذلك مصاد للأشكال الاعتيادية للعدالة:

« إلى أبيهم المبجل ومولاهم توماس، رئيس أساقفة كانتبري، من الأساقفة المساعدين للكنيسة نفسها، ومن الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في الأسقفية نفسها، خضوع تام، وطاعة: لقد أخبرنا من قبل بعض الأشخاص، أمراً نزعج لدى استعراضه في ذاكرتنا، وهو أنك أرسلت تهديداً إلى مولانا الملك، حيث حذف من رسالتك التحية المعتادة، وكل ما جاء فيها من تفكير ومن طعم للعبارات هو بعيد عن مشاعر الصداقة، فلقد وضعته موضع التهديد بالمنع، وباقتراح اصدار قرار حاد ضده يقضي بقطعه عن الكنيسة، والآن، إنه إذا ماجرى التفوه بهذا القرار بالقسوة التي جرى التهديد بها، نحن نعتقد، ولانتوقع أن الاضطراب الحالي، من الممكن تهديته، لابل إنه سوف يتفجر لهيباً خلافاً مستمر، ولقد رسخ بمشاعر بعضنا وعقولهم أنه ما أن يظهر الملك نحوك حظوة كبيرة، ومحبة من روحه كلها، وبذلك يضع كل شيء بالكامل تحت سلطتك، فإن ذلك سيكون لمصلحة أناس برأي الدنيا، ينظرون إليك باحترام، وعندما يود هو تفويتك تقلبات الحظوظ الدنيوية، ويبذل جهده لوضعك بشكل ثابت في كنيسة الرب، نأمل بأنه سيتمكن في المستقبل من الحكم بسعادة وأمان، وأن يحظى بمنافع نصائحك الجيدة، ولذلك إنك ربما لن تكون بحاجة للسعي لمد يدك على مولانا الملك، وعلى مملكته، وأيضاً على الكنائس والأسقفيات المعهود إلينا بإدارتها، ولقد لجأنا إلى الاستئناف، في وجه الكنيسة وضد الأخطاء التي نخشاها، ونجدد نحن الآن استئنافنا إلى البابا، رافعين

التماسنا واستئنافنا في يوم صعود ربنا».

رسالة رئيس الأساقفة توماس المبارك إلى أساقفته المساعدين

« وصلت رسالتكم الجماعية للتو إلينا، لكن لا أستطيع بسهولة أن أصدق أنها صدرت عن حكمتكم الجماعية، وقد ملأتني بالدهشة، وتبدو محتوياتها أنها تحمل مشاعر عدوانية أكثر من المصالحة، وودت لو أنها أملت بغيرة تقوية ومشاعر رعاية وليس باقتراحات الرغبات المرادة، وشيء واحد يمكنني أن أقوله لكم، إذا ما تمكنت من قوله من دون أن أسيء إليكم: لقد لازمت الصمت طويلاً، منتظراً أن يحدث فيلهمكم الرب، بأن تستردوا شجاعتكم ثانية، بعدما وليتم هارين في يوم المعركة، وأن يحاول ولو واحد منكم فينطلق ضد العدو، ويعرض نفسه كسور أمام بيت الرب، ضد أولئك الذين لم يتوقفوا يوماً عن ذم جيش الرب، لكن لا يوجد ولا واحد سوف ينطلق، وبناء عليه، الرب سوف يقضي بيني وبينكم، ولسوف يحاسبكم على اضطراب الكنيسة، التي سواء أشاءت الدنيا أم لم تشأ، ينبغي أن تقف ثابتة بكلمة الرب، عندما تحين الساعة، وعندما ستنتقل من هذا العالم إلى الرب، هل نسيتم كيف أنني وكنيسة الرب قد جرت معاملتنا في نورثامبتون عندما حوكم المسيح للمرة الثانية، ممثلاً بشخصي، من قبل محكمة من الأمراء، وعندما أكره أسقف كانتربري، بسبب الإيذاء الذي تعرض له من كل جانب، وتعرضت له كنيسة الرب، إلى التماس السماع له من قبل الكرسي الروماني؟ ومن الذي رأى أو سمع برئيس أساقفة لكانتربري، قد حوكم، وأدين بتقديم كفالة في المحكمة الملكية، وذلك بشكل خاص من قبل أساقفته المساعدين؟ وإذا كان — كما أخبرتموني — كل شيء قد اضطرب لدى مغادرتي للمملكة، دعو الذي تسبب بذلك يتحمل الملامة بشأن ذلك، لأن الخطيئة — بدون شك — جاثية عند باب الذي عمل عملاً ليس من شأنه، والذي انسحب من مواجهة مؤثراته، والذي

تصرف بشكل عدواني، وليس الذي تجنب الأذى، فبينما كنا في البلاط نتظر الاتهام الذي سوف يقدم ضدنا، صدر الأمر إلى موظفينا بعدم طاعتنا بشكل مطلق في المسائل الدنيوية، بل على العكس إطاعة أوامر الملك، وأمروا بعدم تقديم أية خدمات لنا في حال من الأحوال، وجرى حرمان ومصادرة كهنتنا وعلماييننا، رجالاً ونساءً، وأمهاتاً وأطفالاً رضع، وحاجياتنا، وميراث الذي صلب، قد أضيفت إلى الخازن: جزء للاستخدام من قبل الملك، وجزء للاستخدام من قبل أسقف لندن، وقد استأنفتم— كما أخبرتموني— إلى البابا، لكن لا يمكنكم إيقاف سلطاتي بهذا الاستئناف، ولا منعي من اتخاذ اجراءات ضدكم، أو ضد كنائسكم، إذا كان حجم عدوانكم يتطلب ذلك، لأننا نعلم أن كل واحد يقدم التماس استئناف، يفعل ذلك باسمه، أو باسم واحد آخر، فإذا كان باسمه، فلا بد أن ذلك من خطأ اقترف بحقه، أو يخشى أن يقترف بحقه، ونحن الآن متأكدون— بنعمة الرب— أن مامن خطأ لحق بكم من قبلنا، يسوغ لكم تقديم التماس الاستئناف، وبناء عليه إذا كنتم قد استأنفتم خشية الخطأ، أو خوفاً من أن أتخذ أي خطوة نحوكم أو نحو كنائسكم، فإن هذا ليس استئنافاً يمكنه تعطيل سلطتي أو سلطاني الذي أتمتع به عليكم وعلى كنائسكم، وإذا كان استئنافكم قد جاء باسم الملك، فإن ادراككم ينبغي أن يعلمكم أن التماسات الاستئناف قد عملت لمساعدة انسان على نفي الأذى، وليس من أجل الايذاء، وللتفريغ عن المظلوم، وليس لزيادة الظلم، وإذا كان الرجل الذي قد قمع حرية الكنيسة، والذي غزاها واستولى على ممتلكاتها، لم يستمع إلى التماس استئنافه، يكون أدنى منه بكثير الذين يتقدمون بالتماسات استئناف إليه، ونحن لانقول هذا، لأننا فعلنا، أو نوي أن نفعل أي شيء متطرف، يمكن أن يؤثر على مولانا الملك، أو على مملكته، أو على أشخاصكم، أو على كنائسكم، وكنا نعتقد أننا أكثر عرضة للنقد لطول معاناتنا، لامن أجل قسوتنا أو حدتنا، وبناء عليه إننا

نخبركم باختصار وبشكل حاسم، بأن مولانا الملك، لا يمتلك أي مسوغ للشكوى، وإذا كانت أعمال التذكير التي تسلمها من كل من البابا ومنا أنفسنا، بدون تأثير، فلا بد وقتها للملامة اللاهوتية أخيراً، أن تأخذ سبيلها ضده».

وفي الرسالة نفسها، أمر رئيس الأساقفة غيلبرت، أسقف لندن، بحكم طاعته، أن يقوم خلال أربعين يوماً بعد استلام الرسالة بإعادة— من دون تأخير، أو تعليل— كل الذي جرى تحويله للاستخدام من قبل كنيسته، من المصالح العائدة للكنيسة مع الممتلكات الكنسية للكهنة الذين نفيوا من المملكة مع رئيس الأساقفة، وهي الممتلكات، التي وضعت بموجب أمر الملك تحت عهدة الأسقف المذكور، وعندما تلقى الأسقف هذه الأوامر، كتب إلى ملك انكلترا، بما يلي:

« لقد كان جلالتكم قد تفضل بالأمر بوضع الكنائس العائدة إلى كهنة رئيس الأساقفة، والموجودة في أسقفيتي لندن وكنت، تحت عهدتنا، والرب يعرف، أن عمل المعروف هو الذي دفعنا للقيام بهذا الحمل، حتى إذا ما تمكن الكهنة أنفسهم من استرداد حظوتكم، من تسلم كنائسهم ثانية دون أن يلحقها ضرر، لكن رئيس الأساقفة المتخفي، كان ينتظر فرصته ضدي دون سواي، وسعى لأن يحول ضدي ولضرري، التصرف الذي أملت أن يكون مفيداً للآخرين، ففي رسالة جرى تسلمها للتو، قد أمرني، بحكم طاعتي، بأن أعيد إليه شخصياً وإلى كهنته كل ما انتزع منه ومنهم، ولذلك أتمنى على جلالتكم أن تسندوا العناية بهذه الكنائس إلى شخص آخر، حسبما تراه مناسباً، ومبلغ المال الذي تسلمته منهم، وهو مائة باوند وثمانية باوندات، وأربعة عشر شلناً، وستة بنسات، يمكن أن أسلمها إلى عهدة انسان أو آخر، حتى يبين المولى الطريقة التي يمكن بها إنهاء هذه المسائل».

رسالة البابا الاسكندر إلى رئيس الأساقفة توماس

في عام ١١٦٧م، كتب البابا الاسكندر، إلى رئيس الأساقفة توماس كما يلي: «احتذاء بمثل سلفينا: باسكال، ويوجينيوس، صاحبا الذكرى المباركة، نحن نعطي إليك، وإلى خلفائك، رئاسة كنيسة كانتربري، كاملة كما كانت مملكة من قبل لانفرانك Lanfranc، وأنسلم، وأسلافهما وبالنسبة لجميع المناصب والامتيازات المعروف أنها عائدة إلى الكنيسة، نحن نقوم بتأكيدها بالرسالة الحالية، مثلما تمتع أسلافك بها، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، منذ أيام القديس أوغسطين».

وفي العام نفسه انتقل إلى الرب، روبرت أسقف لنكولن، وكان رجلاً عظيم التواضع، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، وجرى أيضاً اختيار سيمون رئيس رهبان سانت ألبان لأن يكون راعي تلك الكنيسة، من قبل غيلبرت أسقف لندن، وبمهابة جرى تكريسه أمام المذبح العالي في الدير.

ونشب في ذلك الوقت خصام بين ملكي فرنسا وانكلترا، كانت نتيجته أن شموونت Chaumont على مقربة من غيزور Gizors، قد أحرقت من قبل النورمان، وجرى أسر عدد كبير من الفرسان ومن السكان، ولكي ينتقم من هذه الفعلة أحرق ملك فرنسا قرية أندلي An-delis، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، وقد فقد أكثر من ألف رجل أثناء زحفه، وبعد أمد قصير، جرى أسر كثير من الفرسان الفرنسيين في منطقة بيرشي Perche، من قبل النورمان.

رسالة الملك هنري إلى رينالد رئيس أساقفة كولون

عام ١١٦٨م، فيه غضب الملك هنري ضد البابا الاسكندر، لمنحه رئاسة انكلترا إلى رئيس أساقفة كانتربري، فقام بإرسال الرسالة التالية إلى رينالد رئيس الأساقفة المنشق في كولون، وكان عدواً للاسكندر: «

لقد رغبت منذ زمن طويل، في أن أجد سبباً مسوغاً لسحب نفسي من البابا الاسكندر ومن كرادلته الخونة، لأنهم يقومون برعاية رعاياي العصاة ضدي، وأعني بذلك توماس رئيس أساقفة كانتبري، وبناء عليه، إنني — بناء على موافقة باروناتي وكهنتي — على نية إرسال سفارة إلى روما مكونة من الشخصيات البارزة في مملكتي وهم التالية أسماؤهم: رئيس أساقفة يورك، وأسقف لندن، ورئيس شامسة بواتيه رتشارد دي لوسي، وجون أوف أكسفورد، ليعلنوا بوضوح وبشكل عام إلى البابا الاسكندر، وإلى كرادلته، نيابة عني وعن رعيتي في جميع أرجاء ممالكنا، بأن عليهم بعد الآن عدم التمسك بقضية ذلك الخائن، بل أن يجروني منه، وذلك حتى أتمكن، بموافقة كهنتي من تعيين رئيس أساقفة آخر لكرسي كانتبري، وأن عليهم القيام على الفور بإلغاء جميع قرارات توماس المذكور، وهم أيضاً سوف يطلبون أن يقسم البابا بشكل علني عن نفسه وعن خلفائه، القيام بالاعتراف بجميع العادات الملكية لجدي الملك هنري الأول، بشكل كامل وبدون خرق إلى الأبد، لكن إذا رفضوا تقديم الموافقة على أي من مطالبتي، لن أقوم لأنا ولا باروناتي ولا كهنتي بالاستمرار بطاعتهم، بل سنأخذ بشكل معلن موقفاً ضد البابا نفسه وضد كرادلته، ولسوف أطرده من المملكة كل واحد، سوف يؤيد من ذلك الوقت موقفه، وبناء عليه أطلب منك، كصديق عزيز لنا، أن ترسل على الفور إلينا، وبدون تأخير الراهب أرنولد الاستباري، ممثلاً لك شخصياً وللإمبراطور، ليتولى مرافقة السفراء خلال ممتلكات الإمبراطور، ووداعاً، ولقد روي من قبل بعض الكهنة كتاب الملك، بأن غيلبرت أسقف لندن، قد أملى هذه الرسالة، بناء على طلب الملك، ليدمر قضية البابا، ورئيس أساقفة كانتبري، والكنيسة الانكليزية بمجملها، ولذلك حدث في إحدى الليالي، أنه عندما كان غيلبرت متمدداً في فراشه وهو مستيقظ، وكان يفكر، من دون تقدير، كيف يمكنه أن يسبب الأذى والاضطراب

لرئيس الأساقفة، بوساطة هذه الرسالة المثيرة للاضطراب، سمع صوتاً
مرعباً يقول له بصوت مرتفع وبعبارات واضحة:

ياغلبرت فوليوٲ Foliot

وأنت تفكر حول مثل هذه الأشياء الكثيرة

إن ربك هي عشٲوت

رسالة البابا الاسكندر إلى غيلبرت أسقف لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، كتب البابا الاسكندر، إلى غيلبرت، أسقف
لندن حول قضايا كنيسة كانتربري كما يلي: « لانعتقد أنه زال من
ذاكرتك، كيف قام ولدنا المحبوب في المسيح، هنري ملك انكلترا
اللامع، فطلب منا بشكل رسمي مع كثير من الإلحاح، في أن نسمح لك
بالانتقال من كرسي هيرفورد، الذي كنت تتأسه آنذاك إلى كرسي لندن،
ولكي يقنعنا بالموافقة على طلبه، ألح كثيراً على الحاجة الملحة لذلك
وعلى الفائدة من مثل هذا الاجراء، على أساس أن لندن كانت هي مقرة
الملكي، ولأنه عدك متفوقاً على سواك في التقوى والاستقامة، ولذلك
أراد أن يستفيد من نصيحتك، في كل من المجال الروحي والدينيوي،
وذلك فيما يتعلق بخلاص الأرواح وتحسين سلطته والحفاظ عليها،
ولهذه الأسباب أراك أن تكون على مقربة منه، ولذلك قدرنا كم
ستكون المنفعة من تقواك وحكمتك لخلاص الملك ومملكته، والفوائد
التي يمكن أن تنجم عن ذلك، فقد رنا تماما رغبته، ووافقنا على وجوب
انتقالك إلى كرسي لندن، وبناء عليه جاءت موافقتنا بالاستجابة لطلبه،
وكان ذلك ترقية لمقامك، ولكي يكون نشاطك المفرح في سبيل تحسين
الكنيسة والحفاظ عليها، والعمل بمزيد من الاخلاص، حتى يمكننا أن
نلاحظ الخير المتوقع وقد أخذ يتدفق من النوايا الملكية، ونعتقد الآن،
أنك لايمكن أن تكون جاهلاً، إلى أي مدى ابتعد الملك عن انصرافه

التقوي نحو الكنيسة، وفي مجالات كثيرة، منها مثلاً في الالتماسات، وفي الزيارات، وفي الاتصالات مع الذين كان قد جرى حرمانهم بالاسم، ومع المنشقين، ولقيامه بإرغام أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، على مغادرة مملكته، وبذلك بدا، وكأنه بالفعل يعذب الكنيسة ويظلمها، وبناء عليه نحن نسألك بسبب حرصك على مصالحها، ونحثك في الوقت نفسه ونأمرك فيما يتعلق بأخينا المحترم روبرت أسقف هيرفورد، لحث الملك باخلاص ونصيحته في أن يتخلى عن مقاصده في جميع المجالات العدوانية، وأن يقدم ترضية صحيحة وتكفيراً عن ذلك، وأن يعود في قلبه إلى محبة خالقه، وأن ينظر بعين احترامه المعتادة إلى الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمه، وأن لا يعيق الذين يودون زيارتها، وأن لا يمنع الذين يودون تقديم الالتماسات إليها من فعل ذلك، وأن يعيد استدعاء أخانا المتقدم ذكره أي توماس رئيس أساقفة كانتربري، إلى كرسيه، وأن يظهر نفسه ابناً مخلصاً للقديس بطرس، ولنا أنفسنا، وأن ينصرف إلى أعمال الرحمة والشفقة، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك، بحفظ مملكته الدنيوية له، مادام هو على الأرض، وأن يمنحه مملكة دائمة فيما بعد في السماء، ومالم يبادر مسرعاً بتقويم هذه الأخطاء، عليه أن يخشى من أن يكون الرب غاضباً غضباً شديداً، من أجل ذلك كله، وأن ينتقم منه انتقاماً حاداً، مادامنا نحن أنفسنا بتنا غير قادرين أن نكون صابرين أكثر، كما أننا لانحث على هذا بسبب دوافع تتعلق بنا أنفسنا، بقدر ما الأمر متعلق به، لأننا نرغب في علو مجده، ورفعة مقامه من قلبنا وروحنا».

الرد المفترض لغيلبرت أسقف لندن على البابا الاسكندر

« تم تلقي أوامرك الشرعية، يا أبانا الأعز في المسيح، مع كل الاحترام المستحق، وقمنا على الفور بالمشول شخصياً أمام ابننا العزيز، الملك اللامع لانكلترا، وفيما يتعلق بأخينا المبجل روبرت أسقف هيرفورد

حشناه بإلحاح ووفقاً لما جاء من أوامر في رسالتك، وعرضنا أمامه جميع الخصوصيات في رسالتك، والتمسنا منه وتناقشنا معه، حول ماهو لائق بالجلالة الملكية، من أنه إذا مابتعد في أي مجال عن الطريق القويم، عليه أن لايتأخر— بناء على تشجيعنا— على العودة إليه، وأن يتبع نصائح أبنينا، بالابتعاد عن الأعمال الشريرة، وأن يحب الرب من كل قلبه، وأن ينظر باحترامه المعتاد إلى الكنيسة الرومانية، وأن لايمنع الذين يودون زيارتها، وأن لايحول دون رفع الالتماسات القضائية إليها، وأن يعيد إلى أبنينا السيد رئيس أساقفة كانتبري كرسية، وأن يظهر نفسه ابناً تقياً وثابتاً للقديس بطرس، وأن يصرف اهتمامه كله إلى أعمال التقوى، وأن يتوقف عن الإضرار بالكنائس وبرجال الدين، أو أن يعرضهم للأذى من قبل الآخرين، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك بحفظ مملكته الدنيوية له، مادام باقياً على الأرض، وأن يمنحه بعد ذلك سيادة دائمة في السماء، وإذا لم يصغ إلى هذه الآراء السليمة، فقداستك التي تحملت حتى الآن التعامل بصبر، لن تقوم بعد الآن بالمعانة أكثر، وقد تلقى الملك تشجيعنا مع كثير من الشكر، وأجابنا بلطف حول كل جزء منها، وقد أكد في المقام الأول أنه لم يتعد بعقله عنكم، وأنه لم ينو نوايا أخرى مطلقاً، شريطة أن تبدي نحوه رعاية أبوية من أجل مصالحه، أكثر من أن تحبه كأب له، من أجل تأييد ورعاية الكنيسة الرومانية المقدسة، وأن يطيع أوامرك، باستثناء مايعرض كرامته وكرامة مملكته للضرر، وإذا كان لم ينظر إليكم بالاحترام المعتاد، فهو يقول بأن سبب ذلك هو مايلي: فهو قد حافظ على احترام حاجاتك وقضيتك بالعناية من كل قلبه، ونفسه وروحه، وقوته، أما أنتم فلم تبادلوه الشيء نفسه في وقت الحاجة، لابل إنه تشكى أنه في كل شيء تقريباً قد طلبه منكم، ووجه من قبلكم بالرفض، وصدوراً عن الثقة بمحبة الأب، الذي سوف يصغي دوماً إلى التماسات وتضرعات ابنه، وأملاً في عطايا لطيفة من اهتمامك، هو سيبقى ثابتاً ومستمراً في تقديره للقديس بطرس ولك، وسوف لن يمنع

أي انسان من زيارتك، ثم إنه لم يمنع أحداً من زيارتك في الماضي، وأما بالنسبة لالتزامات الاستئناف، فإنه يدعي بأن هذا امتياز خاص به، وهو واجبه، بموجب العادات القديمة لبلاده، حتى لايقوم أي رجل دين من مملكته بمغادرة المملكة من أجل دعوى مدنية حتى يحاول الحصول على العدالة في إطار سلطات الملك الخاصة ورعايته، لكن إذا توفر أي اخفاق في العدالة في هذا المجال، فوقتها يمكن الاستئناف إلى غبظتكم، ووقتها لن يقوم الملك بأي اعتراض على ذلك، وفي ظل هذا العنوان نفسه أيضاً، إذا كانت حقوقكم وامتيازاتكم قد تعرضت للإساءة في أي مجال من المجالات، يعد الملك بأنه سوف يتولى اصلاح ذلك بكل سرعة، بعون الرب، وبمشورة جميع رجال الدين في ممتلكاته، أما بالنسبة للامبراطور، فإنه مع أن الملك يعرف أنه منشق، هو لم يسمع قط أنكم قتمتم بحرمانه كنسياً، وإذا ما أخبرتموه بأن هذا هو الحال، وكان الملك قد دخل في أية علاقات غير قانونية معه، أو مع أي شخص آخر، فإنه سوف يترك هذه النقطة أيضاً إلى قرار وقضاء الكنيسة في مملكه، فضلاً عما تقدم أكد الملك أنه لم يرغب أبانا رئيس أساقفة كانتبري على مغادرة المملكة، ذلك أنه غادرها باختياره الشخصي، ويمكنه أن يعود إليها بحرية كما تركها، شريطة أنه في رضاه عن النقاط التي اشتكى حولها، هو سوف يعترف مخلصاً بعادات الملك الملكية، التي أقسم عليها، وإذا أمكن البرهنة على أن أي كنيسة، أو شخص لا هوتي قد أخطأوا بحقه، هو على استعداد لتقديم التعويض، وفقاً لحكم الكنيسة كلها، فهذا الجواب الذي تلقيناه من مولانا الملك، الذي كما يبدو يضع بشكل رئيسي، قضيته، على الارادة باحالة كل نقطة إلى حكم الكنيسة في مملكه، ونتأمل من غبظتكم أن تتذكروا في أذهانكم القول: «لا تقطع قصبة مكدومة، ولا تطفئ كتانا يدخن»، وإذا كان على هذا الاعتدال يرضيك، لبعض الوقت في حدود التعقل، فإن الحماس الذي شرع بالانتقام لكل خطأ لحق بكنيسة الرب، بوساطة التهديد بإصدارك قرار

المنع، أو أخيراً بقرار الحرمان الكنسي، وإنك بذلك سوف تلحق الضرر بعدد لا يحصى من الكنائس التي تهدمت، وبذلك سوف تبعد عنك الملك مع عدد لا يحصى من الأشخاص معه، وعن ولائك، لاسمح الرب بذلك، لأن الدم الملكي يسمح لنفسه فقط بالعلبة عندما يزول من الوجود، لكن ليس من العار لديه التنازل لدى كسبه للنصر، ونحن في الحقيقة عندما نتكلم إليك هكذا حمقى، إنما في حدود الرعاية الحقيقية، والحظوة، لأنه إذا كان يضع نهاية لهذه القضية، في أن يفقد رئيس أساقفة كانتبري كل شيء، وأن يقنع نفسه بالنفي، في حين تتوقف انكلترا عن الخضوع لسلطانك، فإن هذا سوف يكون أفضل لبعض الوقت، ومسايرة للحال، من أن نكون عبيداً لمثل هذا النوع من الممارسات القاسية، لأنه إذا كان التعذيب لم يكن قادراً على فصل المزيد وابعادهم عن طاعتك، لن تكون هناك حاجة إلى بعض ممن سيركعون إلى بعل، أو يقبلون من دون تقدير للدين بتلقي طيلسان كانتبري من يد الوثن، كما لن تكون هناك حاجة إلى رجال يشغلون كراسينا المقدسة، ويظهرون طاعتهم له مع جميع التقوى التي في عقولهم، وكثيرون قد تكهنوا متنبئين بمثل هذه الأشياء، أملين بقيام الاعتداءات وعلوها، وبإمكانية تدمير الاستقامة، ولهذا السبب، نحن يا أبانا الأعظم قداسة لانتحب لسوء حظنا فقط، وإنك ما لم تقابل الشر بكل سرعة، نخشى أن تتدمر كنيسة الرب بشكل مهين، وأن نصبح يائسين من حياتنا، وأن نلعن اليوم الذي ولدنا فيه».

وفي العام نفسه، حرم رئيس الأساقفة توماس كنسياً، آلان دي نيفيل لأنه وضع في السجن قسيسه وليم، ومات كونان إيرل بريطانيا الصغرى، وترك من خلال زوجته كونستانس، أخت ملك الاسكوتلنديين، ابنة ورثت ممتلكاته، وهي التي أخذها هنري زوجة لابنة غيوفري، وبعمله من أجل إقامة السلام في كل مكان من بريتاني

قام بارضاء عقول كل من رجال الدين والناس في تلك المقاطعة.

رسالة البابا الاسكندر إلى الملك هنري فيما يتعلق بالمصالحة مع توماس المبارك

عام ١١٦٩م، فيه كتب البابا الاسكندر إلى ملك انكلترا، حول مايتعلق بكنيسة كانتربري كما يلي: « غالباً ماقمنا بوساطة الأبوة والمشاعر الطيبة بالاتصال بجلالتكم، وحشناكم بكل من الرسائل والرسل للمصالحة مع أخينا المحترم توماس رئيس أساقفة كانتربري، وأن تعيد إليه وإلى كهنته كنائسهم، وممتلكاتهم الأخرى، وهو أمر حكمتكم السامية لايمكن أن تحقق في معرفته، لأنه بات معروفاً ومنتشراً، في كل جزء تقريباً من العالم المسيحي، وبناء عليه بما أننا حتى الآن لم نحرز تقدماً في هذا المجال، كما لم نحمد بالتصرف اللطيف الغضب في ذهنك، نحن حزينين وآسفين لذلك، ويؤلنا أن نجد بأن آمالنا قد هزمت، وخاصة لأننا نحبك باخلاص بمثابة ابنا الأعز بالرب، ونحن نرى خطراً عظيماً يتهددك، ولقد كتب: « اصرخ عاليا ولا تتوقف، وارفع صوتك مثل بوق، وأعلن إلى شعبي تجاوزاته»، ولهذا قررنا عدم الاستمرار بتحمل قساوة قلبك، كما هو الأمر حتى الآن، من أجل تأمين العدالة، وكذلك خلاصك، كما أننا لن نستمر في إغلاق فم رئيس الأساقفة بأية وسيلة من الوسائل، أو نمنعه من تأدية واجبه بحرية، ولسوف ننتقم بالسيف اللاهوتي الحاد، من الأخطاء التي اقترفت بحقه شخصياً، وبحق الكنيسة الموضوعة بعهدته».

وكتب البابا أيضاً إلى سيادة [رئيس أساقفة] كانتربري بما يلي: « بما أننا حتى الآن قد انتظرنا طويلاً مع الصبر واللطف، لأن يتوب ملك انكلترا، وكررنا حثه باتصالات لطيفة ومهدئة، وأحياناً بقسوة وملامة، حتى يعود إلى شعوره الصحيح، نقوم الآن بإعلامك بأنه إذا لم يُعد إليك ولأصحابك، وكذلك إلى الكنيسة جميع الممتلكات والمناصب

الرفيعة التي انتزعت، إنك تمتلك السلطة الكاملة بممارسة النظام اللاهوتي وتطبيقه على جميع الأشخاص والأفراد التابعين لسלטانك، باستثناء فقط أشخاص الملك، وزوجته، وأولاده، ومن دون التماس، شريطة فعل ذلك مع الحكمة والوعي، حسبما يتماشى مع اعتدال الكهنة».

وفي الوقت نفسه، قام غيلبرت أسقف لندن، حتى يتجنب قراراً بحقه من رئيس أساقفة كانتربري، بتوجيه الدعوة لاجتماع رجال الدين والناس من مدينة لندن، في يوم الأحد الأول من الصوم، في كنيسة القديس بولص، ورفع التماس استئناف إلى الكرسي البابوي، ومع أنه غالباً ماجرى حثه من قبل رئيس الأساقفة نفسه، لإعادة الكنائس والمنافع إلى كهنته، وهو ما كان قد تلقاه وعهد به إليه من الملك، وذلك مع جميع الأمتعة والحاجيات التي أخذها منه ومنهم، مع ذلك استمر في عصيانه ولهذا كله، وللإجراءات القانونية، قام رئيس الأساقفة، دون أن يعلم بالتماس استئنافه، فحرمه بشكل مهيب، في كليرفو، يوم أحد السعف، وذلك بحكم كونه مؤيداً للعادات الظالمة للملك، وحول هذا الموضوع تعطينا الرسالة التالية فهما كافياً.

كيف قام رئيس الأساقفة توماس بحرمان أسقف لندن كنسياً

« من توماس، بنعمة الرب، رئيس أساقفة كانتربري، والنائب للكرسي البابوي، إلى غيلبرت أسقف لندن، الذي يرغب بأن يقول أخيه، لو أنه ابتعد عن الشر وعمل الخير، لقد تحملنا إسرارك طويلاً، ونأمل أن لا يكون صبرنا حاسماً بالنسبة للكنيسة كلها، كما هو بالنسبة لأنفسنا، فلقد أفسدت صبرنا، ولم ترغب بالاصغاء إلى البابا أو إلينا أنفسنا بشأن النصائح المتعلقة بخلاصك، لكنك بعنادك صرت أسوأ فأسوأ، حتى قمنا صبوراً عن تقديرنا للواجب المقدس، واستجابة لمتطلبات الشريعة، ومن أجل أسباب واضحة، باصدار قرار بحرمانك كنسياً، وبفصمك

عن جسد المسيح المقدس، الذي هو الكنيسة، حتى تقوم بترضية موائمة، ولذلك نحن نأمرك بحكم طاعتك، وخشية على خلاصك وعلى مقامك الأسقفي، وعلى الأنظمة الكهنوتية، أن تتمنع — كما تقضي القوانين الكنسية — عن جميع الاتصالات مع المؤمنين، خشية أنه بالاتصال بك، سوف يضل قطيع الرب ويتدمر، في حين أنه ينبغي أن يتوجه بتعليمك، وأن يقاد بمثلك إلى حياة سرمدية».

والآن مع أن الأسقف كان قد رفع التماس استئناف قبل صدور القرار ضده، تواضع وأطاع أوامر رئيس الأساقفة، وتوقف عن الدخول إلى الكنيسة، وبرسالة من رئيس الأساقفة وجهها إلى عميد لندن وإلى رجال الدين أمرهم بالتوقف نهائياً عن الاتصال بالأسقف.

وفي هذا العام أيضاً، تزوجت إليانور ابنة الملك هنري، من ألفونسو ملك كاستيل.

رسالة الملك هنري إلى غيلبرت أسقف لندن

« من هنري، ملك انكلترا، إلى محبوبه والمخلص له، غيلبرت أسقف لندن، تمنيات بالصحة ومحبة: لقد، سمعت بالاساءة التي ألحقها بك وبآخرين من رعيتي، ذلك الخائن، والعدو لي شخصياً، توماس، وأنا منزعج من ذلك إلى حد، وكأنها وقعت عليّ شخصياً، وبناء عليه ليكن بمعلوماتك شخصياً وبشكل مؤكد أنني سأبذل جهدي، من خلال مولانا البابا، وملك فرنسا، وجميع أصدقائي، في أن لا يكون بمقدوره من الآن فصاعداً توجيه الأذى إلينا وإلى ممالكنا، وإنني أريد، وأنصح أن لاتدع هذه تؤثر على تفكيرك، بل عليك الدفاع عن نفسك بأفضل ماتستطيع، وإما أن تقدم إليّ إلى هنا على الفور إلى نورماندي، أو البقاء في انكلترا، حسبما تراه مناسباً، ذلك أنني أدع هذا إلى مشيئتك، وعليك أن تكون متأكداً، أنك إذا ماقررت القدوم، ومتابعة السفر إلى روما،

سوف أزودك بكل شيء ضروري لرحلتك، أو أن ذلك يمكن أن يفضي بي للحفاظ على كرامتي».

كيف أرسل البابا نواباً عنه لصنع سلام

بين الملك وبين القديس توماس

وجرى في العام نفسه ارسال مندوبين سامين هما: فيفيان Vivian و غراشيان Gratianus ، لصنع سلام بين ملك انكلترا ورئيس أساقفة كانتربري، ومع أن سلطتيهما كانت متساوية، فقد كانت موافقهما متباينة، وبدا أنهما في النهاية لن يتوصلا إلى اتفاق، لأنه منذ البداية كانت مشاعرهما متصارعة كثيراً، وهكذا أخفق غراشيان في الحصول على حظوة لدى الملك، وفيفيان لدى رئيس الأساقفة، فقد مثلاً بحضرة الملك، وكذلك أمام رئيس الأساقفة في بيوكس Bayeux في نورماندي، وبعد مناقشات كانت تقريباً بلانهاية، بدت بوادر للتوصل إلى اتفاق، عندما أرسل وليم رئيس أساقفة السين رسالة يحذر فيها المندوبين— وفقاً لتعليقات كان قد تلقاها من البابا— من الاستمرار في المباحثات من دون أخذ رأيه، والتداول معه، ولذلك غادر المندوبان بلاط الملك دون أن يكملوا أي شيء، لأن الملك هنري لم يكن على استعداد للتوصل إلى أي اتفاق، ما لم يتم تقديم الاحترام الكامل للعادات السيئة لمملكته ومفاخرها، وهذا ما لم يكن المندوبان يعتقدان أنه من الموائم الموافقة عليه.

رسالة الملك هنري إلى البابا الاسكندر

وعبر في العام نفسه غيلبرت، أسقف لندن، البحر، ليمثل أمام البابا الاسكندر، وليقدم إفادة عن دواعيه إلى الاستئناف، وقد عبر من خلال نورماندي، حيث كان هنري، وتشاور مع الملك حول كيف يمكنه أن يتغلب بالمراوغة على رئيس أساقفة كانتربري المبارك، ويسود قضيته

الصحيحة في عيني الحبر المقدس، واتفقا أخيراً معاً، على أن يرسل الملك إلى روما سفارة مهيبة تذكر بشكل واضح، أنه ما لم يقم البابا على الفور وبشدة بقمع عجرفة رئيس الأساقفة، سوف يعلن هو نفسه وجميع باروناته وكهنته عن تخليهم عن الطاعة إلى البابا، وكان فحوى رسالة الملك كما يلي:

« تعلم جلالتك السامية بشكل جيد مدى القلق الذي لحق بي من قبل عدوي توماس، مع أن ضميري يشهد بأنني لم أستحق ذلك، فأنا لم أعمل شيئاً يستحق كل هذا الغضب، وقد أضاف الآن أذى جديداً إلى الكثيرين، واستمر ولم يتوقف عن إيذاء واحد هو برىء، فبتفويضك كما أعلن، قد حرم كنسيا هؤلاء الذين هم أبناء أتقياء خلص للكنيسة الرومانية، وأقصد بذلك أسقفي لندن وسالسبري مع بعض أصدقائي، مع أنه لا يمتلك سبباً معقولاً ضدهم، وكم هو صعب بالنسبة لي التعامل مع مثل هذا التصرف، وكم ذلك مضر بسمعتي وسمعتكم، وأعتقد أن هذا ليس من الصعب عليكم إدراكه، هذا ويبدو لي أن عنايتكم الأبوية قد أهملتني كلياً، لأنكم سمحتم لعدوي بزيادة آلامي وشقائي، في الوقت الذي يتوجب فيه أن يقوم اعتدالكم الأبوي بإيقاف عنفه وظلمه، ولذلك ألتمس وأتمنى على سموكم، كما هو صحيح، أن تظهروا نحوي العاطفة التي أستحقها كابن، لتصحيح — من دون تأخير — الأذى الذي اقترف بحقي وبحق مملكتي، ولإزالة كل ماعمله خصمي مما هو مضاد للعدل، ضدي وضد رعيتي، سواء أكانوا من الكهنة أو من العلمانيين، لأنه يتوجب عليك الاستجابة إلى الطلبات التي تقدمنا بها إلى تقديرك الأبوي، آخذين بعين التقدير أنك عندما بعثت برسوليك: فيفيان وغراشيان، بأنه ينبغي أن نعيد إلى رئيس أساقفة كانتربري رئاسة أساقفيته، وحظوتنا، وضعنا جانباً كل تقدير لكرامتنا، ووافقنا، أمام المندوبين نفسيهما، مع ثمانية رؤساء أساقفة،

وأساقفة، ورعاة ديرة، مع أن توماس كان قد غادر المملكة دون أن نعلم بذلك، ودون وجود أي إكراه من جانبنا، على أنه يمكنه العودة مجدداً بسلام وأن يستأنف كل أعماله ويسترد كل ممتلكاته، كما تركهم في اليوم الذي غادر فيه المملكة، ومثله كذلك جميع كهنته الذين غادروا المملكة معه، أو من أجله، إنما مع الحفاظ دوماً على كرامة المملكة، وبناء عليه نحن نلتزم من سموكم الرفيع أن تقدروا بعناية الاحترام والخدمة التي قدمناها لكم ولبلاطكم، وسنستمر في تقديمها، ما لم يكن ذلك من خطأ منكم، في أن تستمروا بالاعتدال تجاه المسائل القائمة حالياً، أي في أن لا تستمر شروء ذلك الخائن والمتمرد الذي هو من رعيتي، وأن لا يشوش أذهاننا الصافية، بل أن تقوم تماشياً مع استراحاتنا بتحليل أولئك الذين حرموا كنسياً، وأن تتدبروا أن لا يقوم ذلك الخاقد نفسه بإصدار قرارات حرمان كنسي ضد آخرين، وخشية أن تصموا أذنكم عن سماع التماسنا، فندفع نحو اليأس من حسن عواطفكم نحونا، وأن تدفعونا، بحكم الضرورة، إلى البحث عن وسيلة لأمننا بعد ذلك، وبما أنه من الصعب في أن ندون كتابة كل مانرغب في قوله، نبعث إلى أقدام كرسيكم الأبوي، خادميننا الموثوقين: رينالد رئيس شماسة سالسبري، ورتشارد دي باري Barre، اللذان سوف يوضحان بكلمات الفم كل الذي حدث، وجميع المسائل التي نود أن نوصلها إليكم».

كيف شوّه رسولا الملك قضية رئيس الأساقفة كثيرا جداً.

ووصل رسولا الملك إلى البلاط الروماني، ووضعوا أمام البابا رسالة سيدهما، مع أشياء أخرى عهد بها إليهما، وابتغيا بوساطة الهدايا ولغة الإطراء، جعل البابا يميل إلى إظهار الملك، والذي فعلاه يمكن العثور عليه في الرسالة التي أعادها البابا إلى رئيس الأساقفة توماس، والتي جاءت بدايتها كما يلي:

« تعرفون بغيرتكم النشاط والعناية اللذان أبداهما ابننا العزيز في

المسيح الملك هنري ملك انكلترا، في حكمه لمملكته، وقد طلب منا إعطاءها قوة على سلطة الكنيسة الرومانية، وأن تبقى عادات المملكة القديمة وامتيازاتها من دون نقصان، ثم إنه طلب مني زيادة على ذلك بالحاح أن أمنح السلطة القانونية على انكلترا كلها إلى رئيس أساقفة يورك، وتقديراً منا للوضع الحرج لهذه الأيام، قد منحنا السلطة القانونية إلى رئيس أساقفة يورك، وذلك بناء على طلب الملك، لكن مع الوعد السالف لرسوليه، بناء على كلمة الصدق، وتأکید ذلك باليمين، بعدم إعطاء الرسائل إلى رئيس أساقفة يورك من دون موافقتك»، وأيضاً في رسالة أخرى أمر البابا رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، بموجب طاعته، أن لا يتفوه بقرار منع، أو حرمان كنسي، أو تعليق، ضد الملك، أو ضد مملكته، أو ضد رعيتيه، ما لم يصر الملك على عناده، فيرفض قبل بداية الصوم الكبير أن يعيد إليه حظوته مع الممتلكات العائدة إليه شخصياً، وإلى كهنته، وذلك من أجل خلاص روحه، والهدوء لحكمه، وحكم ورثته إلى الأبد» .

المعانة العقلية لرئيس الأساقفة المبارك

هكذا كانت إذن نار المحنة، والمعانة العقلية، التي عاشها توماس المعترف الجريء، حتى أنه شرع الآن يتألم في عقله بالآلام الشهادة التي لم يصلها بعد في جسده، لأنه رأى الذي يتوجب أن يكون قائد القوات العسكرية للكنيسة لم يقف بنفسه أمام سور الدفاع عنها في يوم المعركة، بل انهزم مثل كبش من دون قرنين، ولذلك قنط الآن، وفقد كل أمل من انسان، وصرف تفكيره لتلقي المواساة من الرب، وصلى من دون توقف من أجل أوضاع الكنيسة، مرهقاً جسده بالسهر، والصوم، والصلاة، من أجل الذين كرهوه وعذبوه، وبتنهيدات ودموع صلى إلى الرب ليحفظ الكنيسة، التي أنقذها وكرسها بدمه، ومن الذي يستطيع وصف المعانة والآلام العقلية لرجل الرب هذا، الذي سيق والده وأمه،

وأخوانه، وأخواته، وأحفاده وحفيداته وكهنته وموظفيه الدينيين، إلى المنفى بسببه، وأجبر هو، على الرغم من مكانته السامية في كنيسة الرب، وهو حزين، على أكل خبز الغرباء، في أرض أجنبية، ولكن على اعتبار أن مامن واحد وصل فجأة إلى الكمال، فإن آلامه وقعت لتمتن عقله، ولتمكنه من تلقي شرف الشهادة من حد السيف، لأن مكان استشهاده لم يحدد له بعد.

صيغة الالتماس الذي قدمه رئيس أساقفة كانتبري إلى الملك

وفي العام نفسه، في الثامن من يوم عيد القديس مارتن، وبوساطة من الحبر الأعظم، جرى عقد مؤتمر في باريس بين ملكي فرنسا وانكلترا، وقد حضره رئيس الأساقفة من دون أن يمثل في حضرة الملك هنري، وهنا بعد صرف وقت طويل في محاولة المصالحة بين الملك وبين رئيس الأساقفة، قام رئيس الأساقفة هذا، بناء على نصيحة ملك فرنسا، وأساقفته، ونبلائه، الذين كانوا حاضرين، بإرسال الالتماس التالي كتابة إلى ملك انكلترا:

« نحن نسأل مولانا الملك، استجابة لأوامر مولانا البابا ولنصائحه، في أن يقوم من أجل محبة الرب، ومولانا البابا، وتشريفاً لكنيستنا المقدسة، وخلص كل من نفسه وورثته، فيقبل بحظوته جميع الذين من أجلنا، وكانوا بصحبتنا، قد نفىوا من المملكة، وأن يمنح إلينا سلامه، وأماناً تاماً على يديه نفسه وعلى أيدي المشايخين له، من دون تراجع، وأن يعيد إلينا كنيسة كانتبري، كاملة ومتحررة، كما أخذناها عندما عملت رئيساً للأساقفة، مع جميع ممتلكاتها، لتتملكها، ولنضعها بين أيدينا، حرة، ومطمئنة ومشرفة، كما ينبغي للكنيسة، وكما ينبغي لنا أن نستحوذ عليها، أي مثلما كانت عندما جرت أولاً ترقيتنا إلى مرتبة رئاسة الأساقفة، وأن يسمح بالطريقة نفسها لجميع أتباعنا أن يملكوا جميع كنائسهم مع جميع الأوقاف العائدة لرئاسة الأسقفية، التي غدت

خالية منذ أن غادرنا المملكة، وأن نتصرف بهم وكأنهم ملك لنا، وحسبما يبدو جيداً لنا ولأتباعنا».

ورفض ملك انكلترا الموافقة على هذين الشرطين، لأنه بالنسبة لشرط إعادة التملك، بما أنه لم يرغب رئيس الأساقفة على مغادرة انكلترا، هو لم يكن مجبراً، وفقاً لكرامته الملكية، على دفع أي شيء، أو نقض منح الكنائس الشاغرة، التي منحت إلى بعض الأشخاص، هذا وأكد الملك بحضور ملك فرنسا أنه على استعداد لتقديم ترضية إلى رئيس الأساقفة، أو إذا رغب في مناقشة القضية بعرضها للمحاكمة في قصر الملك في باريس، أمام رجال دين فرنسيين، أو أن يستمع للمرافعات من الجانبين فريق من العلماء من جميع المناطق، وهكذا فإن الملك الذي كان جلب لنفسه من قبل المشاعر السيئة لكثير من الناس، ربح بهذه الاقتراحات تأييدهم، وبهذه الطريقة، وبوساطة أصدقائهم، صار من الممكن تحقيق اتفاق بين الملك وبين رئيس الأساقفة، لكن الملك رفض منحه قبلة السلام، مع أنه كان على استعداد لمنحه كل ضمانات، لكن رئيس الأساقفة من جانبه، رفض عمل أي سلام، إلا إذا استطاع أن يضعه على قواعد ثابتة وأمينية.

كيف أقسم نبلاء بريتاني يمين الولاة

إلى الملك هنري وإلى ابنه غيوفري

عام ١١٧٠م، فيه عقد، هنري ملك انكلترا بلاطه في يوم عيد الميلاد، في نانتي Nantes مع أساقفة وبارونات بريطانيا الصغرى، الذين أقسموا جميعاً يمين الولاة له ولولده غيوفري، ثم عبر في الصوم الكبير التالي إلى انكلترا، وكاد أن يغرق مع جميع أناسه.

تحليل أسقف لندن

وفي هذا العام أيضاً، وصل غيلبرت أوف لندن إلى ميلان وهو على

طريقه إلى روما، وهناك تسلم رسالة من مولانا البابا، فيها الاعلام التالي: « لقد أمرنا رئيس أساقفة روان، وأسقف اكستير، بأن يتلقيا منك، عوضاً عنا، يمينا بأنك سوف تلتزم بالقرار الذي صدر ضدك، ومن ثم القيام بتحليلك، على أساس أن لا يتسبب حرمانك الكنسي أية خسارة في مرتبتك أو مقامك، أو يسيء إلى سمعتك من الآن فصاعداً»، وبذلك نجح الأسقف بتحقيق هدف رغباته، وجرى تحليله بشكل علني في روان في يوم أحد الفصح.

حياة وفضائل القديس غودريك الناسك

وفي هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة غودريك Godric الناسك، إلى الحياة الأبدية، وسوف نقدم فيما يلي بعض الملاحظات عن حياته، ومعجزاته، ونهايته المجيدة، لأنه سيكون من الظلم بالنسبة للقديس أن نمر مرور الكرام بأعماله المجيدة، وكان صديق الرب هذا قد ولد في نورفولك Norfolk، وكان اسم ابيه أيلوورد Ailward واسم أمه إيدوينا Eadwenna، وقد ربي من قبل والديه في قريته وولبول Wal-pole، وهناك أمضى شطراً من حياته بصحبتهم، وبعدها أمضى السنين البريئة من طفولته، أصبح تاجراً، في البداية بصورة متواضعة، ثم أصبح بعد ذلك يتردد على السوق العام مع التجار الآخرين، وفي أحد الأيام عندما كان يسير وحيداً على الشاطئ، وجد ثلاثة دلافين مرمية من قبل البحر، وقد بدا واحداً منهم ميتاً، والاثنان الآخران يموتان، ولأسباب إنسانية، ترك اللذين كانا حيين دون لمسهما، وحمل نفسه قطعة من الذي كان ميتاً، وانطلق عائداً إلى البيت، ثم أخذ التيار بالارتفاع كما هي العادة، ووصلت المياه في البداية إلى قدميه ورجليه، وأخيراً ارتفعت حتى رأسه، لكن بما أنه كان قوي الايمان، تابع سيره تحت الماء، بتوجيه من الرب حتى وصل إلى الأرض الجافة، وقدم السمكة إلى والديه، وأخبرهما بكل الذي حدث له.

وكان في بعض الأحيان يستغرق بالتأمل عندما يكون وحيداً، حول الأشياء السماوية وحول الصلاة الربانية والعقيدة، ولحماسته للدين ذهب إلى سانت أندرو في سكوتلندا للصلاة، وبحماسة ليست أدنى من ذلك ذهب إلى روما، وبعد عودته من هناك ألحق نفسه ببعض التجار، وأسهم في النقل بالبحر، مما درّ عليه ثروة كبيرة إلى حد أنه صار مالكاً لنصف سفينة وربيع أخرى، ولكونه قوياً بجسده ونشيطاً في عقله أبحر إلى مختلف بلدان العالم، وزار الأماكن المقدسة للقديسين.

حول الفتاة التي تدبرت للقديس غودريك حجة

وبعدما أمضى ستة عشر عاماً في الربح من هذه الرحلات التجارية، قرر أن ينفق في سبيل الدين الثروة التي جمعها بجهوده، وبناء عليه حمل الصليب وزار بخشوع ضريح ربنا، وفي طريق عودته إلى انكلترا مرّ [بمزاز] القديس جيمس [في كومبوستالا في اسبانيا]، وشعر بعد مضي بعض الوقت بالرغبة بزيارة العتبات [المقدسة] للرسولين، وأوصل هذه النية إلى والديه، وعندما عبرت أمه عن رغبتها بمرافقته، إذا سمح لها، وافق بسرور، وبطاعة بنيوية، وقد حملها على كتفيه، كلما تطلبت وعوره الطريق ذلك، وعندما عبرا خلال لندن اقتربت منها امرأة ذات جمال عظيم، وطلبت الإذن بالالتحاق بحجّهما، وقد وافق على ذلك بدون تردد، والتحقت بهما بنشاط عظيم وتقوى، ذلك أنها غسلت أقدامهما وقبلتهما، وخدمتهما أحسن من الآخرين، وتصرفت على هذه الصورة طوال الطريق في الذهاب وفي الإياب، وما من أحد سأها من كانت ولا من أين جاءت، كما أنها لم تذكر ذلك قط، ولدى مرورهما خلال لندن أثناء عودتهما، حصلت على موافقتها بالمغادرة، وقالت لها قبل مغادرتها: «حان الوقت بالنسبة لي للذهاب إلى المكان الذي جئت منه، وأنت ينبغي أن تقدم الشكر إلى الرب، الذي لم يهمل قط الذين وضعوا ثقتهم به، وأنا أخبرك أنه من المؤكد حصولك على الذي صليت من

أجله في روما، من الرسولين»، وما من أحد من الجماعة رأى هذه المرأة، باستثناء غودريك وأمه فقط.

كيف ذهب رجل الرب للاعتزال في الصحراء بعد عودته إلى الوطن وبعدهما أعاد أمه بالأمان إلى حماية أبيه، باع كل ما كان يمتلكه، وتلقى مباركتها، وتركها من أجل أن يصير ناسكاً، في أقصى مناطق انكلترا، وذهب إلى مدينة اسمها كارلايل، حيث وجد بعضاً من أقاربه وقد حصل من واحد منهم على هدية حوت بعضاً من مزامير القديس جيروم، التي شرع بعد وقت قصير بتلاوتها عن ظهر قلب، ثم ذهب من دون أن يعرف رفاقه للاعتزال في الغابات، حيث عاش لبعض الوقت على الأعشاب والثمار البرية، وجاءت الأفاعي والحیوانات المتوحشة ونظرت إليه، ثم كان أن تركته بعد مضي بعض الوقت دون أن تسبب له أي أذى، وأمضى في هذه الصحراء أياماً كثيرة كناسك، حيث كان في بعض الأوقات يجثو على ركبته، وفي أوقات أخرى وهو رافع ذراعيه نحو السماء، أو ساجداً على الأرض، وطوال ذلك كان يصلي بشكل متواصل إلى الرب، وأخيراً وجد مكاناً، كان كهف ناسك، وقد دخل إليه، حيث تلقى تحية «مرحبا يا أخ غودريك» وقد رد عليها بقوله: «كيف أنت يا أب إيلريك Ailric ؟» مع أنه لم يعرف أحدهما الآخر من قبل، وأجابه الرجل العجوز: «لقد أرسلت من قبل السماء لتدفن جسدي الشائخ بعدما أموت»، وعاش هذان الرجلان مع بعضهما لمدة عامين، مع أن أيا منهما لم تكن لديه أية حاجيات، وأخيراً صار الناسك العجوز ضعيفاً جداً، وكان غودريك يحمله، ويجلب إليه الطعام، وقد أحضر له كاهنا ليسمع اعترافه، وقد قدم له القربان، وعندما رأى غودريك بأن حالته قد تدهورت قال له: «إن روحك قد خلقت مشابهة للرب، لذلك أرجو بحق الرب التقدير أن لاتغادر هذا الجسد من دون علمي»، وبناء عليه مات الرجل العجوز على الفور،

ورأى غودريك نوعاً من الأجساد الكروية، مثل ريح حامية ومحرقة، أشعت مثل أكثر الزجاج صفاء في وسط بياض لامثيل له، مع أنه مامن أحد يمكنه وصف حجم الروح وصفاتها، ولدى انتشار أخبار موت الرجل المقدس، ووصولها إلى رفاقه الذين كانوا في بلاط كوثيرت Cuthbert حيث عاش المتوفى عندما كان شاباً، قاموا بدفنه في مقبرة درم.

كيف ذهب غودريك المبارك إلى القدس وعاد سالماً

بعدما جرى دفن الراهب المتقدم الذكر، عاد غودريك إلى الصحراء متسائلاً عن طبيعة الإرادة الربانية حوله، وبينما كان يصلي باخلاص إلى الرب حول هذا الموضوع، جاء صوت من السماء يقول له: «من الأفضل لك الذهاب إلى القدس والعودة ثانية»، كما ظهر كوثيرت المعترف المقدس للمسيح، له وهو يقول: «إذهب إلى القدس، وانصلب مع الرب، وأنا سوف أكون هناك معاوناً لك وحامياً في كل شيء، وبعدما تكمل هذه الرحلة، سوف تخدم الرب تحت حمايتي في فنشلي Finchale ، وعاد غودريك إلى درم، وحمل الصليب، وتلقى مباركة الكاهن، وفي أثناء رحلته لم يأكل شيئاً سوى خبز الشعير، وشرب ماء، كما أنه لم يغير ثيابه ولم يغسلها حتى وصل إلى الأماكن المقدسة، وعندما وصل إلى ضريح الرب، والأماكن المقدسة الأخرى، صلى بخشوع إلى الرب، وسكب كثيراً من الدموع، وقبل الأماكن طويلاً وبخشوع كان من الصعب أن يفكر أحد أن ذلك ممكناً، ثم إنه ذهب إلى نهر الأردن، وهو يرتدي المسوح، ويحمل كأساً في جعبته، وصلبياً صغيراً، حمله دوماً بيده، ودخل إلى النهر، الذي أحبه دوماً فيما بعد، وخلع ثيابه، وتقدم نحو الأمام واغتسل وتنظف، لكنه رمى بنعليه وقال: «أيها الرب القدير الذي قد سار حافياً على هذه الأرض وتألّم بقدميه حين خرقتها المسامير على الصليب، أنا لن ألبس بعد الآن أحذية»، وبعدما وفي بعهدة بالحج،

عاد إلى انكلترا.

كيف اختار غودريك المبارك بإلهام من الرب مسكنه في فنشلي

وبعدما عاد من الحج، وجد مكاناً سرياً في الغابة، في الشمال من انكلترا اسمه اسكديل Eskdale اعتقد أنه مناسب للسكنى به، وبناء عليه بنى كوخاً من جذوع الشجر، وغطاه بالعشب والطين، وسكن هنا سنة وبضعة أشهر، ولكن عندما بدأ ملاك الأرض بإزعاجه، تركها وذهب إلى درم، حيث تعلم بسرعة المزامير مجدداً، وصار يعرف كثيراً من المزامير، والترانيم والصلوات، وذلك بما فيه الكفاية، وبناء عليه ألهم في أحد الأيام من عليين، فذهب إلى غابة في الجوار، حيث سمع راعياً يقول لرفيقه « دعنا نذهب ونسقي مواشينا في فنشلي»، ولدى سماع غودريك هذه الكلمات أعطى الراعي البنس الوحيد الذي امتلكه، لكي يقوده إلى ذلك المكان، وفي أثناء سيره نحو داخل الغابة قابله هناك ذئب حاد، له حجم غير عادي، وقد اندفع نحوه وكأنه يريد تمزيقه إلى قطع، واعتقد غودريك أن ذلك كان واحداً من خدع العدو القديم فعمل إشارة الصليب بيده قائلاً: « أستحلفك باسم الثالوث المقدس أن تغادر من هنا بسرعة، إذا كانت العبادات التي أنوي تقديمها إلى الرب في هذا المكان مقبولة إليه»، وبهذه الكلمات سجد بنفسه مع قدميه غير التقيين، وكأنه يطلب العفو من الرجل المقدس.

كيف سكن القديس غودريك في فنشلي

بين الحيوانات المتوحشة والأفاعي

وبناء عليه عزم غودريك على عبادة الرب في هذا المكان، فقام، بناء على إذن حصل عليه من رالف أسقف درم فعمل كهفاً بالأرض قرب شاطئ نهر وير Wear ، وبعدما غطاه بالعشب والطين سكن فيه بين حيوانات البرية والأفاعي، وكان عدد الأفاعي مرعباً، لكنهم كانوا جميعاً

مدجنين نحو رجل الرب، سمحوا لأنفسهم بالحمل والتناول، وكانوا مطيعين لأوامره وكان في بعض الأحيان عندما يجلس أمام النار، كانوا يلتفون حول رجله، أو يكورون أنفسهم في صحنه أو كأسه، وبعدما أمضى بضع سنوات على هذه الشاكلة من الحياة، رأى أن الأفاعي تعيق صلواته، ولذلك عندما رآهم في أحد الأيام من حوله، كما جرت العادة، أمرهم بعدم دخول بيته ثانية، وبناء عليه تركته هذه الهوام تماماً، ولم تعاود عبور عتبه، وعندما كانت الهدايا من الطعام وأشياء أخرى تقدم إليه رفضهم جميعاً، مفضلاً العيش بوساطة العمل في أرضه، وقد أحرق بعض أغصان الشجر وفروعها حتى صارت رماداً، ومزج الرماد مع طحين الشعير بنسبة الثلث للجميع، وأخضع الجسد وطوعه بالبكاء، والسهر، والصوم، وبناء عليه كان يمضي أحياناً ستة أيام من دون أكل، وبعدما حاول الشيطان إغواءه بالرفاهية، ظهر له على شكل حيوان متوحش: أحياناً على شكل دب، أو أسد، أو ثور، أو ذئب، أو ثعلب، أو علجوم، وحاول إخافته، غير أنه كان قوياً في إيمانه، فاستخف بهم جميعاً، ولكي يحمد نار الجسد، أخضع جسمه باستخدام أحسن أنواع المسوح، وارتدى لمدة خمسين سنة سابغة من الحديد، وكانت مائدته حجرة عريضة مسطحة، عليها وضع خبزه كما وصفت نوعه من قبل، غير أنه ما كان ليتذوقه حتى يرغب بجوع حتمي، وكان شرابه نقاطاً معتدلة من الماء، و فقط عندما كان يجد نفسه مرغماً بعطش شديد، ولم يسترح قط في الفراش بل كان يتمدد على الأرض عندما كان يشعر بالانهك، ومسوحه تحته، ورأسه مستند على الحجر الذي اتخذته مائدة له، وعند اشراق القمر، كان يصرف نفسه إلى عمله، ويدع النوم، ويمضي الوقت بالصلاة، وفي الشتاء وسط الثلج وتساقط البرد، كان يدخل النهر عارياً، وهناك كان يقدم نفسه طوال الليل قرباناً حياً للرب، والماء واصل إلى رقبته، وكان في هذا الوضع يتدفق بانشاد المزامير، والصلوات، ويسكب الدموع، وهو ما يزال في داخل الماء، وغالباً ماظهر

له الشيطان وجميع أطرافه مشوهة، وعلى حافة الانقضاض عليه، لكنه كان يصده وهو مرتبك مضطرب بوساطة شارة الصليب المقدس، وكان على كل حال يحاول سلب ثياب الرجل المقدس، لكن كان يتولاه الرعب من صرخات غودريك، فيرميهم، وينهزم بعيداً.

كيف شاهد القديس غودريك في أحد الأيام طفلاً يخرج من فم المصلوب ويقر نفسه على صدر أمه

وفي أحد الأيام، عندما كان رجل الرب، جالساً في خلوته، يكرر المزامير، رأى طفلاً صغيراً قد خرج من فم المصلوب، وذهب إلى تمثال العذراء المباركة، الذي كان قائماً في الجهة الشمالية من اللوح، وأجلس نفسه على صدرها، وقامت هي من جهة أخرى بمدّ يديها لاستقباله، واحتضنته بين ذراعيها لقراءة ثلاث ساعات، وكان الطفل يتحرك طوال ذلك الوقت وكأنه حيّ، وفي كلتا الحالتين عندما جاء وعندما ذهب، اهتز تمثال العذراء كثيراً، حتى بدا اللوح وكأنه سيسقط، واعتقد غودريك أن أطراف التمثالين كانت ممتلئة بروح الحياة، وأن الطفل لم يكن سوى عيسى الناصري، وعاد الطفل بعد ذلك إلى فم المصلوب وفق الطريقة نفسها التي جاء بها.

كيف ظهرت أم ربنا ومريم المجدلية إلى القديس غودريك وحول الأغنية التي علمته إياها أم منقذنا

وفي وقت آخر، عندما كان رجل الرب يصلي أمام مذبح العذراء المباركة، أم الرب، رأى فتاتين، في عمر الشباب، وكانتا على غاية من الجمال، تقفان عند طرفي المذبح، وترتديان ثوبين بياض الثلج، وقد وقفتا لبعض الوقت تنظر إحداهما إلى الأخرى، ولم يتجرأ غودريك على التحرك، بل نقل عينيه من واحدة إلى الأخرى، وطأطأ رأسه أحياناً بتعبد، ثم اقتربت العذراء منه، وكانت على يمين المذبح وسألته: «هل

تعرفني ياغودريك؟» فأجابها قائلاً: « إن هذا من غير الممكن، إلا إذا كنت تنوين التعريف بنفسك» فردت عليه قائلة: « إن ماقلته قلته صادقاً، أنا أم المسيح، ومن خلالي سوف تنال نعمة، وهذه السيدة الثانية هي الرسولة الأنثى بين الرسل، إنها مريم المجدلية»، ورمى غودريك الآن بنفسه على قدمي أم الرب قائلاً: « إنني أعهد بنفسي إليك ياسيدي، وألتمس منك أن تضعيني تحت حمايتك»، ثم إنها وضعت كلتا يديها على رأسه ومسحت شعره، وملأت المكان برائحة طيبة، وغنت بعد ذلك، وعلمت غودريك أن يغني أغنية، صار في الغالب يرددتها بعد ذلك، وقد انطبعت ثابتة في ذاكرته، والأغنية بالنظم الانكليزي هي كما يلي:

“Seinte Marie,Clane Virgine,

Moder Jesu christ Nazarene

Onfo, Scild, help Thim Godrich

Onfang, bring heali widh The in Coderich

Seinte Marie, Thristes bour,

Meidenes Clenhed, moderes flour,

Delivere mine Sennen. regne in min modm

Bringe me to blisse wit selfe, God”

ومن الممكن نقل هذه الأغنية إلى اللاتينية هكذا:

“Sancta Maria virgo munda moter Jesu christi nazareni, suscipe adduc, sarcta, tecum in dei rgnum.

Sancta maria, christi thalamus, virginalis paritas, matris flos, dele mea crimina, vegna in mente mea duc

me ad felicitatem cum solo deo”

وعلمت أم المسيح غودريك أن يغني هذه الأغنية كلما كان خائفاً أن يُقهر بالألم، أو الأسف، أو الإغواء، وتابعت تقول له: «وعندما تدعوني بغنائك بها، سوف تنال على الفور مساعدتي»، ثم إنها رسمت علامة الصليب على رأسه، وصعدت أمام ناظريه إلى السماء، مخلفة وراءها رائحة طيبة.

كيف أقام القديس غودريك شخصين ميتين

وردهما إلى الحياة ثانية

وجاء في أحد الأيام إلى رجل الرب زوج وزوجة، ورجواه أن يكون رحيماً فيرد إلى الحياة ابنتها التي كانت ميتة، وقدمها في الوقت نفسه جثتها وأخرجها من كيس كانا قد جلباها به معها، وعدّ رجل الرب نفسه غير جدير للقيام بمثل هذا العمل الإعجازي، ولم يعمل جواباً، بل ذهب إلى الحقل من أجل عمله الاعتيادي، الأمر الذي أزعج الشخصين، فغادرا، تاركين الجثة في خلوته، ذلك أنهما قالوا: «من أجل أن يحتفظ بالجثة ويدفنها، أو أن يعيدها إلى الحياة، وهو ما يمكنه فعله إذا رضي»، وعاد غودريك في المساء، فوجد الجثة في زاوية خلوته، فبدأ على الفور يصلي بخشوع إلى الرب، الذي هو نبع الحياة والصحة للجميع، من أجل إعادة الفتاة إلى الحياة، واستمر يفعل هذا لمدة ثلاثة أيام وليلتين، وفي اليوم الثالث، وعندما كان ما يزال متمدداً أمام المذبح، شاهد الفتاة تتقدم نحوه، وبناء عليه دعا والديها، وردها إلى عنايتهما، وجعلها في الوقت نفسه يقسمان أنه مادام حياً، لن يبوحا بهذا السر إلى أحد من الناس، وفي وقت آخر، عندما جلب والدان بشكل سري جسد ابنتها الصبي الميت، إلى رجل الرب، أمرهما بوضعه على مذبح العذراء المباركة في خلوته، قائلاً: «لا تفترضا بأن الصبي هو ميت، بل اجثيا معي

على ركبتيكما، واسألا الرحمة اللاهوتية للصبي»، وبعدما فرغوا من الصلاة، أمرهما بالذهاب، وأخذ الطفل من على المذبح، الأمر الذي عندما فعلاه، وجداه حياً وبيتسم، ثم ربطهما رجل الرب يمين أن لا يوحا بهذا الصنيع إلى أي واحد، مادام حياً.

الجواب الذي أعطاه رجل الرب إلى واحد طلب أن يكتب حياته

كان لرجل الرب أصدقاء مقربين بين رهبان درم، خاصة واحداً كان اسمه [رينالد]، وحُث هذا الرجل مرارا لأن يكتب حياة القديس غودريك وفضائله لصالح الأجيال المقبلة، ولكي يحصل على مزيد من المعلومات الأكيدة حول الموضوع، جاء إلى رجل الرب، ليعلم منه ما الذي ينبغي أن يكتبه، وبينما كان جالساً عند قدمي القديس، قال بأنه يقترح بأن يكتب حياته، وأوضح المنافع التي سوف تنجم لصالح الأجيال المقبلة من معرفة الذي عمله، وعلى ذلك ردّ رجل الرب مع كثير من الانفعال قائلاً: «إن حياة غودريك يا صديقي هي كما يلي: في المقام الأول غودريك، فظ، وقدر، وزاني غير نظيف، وزائف، وحادث باليمين، وغشاش، ومتشرد، ووقح، ونهم، وكلب قدر، ودودة منحطة، وليس ناسكاً بل منافق، وليس سائحاً بل انسان فاقد للعقل، وملتهم للصدقات، وضال، ومحب للمتعة، وكسول، ومبدد لوقته، ومبذر، وطماع، وغير جدير بخدمة الآخرين ودائم النميمة واللوم للذين يتولون تدبير أموره، وهذه الأشياء، لابل ماهو أسوأ من هذا الذي سوف تكتبه حول غودريك»، وبعدما فرغ من هذه الكلمات، التزم بالصمت وهو غاضب منزعج، فانسحب الراهب، وهو مضطرب، إنما بعد مضي عدة سنوات، لم يتجرأ ثانية على سؤال القديس حول حياته الماضية، حتى قام غودريك، رحمة به، أو لأنه ندم على الخطأ الذي عمله له، فأخبره طواعية من ذاته عن الأشياء التي رغب بمعرفتها، وفي الوقت نفسه رجا الراهب بحكم الصداقة والاحترام المتبادل بينهما بعدم اظهار

الكتاب إلى أحد خلال حياته.

الجواب الذي أعطاه غودريك عندما سئل عما يتعلق بمفارقة الروح وعن أوضاعها بعد الموت

وفي وقت آخر، عندما جاء الراهب نفسه إليه، في عيد القديس يوحنا المعمدان ليقوم قداساً معه، جلس خارج باب خلوته، وسمع غودريك وهو يغني بالداخل، وبعد العشاء سأله الراهب عن طبيعة مغادرة الروح، وعن ذلك تلقى هذا الجواب حيث قال: «تغادر روح التقي بلطف من الجسد لكن روح المذنب، بما أنها غير موائمة للمغادرة، تحرض على ذلك بوساطة كثير من الجلدات، وفور مغادرتها للجسد، ترتفع عالياً تنتظر الأوامر من القدير، ويوجد في الهواء بوابة حديدية ضيقة، محروسة من على الجانبين بأرواح خيرة وشريرة، من خلالها يجري قبول أرواح الأتقياء بتسهيل المرور، لكن أرواح الأشرار تعاق بشدة، وتعرض للعذاب، وتطرد نحو الأسفل بشكل تعيس، ولقد رأيت في هذا اليوم روح رجل مستقيم تمر من خلالها، ولسروري لذلك، بدأت أغني مع الملائكة الذين تولوا قيادتها، وكان هذا الذي سمعته مع دهشة كبيرة جداً».

كيف أقام القديس بطرس قداساً للقديس غودريك

وفي مناسبة أخرى، عاد الراهب نفسه، إلى هناك ثانية، ليسأل رجل الرب عما إذا كان يرغب بسماع القداس، وقد ردّ عليه قائلاً: «لقد سمعت في هذا اليوم قداس الثالوث المقدس، وتلقيت القربان من يد رجل كان مرتدياً البياض، وقد نزل من السماء، ثم صعد إلى هناك، بعدما جعلني أعترف بذنوبي، وقد أخبرته بكل ماوقع لي، وما اقترفته من ذنوب، وقد أعطاني تحليلاً، وتناولت القربان من يديه، وبعد ذلك رفع يديه فوقي، وصعد إلى السماء، فهل بعد هذا يابني تطلب مني أن أتلقى

الاعتراف أو القربان من يديك؟» وقال الراهب بأنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك، لكن في الوقت نفسه سأله، من كان ذلك بين القديسين، وأجابه رجل الرب بأن ذلك كان بطرس الرسول، فهو الذي أرسل من قبل الرب لتحليله من ذنوبه، وقال هو: «وعلى هذا هل تقيم قداساً تشریفاً للعدراء المباركة، حتى يمكن بوساطتها أن نحصل على حظوة ابنها؟» وقدم الراهب الشكر للرب وهو مسرور، وفعل الذي أمر به.

كيف تحرر القديس غودريك من الشياطين بالصلوات

وبعلامة الصليب

وبعد أن أمضى غودريك أربعين سنة في العزلة في فنشلي، أنهكته الأمراض مع تقدم السن، واقترب من النهاية الأخيرة، ذلك أنه في السنوات الثمان الأخيرة تقريباً، التزم الفراش، ولم يعد بإمكانه التقلب على جانبه من دون مساعدة انسان ما، وكانت آلامه في تلك الآونة واغواءاته كثيرة جداً، حيث لا يمكن للسان أن يتحدث عنها، وللقلم أن يكتبها، وقدم إليه شيطانان، يحملان رسالة وقالاه: «لقد قدمنا لنحملك إلى جهنم، لأنك رجل عجوز مجنون، وبعدهما كنت عاقلاً صرت مجنوناً، لكن غودريك عمل شارة الصليب، وتفوه بصلاة إلى الرب، مما أرغم الشيطانين على الفرار.

كيف ضرب الشيطان غودريك على رأسه وموته

وفيما بعد عندما كان رجل الرب مستلقياً على فراشه، سمع الذين كانوا يتولون خدمته صوتاً يستدعيهم، ذلك أنهم كانوا بالخارج، وركض أحدهم نحو الداخل، فوجده متمدداً على أرض خلوته وهو قد تعرى من ثيابه، فوضعه على الفراش، وسأله لماذا كان متمدداً على الأرض، فقال غودريك: «وقف الشيطان إلى جانبي، ورآني متمدداً من دون انتباه، بعد إغفاءة، فقام فجأة فرماني من فراشي وضرب رأسي

بالمقعد» وبعدهما قال هذا جعلهم يرون التورم في رأسه، ثم أضاف قائلاً: «لقد هجم الشيطان علي بشكل مفاجيء، حيث لم يتوفر لدي الوقت لحماية نفسي برسم علامة الصليب، وهو يقول: أه ياغودريك الأخرق، أنا لم أستطع قتلك بوساطة أتباعي، لكن وأنت في إغماءة على فراشك، قد قتلتك الآن، وبناء عليه ليكن معلوماً من قبل كل واحد كم هو خطر الاستسلام إلى متع البدن، أو أن يستغرق الانسان بالكسل، فالرب لاينوجد مطلقاً بين الذين يعيشون برفاهية»، ولقد مات الأب المبجل غودريك في الحادي والعشرين من أيار، الذي وافق اليوم الثامن من عيد صعود ربنا، وكانت حياته وأعماله أكثر مما هي انسانية، وفوق قدرة الانسان ليتولى وصفها، وقد دفن في الجانب الشمالي من خلوته أمام درجات مذبح يوحنا المعمدان، وقبره حتى هذه الأيام مقدس بوساطة المعجزات التي تعمل هناك.

تتويج الملك هنري الشاب

في هذه الآونة، أي في عام ١١٧٠م، وفي الثالث عشر من تموز، التقى، بناء على أوامر الملك، واجتمع في وستمنستر روجر رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، لتتويج هنري أكبر أولاد الملك، وقد جرى تتويجه إثر ذلك من قبل رئيس أساقفة يورك، في اليوم الثامن عشر من تموز، مراغمة لحظر مولانا الملك، الذي بعث برسائل إلى رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين، كان مغزاها مايلي: «نحن نمنعكم بموجب سلطاتنا الرسولية من تتويج الملك الجديد، إذا تم العمل من دون موافقة رئيس أساقفة كانتربري وكنيسته، كما لايجوز لأي منكم وضع يده مراغمة للعادات القديمة لتلك الكنيسة ولكرامتها، أو تسهيل القيام بالتتويج المتقدم ذكره»، وكان هذا الحظر— على كل حال— بلا فائدة، فقبل إذاعة الرسائل، كان الملك الشاب، قد جرى تتويجه، وقام الملك بعد ذلك على الفور بعبور البحر، وعقد مؤتمراً

مع رئيس أساقفة مونتيريل Montmirail ، حيث حضر ملك فرنسا أيضاً، وبعد مناقشات طويلة حول اقامة سلام بينهما، وعندما وصلا إلى القبله استخدم رئيس الأساقفة العبارات التالية: «أنا أقبلكما تشريفاً للرب»، لكن الملكان تمنا عن التقبيل، وكأنهما اتفقا اتفاقاً مشروطاً، لأنه وإن كانت نوايا رئيس الأساقفة صافية تماماً، اعترض الملك دوماً على شكل الكلمات التي استخدمها، من ذلك على سبيل المثال: «إبقاء شرف الرب، وإبقاء نظامي، وإبقاء الايمان المقدس للرب»، وكان رئيس الأساقفة شاكاً في هذه التوجسات من جانب الملك، خشية أنه إذا ما قامت الاتفاقية، أن يعتقد بأنه اعترف بالعادات الظالمة لملك انكلترا.

كيف صنع سلام بين الملك هنري وتوماس

رئيس أساقفة كانتربري

عقد ملك فرنسا ثانية مؤتمراً مع ملك انكلترا، ووليم رئيس أساقفة السين، وأسقف نيفار Nevers، وكان ذلك في فريتفال Freitval، حيث ركب الملك هنري ورئيس الأساقفة على انفراد عن البقية، وقد ترجلا مرتين عن فرسيهما ثم عاودا الركوب ثانية، وأمسك الملك مرتين الركاب ورئيس الأساقفة راكب، وأخيراً توصلا بوساطة روتريك Rot-ric رئيس أساقفة روان إلى اتفاق في أمبواز Amboise، وصنع سلام بينهما، وكتب الملك هنري الرسالة التالية إلى ابنه الملك الشاب: «هذه الرسالة لإخبارك بأن توماس رئيس أساقفة كانتربري قد عمل سلاماً معي حسبما يرضيني، وبناء عليه أمرت بعدم التعرض بسوء إلى جميع المؤيدين له، وأن تأمر بإعادة جميع ممتلكاته إليه وكذلك كل ما هو عائد إلى كهنته والآخرين الذين غادروا انكلترا من أجله، وذلك كما كانوا بحوذتهم ثلاثة أشهر قبل مغادرة رئيس الأساقفة لانكلترا، وعليك أيضاً استدعاء بعضاً من أقدم الفرسان في سالتوود Saltwood للمثول أمامك، وأن تتأكد بوساطة أيانهم الأملاك هناك التي امتلكها كرسي

كانتربري، وكل ما وجد عائد له سوف يتملكه نوابه، وداعاً». وقبل أن يعبر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، أرسل رسالة إلى البابا أخبره فيها بأنه عمل سلاماً مع الملك، وقدم البابا في جوابه الشكر إلى الرب، على الشكل التالي: «القلق في القلب وآلام الروح قد قهرانا، عندما نتذكر الآلام والهموم التي أثقلتك، والأخطاء التي تحملتها طويلاً من دون ملل، وذلك في سبيل العدل، ولكي تكمل فضائلك، حافظت على مقاصدك، ولم تهزم من قبل العدوان، الأمر الذي نبدي إعجابنا به وبشباتك، ومنئك من قلبنا بالرب من أجل هذه المعاناة الطويلة، ولقد تعاملنا منذ وقت طويل مع ملك انكلترا، وغالباً ما حذرنا بلغة ناعمة ولطيفة، وأحياناً بقسوة وبحدة، بأن عليه إعادة النظر بسلوكه وتقويمه، وإنه إذا لم يف بجميع الشروط العائدة للاتفاق الذي عقده معك، ولم يعد إليك وإلى أصحابك جميع الممتلكات التي صودرت، نحن نمنحك سلطة كاملة على الأشخاص جميعاً والأماكن العائدة إلى سلطاتك، حتى تمارس تطبيق النظام اللاهوتي عليهم، من دون استثناء، وفقاً لما تراه مناسباً».

عودة رئيس الأساقفة من المنفى إلى انكلترا

بكفالات من البابا ومن الملك، أبحر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ونزل في ساندويش في اليوم الأول من كانون الأول، وفور وصوله، وحيث لم تكن هناك حاجة للتسرع إلى مجد الشهادة، التي تشوق إليها بشدة، بعث بالرسالة التالية إلى رئيس أساقفة يورك: «بما أن ملك انكلترا قد رغب بتتويج ابنه، وبما أنه من المعروف أن وظيفة التتويج عائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري صدوراً عن الأعراف القديمة، يبدو لي أخي رئيس الأساقفة أن الملك المذكور، قد وضع جانباً رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وأمر بوضع تاج المملكة على رأس ابنه بيدك، وأن اليمين المكتوب والقاضي بالحفاظ على حريات المملكة، لم يؤخذ

فقط، لابل إنك لم تطالب به، وعلى العكس من ذلك، نجد أن العادات الظالمة للمملكة التي عرضت كرامة المملكة للخطر وللغرق، قد تأكدت بوساطة اليمين الذي أعطي بالاحتفاظ بها إلى الأبد، وبالنسبة إلى هذه القضية، لاننكر أن شدة الملك وعنفه قد سببا كثيراً من الاضطراب، لكننا مع ذلك انزعجنا أكثر تجاه الضعف الذي أبديته أنت مع إخوانك الأساقفة، ويؤسفنا أن نصفه بأنكم كنتم أشبه بكباش بلاقرون، وأنكم تراجعتم بشكل مخجل أمام مطاردكم، ولربما كان قانونياً ياأخانا إيداع هذا المنصب في مقاطعتك لكن في مقاطعة أخرى، هو بشكل خاص في المنفى من أجل العدالة، وهو وحده تقدم ليعطي المجد للرب، نحن لا يمكننا أن نجد شيئاً من المنطق في ذلك، ولا في قوانين الآباء المقدسين وأعرافهم ليسوغ مثل هذا الصنيع، فلقد سمحت لتلك الأعراف الظالمة بأن تثبت باليمين، وأهملت حمل ترس الايمان، والوقوف للدفاع عن بيت الرب في يوم المعركة، وبناء عليه لن نلتزم بعد الآن بالصمت، فنكون متورطين في يوم الحساب، بالادانة نفسها مثلك شخصياً، ولذلك نقوم هنا بموجب سلطات الكنيسة الرومانية المقدسة، التي أنا خادمها تحت الرب فنعلن تعليقك عن العمل بأي منصب له علاقة بمركزك الأسقفي».

وبفضل رسالة أخرى من البابا، علق رئيس الأساقفة توماس أيضاً وأوقف عن الممارسات الأسقفية أساقفة: لندن، وسالسبري، واكستير، وسشتر، وروكستر، وسينت أساف، وللاندا، وكذلك الآخرين الذين ساعدوا في التتويج المتقدم الذكر، وجاء محتوى رسالة البابا كما يلي: «إن القضية التي من أجلها دُفع أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، ونائب الكرسي الرسولي، إلى المنفى، لأحتاج أنا الآن لأشرحها لكم وأبينها، لأنكم كنتم شهوداً على ذلك وحضوراً، ولأن أخبار ماحدث قد انتشر خلال كنائس الغرب كله، هذا وبما أن ثيوبولد،

صاحب الذكرى الطيبة، ورئيس أساقفة كانتبري من قبل، وسلف رئيس الأساقفة الحالي، هو الذي وضع التاج على رأس ملك انكلترا، وبهذه الوسائط، امتلكت كنيسة كانتبري - كما كانت - الحق في ممارسة هذا العمل، وإنكم لم تترددوا الآن بتجاهل وتحدي رسائلنا الرسولية إلى عمل العكس، في المساعدة على تنويع الملك الجديد، علماً أن رئيس الأساقفة لم يتم إعلامه بذلك، والاحتفال قد جرى في مقاطعته، وأنتم الذين كان بإمكانكم تخفيف نفي رئيس الأساقفة بمثل هذه المواساة، وكان بمقدوركم فعل ذلك، قمتم بالحري بزيادة المسألة سوءاً ضده، ويجزنا أن نقول: زدتم على آلام جراحاته، وفي هذه الحالة، لن نثار لإلتخاذ اجراء ضدكم يعادل ماتستحقه خطيئتكم، ومع ذلك أن نمّر بها ونتجاوزها كلياً بصمت خشية - لاسمح الرب - أن يصدر قرار العقوبة الربانية ضدي وضدكم، وذلك إذا أهملنا معاقبة الجرائم التي اقترفت بشكل علني أمام مرأى الناس، وليكن معلوماً بالنسبة إليكم، أننا بوساطة السلطة التي نتملكها من الرب، قد أوقفناكم عن ممارسة عملكم الأسقفي، حتى تظهروا أمام كرسينا الرسولي، وتعملون ترضية، وذلك ما لم تعملوا الترضية المتقدم ذكرها، أمام رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بطريقة يرى فيها أنكم أهل لتخفيف حكمنا ضدكم».

كميف أمر وكلاء الملك القديس توماس القيام بتحليل الأساقفة المحرومين كنسيا

بعدما عاد أسقف كانتبري المبجل إلى كنيسته وسط سرور، وخشوع وتقوى كل من رجال الدين والناس، ظهر موظفوا الملك أمامه مباشرة ووصلوا إليه، مع أوامر من سيدهم ليقوم بتحليل الأساقفة المعطلين وآخرين كان قد حرمهم كنسياً، بحجة أن كل ماصنع ضدهم يزيد من إيذاء عادات المملكة ويفسدها، فأجابهم رئيس الأساقفة، إنه إذا ما أقسم الأساقفة المحرومين وفقاً للشكل الذي وضعته الكنيسة، أي الالتزام

بأوامر البابا، فإنه سوف يوافق على تحليلهم من أجل خاطر الملك، ومن أجل السلام في الكنيسة، وعندما روي هذا إلى الأساقفة، أجابوا بأنهم لن يؤدوا مثل هذا اليمين من دون موافقة الملك، وبعد ذلك بوقت قصير ذهب رئيس الأساقفة لزيارة الملك الشاب في وودستوك، لكنه قوبل من قبل رسل، أمره باسم الملك بعدم المتابعة، بل العودة إلى كنيسته، وتبعاً لهذا عاد إلى كنت، وهناك أعد العدة للاحتفال بموسم الميلاد الذي كان قد اقترب.

الاستشهاد الرائع لتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٧١م، فيه في يوم الميلاد، اعتلى رئيس أساقفة كانتربري المنبر، ليقدم قداساً للناس، وبعد الفراغ منه تولى الحرمان كنسياً لنيغل دي ساكفيل، الذي استولى بالعنف على كنيسة هيرجي Herges، وكذلك لنائب رئيس الكنيسة نفسها روبرت دي بروك، الذي استخفاً برئيس الأساقفة قام بتشويه واحد من خيوله كان محملاً بالمؤن، وبعد هذا حدث في اليوم الخامس بعد يوم الميلاد، وفي حوالي ساعة العشاء، عندما كان رئيس الأساقفة جالساً مع رجال دينه في قاعته، اقتحم الغرفة وليم دي تريسي Tracy، ورينالد فتز - يوري Fitz-urse، وهيوج دي مورفيل Morville، ورتشارد برايتون Briton، وكانوا قد قدموا من نورماندي، وكانوا حين اقتحموا الغرفة مثل المدفوعين بجنون، وقد أمره باسم الملك بإعادة الأساقفة المعطلين، وتحليل الذين تولى حرمانهم كنسياً، وعلى هذا أجاب رئيس الأساقفة بأن القاضي الأدنى لا يمكنه التحلل من قرار حكم رئيسه الأعلى منه، وأن مامن انسان يمكنه إلغاء قرار صادر عن الكرسي الرسولي، وإذا ما قام أسقف لندن وسالسبري مع الأشخاص المحرومين الآخرين بتأدية يمين بالالتزام بطاعته، سوف يوافق بسرعة من أجل تنفيذ ما كان بأذهانهم، وجاءت مغادرتهم بعنف، وفي تلك الأثناء دخل رئيس الأساقفة إلى الكنيسة

للقيام بالقداس، وكان ذلك بناء على نصيحة رجال دينه، ولأن ساعة العشاء كانت قد دنا حلولها، وتولى فعلة الشر ومدبروه لبس دروعهم وحمل أسلحتهم، وتبعوا عن قرب رئيس الأساقفة، فوجدوا الأبواب مفتوحة خلفه بناء على أوامره، لأنه قال: «إن أبواب كنيسة الرب ينبغي أن تظل مفتوحة، لأنها مكان التجاء لجميع الناس، وعلى هذا لاتدعونا نحوّها إلى قلعة»، وبدأت الحشود تركض الآن من على جميع الجوانب، ودخل الرجال الأربعة من دون احترام إلى الكنيسة وهم يصرخون: «أين هو الخائن للملكه؟، أين هو رئيس الأساقفة؟»، ولدى سماعه الدعوة إليه استدار لمقابلتهم، ذلك أنه كان قد ارتقى ثلاث أو أربع درجات من درجات السدة وقال لهم: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، فهذا هو هنا هو واقف»، وبعد ذلك استخدموا لغة قاسية ضده مزيجة بالتهديد، فقال لهم: «إنني على استعداد للموت، ذلك أنني أفضل الحفاظ على عدالة الكنيسة وحريتها على حياتي»، فاندفع القتل نحوه بسيوف مجردة، وسقط وهو يردد هذه الكلمات «إلى الرب وإلى القديسة مريم حماة هذه الكنيسة، وإلى القديس دينس أعهد بروحي وبقضية الكنيسة»، وهكذا جرى قتل هذا الشهيد المجيد أمام مذبح القديس بندكت، بتلقي جرح في ذلك الجزء من جسده، الذي كان من قبل قد تلقى عليه الزيت المقدس الذي كرسه للرب، ولم يتورعوا عن تلويث الكنيسة بدم الكاهن، وافساد ذلك اليوم المقدس، بل إنهم قطعوا قحف رأسه، ونشروا بسيوف ملطخة بالدم دماغه على أرض الكنيسة.

كيف نهب القتل أسلاب الشهيد المبارك وطريقة موته المزعجة

وجرى نقل الشهيد المجيد إلى المملكة الساموية، في حين قام القتل الدمويون بنهب مقتنياته، واستولوا على ألبسة كهنته، وعلى كل ما وجدوه في مكاتب خدمه، وفي الوقت ذاته كانت جثته المباركة ممددة على أرض الكنيسة، فحملت في حوالي وقت الشفق إلى أمام المذبح

العالي، حيث اكتشف الناس الواقفون هناك الحقيقة التي كانوا من قبل يجهلونها، لأنه وإن كان رئيس الأساقفة متخفياً تحت الرداء الرهباني، وهو اللباس الرهباني الذي إرتداه منذ ترقيته، فقد وجد مرتدياً لقميص من المسوح، وهذا ما لم يسمع به من قبل، وكان قميصاً طويلاً، حتى أنه غطى حقويه أيضاً، وكان هناك بعض التساوق في حياته، سوف نعدده هنا باختصار: ففي يوم الثلاثاء كان رئيس الأساقفة قد غادر بلاط الملك في نورثامبتون، كذلك غادر انكلترا في يوم الثلاثاء إلى المنفى، وفي يوم الثلاثاء عاد إلى انكلترا، تماشياً مع وصاية البابا، وفي يوم الثلاثاء واجه الشهادة، وفي الصباح الباكر من يوم الأربعاء انتشرت الأخبار، بأن القتلة قرروا سلب الجسد من الكنيسة، ورميه خارج المدينة حتى يمزق إلى قطع من قبل الكلاب والغربان، فكان أن بادر راعي دير بوكسلي Boxley مع رئيس الدير والدير التابع لكنيسة كانتربري، بسرعة إلى دفنه، من دون الغسل المعتاد له، لأنه كان قد ذبل من طول التقشف، والتف بقميص المسوح، وتقدس بالغسيل بدمه، وكان من الممكن ملاحظة كثير من العلامات المدهشة التي تزامنت مع شهادته، وكان أولها أنه عانى في تأكيد العدالة وفي الحفاظ على حريات الكنيسة، وثانياً، إن مكان آلامه لم يكن كنيسة عادية، بل كانت أم الكنائس الانكليزية، وثالثاً كان الزمن هو أيام عيد الميلاد، وذلك عندما أكمل أولئك الخونة عملهم الخياني، ورابعاً، هو لم يكن كاهناً عادياً، بل كان مقدم جميع كهنة انكلترا وأبوهم، وخامساً، هو لم يتألم في واحد من الأماكن العادية التابعة له، بل في المكان الذي تلقى فيه السيامة لأن يكون كاهناً، وحيث جرى صب زيت المسح المقدس.

ندامة الملك وكيف أرسل رسلاً إلى روما لتسويغ فعلته

وكان الملك هنري في أرجنتون Argenton في نورماندي، عندما سمع بأخبار هذه الفعلة الشنيعة، وفي البداية انزعج بذلك انزعاجاً

كبيراً، وغير ثيابة الملكية واستبدالها بمسوح ورماد، ودعا إلى الرب القدير ليكون شاهداً بأن هذه الفعلة قد عملت من دون رغبته أو موافقته، وكل ما هنالك أنه كان مذنباً في أنه لم يجب رئيس الأساقفة كما ينبغي، وحوّل هذه النقطة أخضع نفسه لحكم الكنيسة، ووعده بأن يلتزم بتواضع بحكمها مهما كان، ولهذا الغرض أرسل رسالاً لتسوية موقفه أمام الحبر الأعظم، ولتأكيد براءته، لكن البابا رفض استقبالهم، ولم يسمح لهم حتى بتقريب قدميه، وقد استقبلوا بعد ذلك من قبل الكرادلة، لكن من دون فائدة سوى سماع كلمات رسمية، وفي يوم الخميس قبل الفصح، وعندما كان البابا مرتدياً ثيابه للإعلان بشكل عام قرارات التحليل أو الحرمان الكنسي ضد من يستحقون ذلك، جرى إخبار سفراء ملك انكلترا بأن البابا قد قرر، بناء على نصيحة جميع أعضاء المجلس، أن يصدر قرار حرمان من شركة المؤمنين على سيدهم بالاسم، خلال مملكه كلها، وأن يؤكد القرارات التي كانت قد صدرت على رئيس أساقفة يورك، والأساقفة الانكليز الآخرين، وفي هذا الوضع أخبر الكرادلة البابا بأن رسل الملك قد صدرت إليهم تعليمات في أن يقسموا بأن سيدهم سوف يلتزم بكل قرار يصدر عن البابا والكرادلة في كل مجال، وتبعاً لذلك الاقتراح أدى الرسل اليمين بالموافقة على ذلك، وبذلك أمكن تجنب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وحينما رسل رئيس أساقفة يورك والأساقفة الآخرون حذوهم وفعلوا ما فعلوه، وبناء عليه قام البابا في ذلك اليوم بحرمان القتلة الأشرار للقديس توماس رئيس أساقفة كانتربري الشهيد، كنسياً، وكل الذين أشاروا عليهم بذلك، أو ساعدوهم أو وافقوا على فعلتهم، وكذلك ضد كل من يستقبلهم في أراضيهم، أو يحتفظ بهم، وكان الرجال الأربعة آنذاك في نيربور Knaresborough، التي كانت قلعة الملك، حيث بقيوا هنالك لمدة سنة.

المعجزات التي بدأت الآن بالظهور تكريماً للشهيد المقدس

بعد وفاة توماس الشهيد المبارك، توقفت كنيسة كانتربري لمدة سنة كاملة عن إقامة الطقوس اللاهوتية، وعملت نحياً مستمراً عليه، فقد جرى نزع البلاط، وأوقفت النواقيس عن القرع، وجردت الجدران من زيتها، وأقامت الكنيسة كلها ماتم في حزن وخنوع، ورجالها يرتدون المسوح ويضعون الرماد، وفي نهاية السنة، وفي يوم عيد القديس توماس الرسول، اجتمع معاونوا الأساقفة مع بعضهم بناء على استدعاء كنيستهم الأم، كنيسة كانتربري، وجاءوا بناء على توجيه البابا، وذلك من أجل استعادة الكنيسة الملوثة بعد تعليقها الطويل، إلى سالف عهدها، ووقتذاك قام بارثولميواوف اكستير، بالاحتفال بقديس مهيب، بناء على طلب الرهبان، وألقى موعظة بالناس، بدأها بهذه الكلمات: «بعد حشود من حزني، توبتكم تبهج روعي».

حول الرعود التي سمعت بشكل عام وأعمال التكفير التي عملها الملك من أجل وفاة القديس توماس

عام ١١٧٢م، فيه في ليلة عيد الميلاد، سمعت أصوات رعود، بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا وايرلندا، وغاليا، وكانت مفاجئة ومرعبة، تدعو الناس من مختلف الأقطار للقدوم وشهود المعجزات الجديدة للقديس توماس الشهيد، ذلك بما أنه سفك دمه من أجل الكنيسة العالمية، لذلك ينبغي أن تثبت شهادته في الذاكرة التقوية لجميع الناس، وفي الوقت نفسه، عندما كان الملك هنري في ايرلندا، بدأ هيوغ دي سينت مور Maur، ورالف دي في Fay، عم الملكة اليانور — بموافقتها كما قيل — بإبعاد الملك الشاب عن أبيه، حيث أكدوا أنه وضع متناقض أن يكون الواحد ملكاً، ومع ذلك لا يمتلك أية سلطة على مملكه، وقام في الوقت نفسه والده الملك، قبل مغادرة ايرلندا، بالدعوة إلى مجمع في ليمور Lismore ، حيث جرى الترحيب بسرور بقوانين انكلترا

من قبل الجميع، وجرى تأكيدها بالأيمان، ثم وضع الملك جميع المدن، والقلاع التي استولى عليها في ظل حماية أمينة، وبما أن قضايا الأعمال المتنوعة قد تطلبت من الضروري، وجوده في مكان آخر، أفلح في مساء عيد الفصح، ورسا في اليوم التالي في ويلز، وتابع من هناك إلى بروكستر، وعبر إلى نورماندي بريح موائمه، ومن هناك ذهب من دون تأخير لمقابلة سفيري البابا: ألبرت، وثيودواين Theodwine وأقسم أمامهما بعد نقاش صعب يمينا أن موت الشهيد المجيد توماس، لم يكن متماشياً مع رغباته أو بموافقته، أو جرى بوساطة أية مؤامرة من قبله، بل كل ما في الأمر أنه تفوه ببضع كلمات وهو غاضب، أثارت مجموعة من الفرسان ومن حاشيته، الذين انفعلوا كثيراً فأقدموا على إتخاذ موقف ضد رئيس الأساقفة، وانتظروا مناسبة لمقتله، وبذلك وضعوا رجل الرب للموت، وقد طلب الملك التحليل مع أعظم التواضع، وفي سبيل ذلك. وعد— بناء على اقتراح النائين البابويين— بتقديم ما يكفي من المال للانفاق على مائتي فارس لمدة سنة، للدفاع عن الأرض المقدسة، ثم أن يجري السماح للاستثنافات أن تعمل من دون أية عوائق إلى الكرسي المقدس، وأن يلغى العادات التي أخرجت في أيامه والتي هي مضادة لحريات الكنيسة، وأن يعيد إلى كنيسة كانتربري كل ما أخذ منها منذ مغادرة رئيس الأساقفة، وأن يسمح للذين كانوا منفيين، من كلا الجنسين، من أجل الشهيد المبارك، بالعودة إلى الوطن، واستئناف تملكهم لممتلكاتهم، وحول هذه النقاط جميعاً أقسم الملك على الالتزام والتطبيق، وفقاً لأوامر مولانا البابا، من أجل غفران ذنوبه، وأقسم اليمين نفسه الملك الشاب ابن الملك هنري، الذي عبر إثر ذلك مباشرة مع قرينته مرغريت إلى انكلترا، وفي العشرين من الشهر نفسه، قام روتروك Ro-troc رئيس أساقفة روان، يعاونه الأساقفة المساعدون لكانتربري بتتويج مرغريت المتقدم ذكرها ملكة على انكلترا، وفي العام نفسه أعيد غيلبرت أسقف لندن إلى منصبه الأسقفي بعدما أقسم أنه في إطار أحسن ما يعرفه

هو لم يجرّض على موت القديس توماس الشهيد لابلالكلام،
ولابالأفعال، ولابالكتابة.

حول زواج جون ابن الملك

وحول الانتخاب إلى كرسي كانتربري

سنة ١١٧٣م، فيها حصل الملك هنري بوساطة الزواج لابنه جون—
المعروف باسم بلا أرض— على الابنة الكبرى لهيوبرت كونت مورين
Maurienne، من خلال زوجته أرملة هنري دوق ساكسوني، مع أنها
لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها، وانتخب في السنة نفسها أيضاً،
روبرت راعي دير بك رئيساً لأساقفة كانتربري، وجرى ذلك في السابع
من آذار، في لامبث Lambeth بحضور الأساقفة المساعدين لتلك
المنطقة، لكن راعي الدير رفض كلياً أن ينتخب، ولاندرى أكان ذلك
لضعف، أو لأسباب ودوافع دينية، فهذا ما لم نعلمه.

وفي السنة نفسها اتبع الملك هنري الشاب النصائح الشريرة، فترك
والده، وانسحب إلى بلاط والد زوجته، أي ملك فرنسا، وبناء عليه
اختار رتشارد دوق أكويتين، وغيوفري كونت بريتاني أخاهم بدلاً من
أبيهم، وكان ذلك— كما يقال— بناء على نصيحة أمهم الملكة إليانور،
وهكذا تطور الشقاق من على الجانبين وازداد تدهوراً مع السلب وأعمال
الحريق، وبذلك نحن نعتقد بشكل صحيح أن الرب أراد أن يعاقب
الملك هنري لسلوكه نحو القديس توماس، فأثار ضده أولاده الذين هم
من لحمه ودمه الذين طاردوه حتى الموت، كما سيظهر التاريخ المقبل،
وصار في السنة نفسها رالف دي وورنفييل Warneville الحافظ لغرفة
الآثار المقدسة في روان، وخازن يورك، مستشاراً لانكلترا، وفي الوقت
نفسه، وافق هنري ملك انكلترا على أن تجري الانتخابات للكنائس
الشاغرة بشكل حر، وجاء ذلك بناء على تحريض الكاردينالين ثيودواين

وألبرت، وجرت التعيينات التالية بموافقة قاضي الملك: رتشارد، رئيس شامسة بواتيه إلى كرسي ونكستر، وغيوفري رئيس شامسة كانتبري للمنصب نفسه في إيلاي، وغيوفري رئيس شامسة لنكولن إلى المنصب نفسه في لنكولن، ورينالد رئيس شامسة سالسبري إلى المنصب نفسه في باث، وروبرت رئيس شامسة أكسفورد إلى المنصب عينه في هيرفورد، وجون عميد شستر إلى أسقفية الكنيسة نفسها.

انتخاب رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتبري وتطويب القديس توماس

وفي السنة نفسها، في التاسع من تموز، انتخب الأساقفة المساعدون لمنطقة كانتبري مع مقدمي الدير، رتشارد رئيس رهبان دوفر، لرئاسة الأساقفة، وأقسم على الفور الأسقف المنتخب يمين الولاء للملك، «بالحفاظ على نظامه»، ولم تكن هناك إشارة إلى الاعتراف بعبادات المملكة، وجرى هذا في وستمنستر، في بيعة القديسة كاترين، وذلك مع موافقة قاضي الملك، وقرىء في المؤتمر أيضاً رسالة البابا، على مسمع من جميع الأساقفة والبارونات، وقد حوت هذه الرسالة إلى جانب أمور أخرى مايلي: «إننا نحث أخوتكم بوساطة سلطاتنا الرسولية، ونأمركم بدقة بالاحتفال في كل سنة بيوم توماس الشهيد المجيد، وهو اليوم الذي تألم فيه، وأن تسعوا بصلواتكم النذرية إليه، للحصول على العفو عن ذنوبكم، ذلك أنه من أجل المسيح تحمل النفي بشجاعة خلال حياته، والشهادة في الموت، علّه يتوسط لدى الرب من أجلنا، من خلال ابتهالات المؤمنين»، وماأن اكتملت قراءة هذه الرسالة، حتى رفع الجميع أصواتهم عالياً، وصرخوا: «الشكر لك يارب»، لأنه فضلاً عن ذلك كان جميع أساقفته المساعدين، لم يظهروا نحوه الاحترام الذي هو جدير به، كأب لهم، عندما كان في المنفى، أو بعد عودته من منفاه، بل قاموا جميعاً بتعديبه، فاعترفوا الآن بشكل معلن بأخطائهم وذنوبهم، بضم

واحد منهم، ردد ماييلي: « كن حاضراً يارب، واستمع إلى ابتهالاتنا، حتى
نتمكن نحن الذين نعرف أنفسنا مذنبين، من التحرر بوساطة القديس
توماس، الشهيد والكاهن الأعلى»، وفي السنة نفسها، عملت مريم،
أخت الشهيد المقدس نفسه، راعية لدير باركنغ Barking، وجاء ذلك
بناء على أمر من الملك، وكذلك ألقى هنري، الملك الصغير، الحصار على
قلعة غورناي Gornai ، وأسر هناك هيوغ صاحب القلعة ، وابنه
مع أربعة وعشرين فارساً، وقام بإحراق القلعة، وأرغم سكان البلدة
على دفع غرامة، وفي السنة نفسها تخلى أيضاً روبرت إيرل أوف ليستر،
ووليم دي تانكريفيل Tankerville ، مع كثير من الكونتات
والبارونات، عن الملك هنري، والتحقوا بالملك الشاب.

ملك فرنسا يغزو نورماندي مع جيش

وحشد في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، جيشاً كبير العدد، للاغارة
على نورماندي وتشعيثها، ودخل إلى تلك المقاطعة، وألقى الحصار على
ألبارل Albemarle ، وأرغم وليم صاحبها، مع الكونت سيمون
مع عدد آخر من النبلاء، على الاستسلام، ثم استولى بعد ذلك على قلعة
درينكورت Driencourt ، ووضع حامية فيها، وزحف من هناك
إلى قلعة آرش Arches وفقد على طريقه كونت أوف بولون، وبناء
عليه حزن كونت أوف فلاندرز على أخيه، وعاد إلى منطقته، وكان
هنري الملك القديم طوال ذلك الوقت في روان، كما يبدو غير مهتم بما
كان يجري، لابل أكثر من ذلك عزم على الصيد، وقد أبدى نحو جميع
الذين جاءوا إليه السرور وملامح ضاحكة، لكن الذين كان قد جمعهم
من حوله منذ سنواته الأولى، بدأوا ينفضون من حوله، لأنهم اعتقدوا
أن ابنه قد امتلك كل الظروف المساعدة ليكون فوراً ملكاً في مكانه،
وكان ملك فرنسا الآن، مع الملك الصغير، يحاصران فيرنويل Ver-
neuil عندما أرسل الملك هنري رسلاً إلى الملك الفرنسي، ينذره بأن

يغادر نورماندي من دون تأخير، أو أنه سوف يزحف ضده في ذلك اليوم بالذات، وكان ملك فرنسا، يعرف بأن ملك انكلترا أميراً قوياً جداً، وحاد الطبع، لذلك اختار الانسحاب وآثر ذلك على القتال، ولذلك تراجع من أمام وجه الملك هنري، وعاد بكل سرعة إلى فرنسا.

تدمير ليستر

وفي السنة نفسها، جرى في الرابع من تموز، حصار مدينة ليستر، وذلك — كما قيل — بناء على أوامر الملك، لأن الايرل صاحبها قد تخلى عن الملك، والتحق بابنه الملك الشاب، وعندما جرى احراق الجزء الأكبر من المدينة، بدأ سكانها يبحثون مسألة السلام وتم الاتفاق على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف مارك إلى الملك، مع منحهم الإذن بالانتقال إلى أي مكان يختارونه، وبناء عليه أعطي لهم الإذن بالذهاب والسكنى في أي من مدن الملك وقلاعهم يختارون، وبعد مغادرتهم، جرى هدم أبواب المدينة مع جزء من الأسوار، وأعطيت هدنة إلى الجنود الذين في القلعة حتى عيد القديس ميكائيل، وبناء عليه انتهى الحصار في الثامن والعشرين من تموز، وبعد هذا ادعى وليم ملك اسكوتلندا ملكية مقاطعة نورثامبتون، التي كانت قد منحت إلى جده الملك داوود، الذي تملكها لبعض الوقت، لكن الملك الانكليزي رفض منحه إياها، وبناء على ذلك حشد وليم جيشاً من الويلزيين والاسكوتلنديين، وزحف بصورة انسان واثق خلال أراضي أسقف درم، وأحرق عدداً من القرى، وقتل كل من الرجال، والنساء والأطفال، وحمل معه منهوبات لاتحصى، وفي سبيل صد الغزاة احتشد النبلاء الانكليز مع بعضهم، وأرغموا وليم على التراجع، ولاحقوه حتى لوثيان Lothian، ودمروا تلك المنطقة بالنار والسيف، وقد نهبوا كل ما وجدوه في الحقول، وأخيراً عملوا هدنة، بناء على مبادرة من الملك الاسكوتلندي حتى عيد هيلاري Hilary، وعادوا منتصرين إلى انكلترا.

كيف جرى أسر ايرل ليستر وكونت فلاندرز وسجنهما

وعندما سمع روبرت ايرل ليستر بالذي حدث لمدينته، امتلاً بالأسى، وعبر من خلال فلاندرز مع زوجته وهو على طريقه إلى انكلترا، وحشد هناك عدداً كبيراً من النورمان والفلمنكيين من الفرسان والرجالة، وأبحر ونزل في والتون في سفولك Suffolk في التاسع والعشرين من ايلول، وقام على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، لكن من دون نجاح، وزحف من هناك في الثالث عشر من تشرين الأول، وهاجم قلعة هيجنت Hagenet ، وأحرقها، وأسر هناك ثلاثين فارساً، وأرغمهم على دفع الفدية، ثم إنه عاد إلى فيرمنغهام Fermingham، لكنه أثناء اقامته أعطى الحكم إلى هيوغ بيغود Bigod صاحب القلعة، وحوّل تفكيره واهتمامه نحو ليستر، وزحف في ذلك الاتجاه، وحاول وهو على طريقه أن يفاجيء إدموندبري Edmunbury، لكنه منع من قبل جيش الملك الذي كان معسكراً هناك لحماية تلك القطعة من البلاد، وبناء عليه جرى تطويق الايرل بقوات ضخمة، وكان مع الايرل ثلاثة آلاف فلمنكيين، فيهم وضع ثقة خاصة، ولذلك قرر المغامرة بالقتال، وبناء عليه بدأ الاشتباك، وبعد تقلبات عديدة، وقع الايرل، والكونتسة، مع جميع الفلمنكيين، والنورمان، والفرنسيين، بالأسر، وقد حدث هذا في السادس عشر من تشرين الأول، وكان بيد الكونتسة خاتم جميل، فطوحت به في النهر القريب، مؤثرة ذلك على السماح للعدو بالحصول على مثل هذا الربح، بحكم وقوعها بالأسر، وأخيراً جرى قتل الجزء الأكبر من الفلمنكيين، أما الباقي فقد أغرقوا، ولكن الآخرين اتخذوا أسرى.

كيف أخذ الملك كثيراً من أعدائه أسرى

وعندما كان الملك هنري الأب متوقفاً في نورماندي، جرى اعلامه بأن عساكره مع رجال برابانت Brabant وقطاع الطرق، قد

فاجأوا العساكر الفوضوية لابنه، وحصروهم في مدينة دول Dole ، وفور تلقيه هذا الخبر، ركب حصانا، ووصل في الصباح التالي إلى المعسكر، وبعد عدة أيام من المقاومة تسلم المستسلمين، لكن قبل وصوله كان الجزء الأكبر منهم قد قتل من قبل قطاع الطرق، وكان بين الأسرى رالف إيرل شستر، الذي كان قبل وقت قصير فقط قد هجره والتحق بابنه، ووليم فورليغري Fulgeriis، ووليم باتريك، ورالف دي لي هي Haie ، وهاسكلف Hasculph دي سينت هيلاري، وذلك إلى جانب ثمانين فارساً، وزحف في السنة نفسها النبلاء الانكليز بصحبة جيش كبير، لقمع عجرفة بيغود، لكن عندما كانت الأوضاع بحال اعتقد فيها الجميع أنه سوف يهلك، توسط الوسطاء بينهم، وجرى عقد هدنة حتى أحد العنصرة، وبناء عليه رافقه أربعة عشر ألفاً من الفلمنكيين سالمًا خلال اسكس وكنت، وجُهز في دوفر بسفن لعبور القنال، وفي السنة نفسها ذهب إلى روما رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، ويرافقه أسقف باث.

الاستيلاء على قلعة إكسهولم وأسر كتلة كبيرة من الرجال

عام ١١٧٤م، فيه أعلن روجر دي ماوبري Mowbray عن تخليه عن الولاء للملك القديم، ورسم القلعة المهدامة في جزيرة إكسهولم، غير أن عددًا كبيراً من رجال لنكولنشاير عبروا إلى هناك بالقوارب، وألقوا الحصار على القلعة، وأرغموا شحنتها مع جميع الفرسان على الاستسلام، ثم إنهم أعادوا هدم القلعة وحولوها إلى خرائب، وفي اليوم الأخير من شهر نيسان، سمع الملك القديم بأن ابنه رتشارد قد استولى على قلعة سانتونغ Santonge ، فزحف ضده لاستردادها مع رجال بواتو، وأظهر فرسان رتشارد عدم احترام لكل من الرب والكنيسة، فدخلوا إلى الكاتدرائية، وحولوها إلى قلعة، وشحنوها بالرجال المسلحين والمؤن، وسمع الملك بأن الأعداء يحتلون ثلاثة مواقع حصينة،

فاستعد للهجوم عليهم، وعلى الفور جرى الاستيلاء على موقعين، ثم إنه اقترب من الكاتدرائية التي كانت مشحونة بالعساكر، وبأناس غير منضبطين، ولم يرغب بالهجوم عليها، بل أراد تنظيفها من المنتهكين لحرمتها، وكان تعداد مجموع الذين جرى أسرهم، وكانوا في الكنيسة أو في مكان آخر، ستين فارساً وأربعمائة من أصحاب القسي الزيارة، وبهذه الوسيلة عاد الهدوء إلى هذه المنطقة، وهنا وجد هنري نفسه مرغماً على العودة إلى نورماندي، لأن فيليب كونت أوف فلاندرز، كان قد أقسم على الانجيل المقدس، بحضور لويس ملك فرنسا مع نبلاء ذلك الملك، بأنه سيقوم بعد خمسة عشر يوماً من حلول عيد القديس يوحنا المعمدان بغزو انكلترا بالقوات، واخضاعها ووضعها تحت حكم الملك الشاب، وتحمس الملك الشاب لدى سماعه لهذه الأخبار، فوصل إلى وتساند Witsand ، في الرابع عشر من تموز، مع نية إرسال رالف دي لي هي مع جيش إلى انكلترا، وأرسل إيرل فلاندرز مقدماً ثلاثمائة وثمانية عشر فارساً محنكاً لنقلهم إلى انكلترا أيضاً، ومالبث هؤلاء أن نزلوا في آرويل Arwell (قرب هيرويك Harwick) ، وكان ذلك في الثامن والعشرين من حزيران، واستولى هناك على غنائم كثيرة، إلى جانب إرغامهم كثيراً من الأسرى الذين اعتقلوهم على دفع مبلغ كبير من المال فدية لأنفسهم، وعندما رأى رجال العدالة الملكية هذا، اتفقوا بالاجماع على ارسال رتشارد، الأسقف المنتخب لونكستر لإخبار الملك بالمخاطر التي تهدد انكلترا، وعبر الأسقف من دون تأخر إلى نورماندي ووضع أمام الملك تقريراً صادقاً حول كل ماكان يجري في انكلترا.

كيف عاد الملك إلى انكلترا وقيامه بزيارة لضريح القديس توماس للصلاة هناك

واستقبل الملك الأسقف، بالاحترام اللائق، واستعد على الفور للعبور إلى انكلترا، وأخذ معه الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه

جون، وابنته جوانا، وأرسل أمامه إيرل ليستر مع كونتيسة ليستر والأسرى السجناء الآخرين إلى باربفلوف Barbefleuve، حيث ذهب على ظهر سفينة مع جيش كبير، لكن الريح لم تكن مواتية، وخاف البحارة من المغامرة في ذلك اليوم، وأدرك الملك أن البحر كان هائجاً، فرفع عينيه نحو السماء، وتفوه بالكلمات التالية بحضور جميع قومه: «إذا كانت نواياي موجهة للحفاظ على السلام لكل من كهنتي وشعبي، وإذا كان ملك السماء قد قضى بإعادة الهدوء إلى مملكتي عندما أصل إلى هناك، ليمنحني وقتها الوصول إلى الشاطئ بأمان، ولكن إذا كان غضبه قد ثار، وقضى بأن أزور مملكة انكلترا بعصا غضبه، أتمنى أن لا يسمح لي بالوصول إلى شواطئ تلك البلاد»، وعندما أكمل هذه الصلاة، أفلح في ذلك اليوم نفسه، وبعد عبور طيب وصل إلى ثاوثامبتون بسلام، ثم إنه صام على الخبز والماء، ولم يدخل إلى أي مدينة حتى وفي بعهد كان قد قطعه على نفسه بفكره، في أن يصلي عند ضريح القديس توماس، رئيس أساقفة كانتربري والشهيد المجيد، وعندما وصل إلى مقربة كانتربري، ترجل عن ظهر حصانه، ووضع جانباً جميع الشعارات الملكية، وسار حافي القدمين، وعلى شكل حاج نادم مبتهل، ووصل إلى الكاتدرائية في يوم الجمعة الثالث عشر من حزيران، ومثل حزقيا توجه نحو ضريح الشهيد المجيد مع الدموع والتنهدات، وتمدد ساجداً على الأرض مع يديه ممدودتان إلى السماء، وتابع تأدية صلاة طويلة، وفي الوقت نفسه قام أسقف لندن بالاعلان أمام الناس — بناء على أمر من الملك — في موعظة وجهها إلى الشعب، بأنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتأمر بأي شكل من الأشكال من أجل موت الشهيد، الذي اقترب نتيجة لسوء فهم من القتلة لكلمات تفوه بها الملك متسرعاً، ولذلك طلب التحليل من الأساقفة الذين كانوا حاضرين، ووجد ظهره، فتلقى من ثلاث إلى خمس جلدات، من الأعداد الكبيرة من كتلة اللاهوتيين الذين تجمعوا هناك، ثم قام الملك بإعادة ارتداء ملابسه،

وعمل مقدمة ثمينة مكلفة إلى الشهيد، وعين مبلغ أربعين باوند سنويا من أجل الشموع لإحراقها حول ضريحه، وأمضى بقية اليوم واللييلة التالية في حزن وآلام في النفس، ولمدة ثلاثة أيام لم يعط الملك نفسه راحة، بل أسلم نفسه للسهر، والصلاة والصوم، وبهذه الوسائط أمكن تأمين حظوة الشهيد المبارك ورضاه، وفي ذلك اليوم بالذات الذي صلى به حتى يرى علامة الغفران، ألقى الرب بين يديه وليم ملك الاسكوتلنديين، الذي وضع قيد الاعتقال في قلعة رتشموند، وفي ذلك اليوم نفسه حدث أيضاً أن الاسطول الذي جمعه الشاب من أجل غزو انكلترا تشتت بسبب الأنواء وكاد أن يضيع، ودُفع الملك الشاب عائداً إلى ساحل فرنسا.

أسر وليم ملك اسكوتلندا

والطريقة التي أصبح بها الملك الاسكوتلندي أسيراً، كانت باختصار كمايلي: فقد غزا نورثامبرلاند كما فعل في السنة المتقدمة، بقصد دمجها بممتلكاته، لكن نبلاء تلك المنطقة، تصدوا له بالسلاح، وبعد نشوب معركة أخذوه أسيراً، وجرى مقتل عدد كبير من أولئك الأشرار الاسكوتلنديين، وكانوا لا يعدون ولا يحصون، ووضعت الملك رهن الاعتقال في قلعة رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة ميرلين في قوله: «سوف يوضع لجام على فكيه مصنوع من قلب أرموريكا Armorica»، يعني قلعة رتشموند، التي كانت في تلك الآونة مملوكة من قبل أمراء أرموريكان، وكانت كذلك منذ العصور القديمة.

ولكي نقدم تقويماً صحيحاً للمنافع التي نتجت للملك من توبته عند ضريح الشهيد، والوساطة التي عملها الشهيد من أجله، علينا أن نفعل ذلك في نهاية تاريخنا، وعندما فرغ الملك من صلواته ذهب إلى لندن، حيث استقبل باحترام من قبل الشعب، ومن هناك ذهب إلى هنتنغدون حيث حاصر القلعة واستولى عليها في التاسع عشر من تموز، وقدم إليه

هناك فرسان ايرل ليستر، وسلموا إليه قلعتي غروبي Grobi، وماونتسورل Mountsorel ، من أجل أن يظهر تقديراً أعظم نحو سيدهم، وفي الثاني عشر من تموز، استولى النبلاء الشماليون، مع الأسقف المنتخب للنكولن، وابن الملك على رأسهم، على قلعة ميلسارت، Malessart، التي كانت قلعة روجر دي ماوبري، وأخذت العساكر الآن تتقاطر من كل جانب، ولذلك قرر هنري أن يحاصر قلعتي هيوغ بيغود: بنغي Bungay، وفرانغهام Framingham، وشعر الايرل أن لا أمل لديه بالمقاومة الناجحة، لذلك قدم رهائن، ودفع ألف مارك، وبذلك ضمن السلام، وكان ذلك في الخامس والعشرين من تموز، ووقتها جرى السماح لجيش الفلمنكيين، وهو الجيش الذي بعث به من قبل الكونت فيليب، بالعودة لكن بعدما أرغم أفراده أولاً على أداء يمين أنهم لن يغزو إنكلترا ثانية، وأيضاً غادرت انكلترا عساكر الملك الشاب، وهي التي كان يقودها رالف دي لى هي، من دون معيقات، فضلاً عن هذا أرسل روبرت ايرل أوف فيرار Fer-rars، وروجر دي ماوبري Mowbray، اللذان كانت قلعتاهما: ثيرسك Thirsk وستوتبري Stutbury، آنذاك محاصرتين من قبل الملك، أرسل مندوبين يسألان السلام، والتقى وليم ايرل أوف غلوستر، ورتشارد ايرل أوف كلير، الملك، ووعداه الالتزام بطاعة أوامره، وهكذا وجد الملك نفسه وقد قهر جميع أعدائه، واسترد السلام إلى انكلترا، عبر إلى نورماندي في السابع من تموز(كذا)، ومعه أسراه: ملك اسكوتلندا، وإيرل ليستر، وهيوغ دي كاستيلو Castello .

كيف تخلى ملك فرنسا عن حصار روان

وعندما نزل الملك هنري في نورمادي، في الحادي عشر من تموز، وجد مدينة روان محاصرة، لأن لويس ملك فرنسا، وهنري الملك الشاب، وكونت فلاندرز، كانوا قد حشدوا قوة كبيرة في غياب الملك،

وضغطوا بشدة على السكان، لكن عندما سمع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، تراجع، لكن ليس من دون الإساءة إلى سمعته، واستولى الجند الانكليز على كميات واسعة من أسلحته وعتاد الحرب.

وعاد في السنة نفسها رئيس أساقفة كانتبري من روما، وقد جلب معه الطيلسان ورتاسة انكلترا، فقد وصل إلى لندن في الثلاثين من آب، فاستدعى رجال الدين الرئيسيين العائدين إلى الكنائس الشاغرة، وكذلك الذين انتخبوا أساقفة مؤخراً وجديداً، وثبت وكرّس الأساقفة المنتخبين لوينكستر، وإيلاي، وهيرفورد، وشستر، أما غيوفري الأسقف المنتخب للنكولن، والذي لم يكن قد ثبت بعد، فقد عبر البحر، وبنيته ارسال رسل إلى روما، أو الذهاب إلى هناك شخصياً.

كيف صنع جميع أبناء الملك سلاماً مع أبيهم

سنة ١١٧٥م، فيها بدأ لويس ملك فرنسا، وكونت أوف فلاندرز، يشعران بالنفقات الكبيرة التي تحملها في سبيل مساندة الملك الشاب لانكلترا، وتفكرا بالخسائر بالأرواح والأموال التي آلت بشعبيهما، فوعدا بالتمنع عن غزو نورماندي، وبذلا جهديهما لمصالحة الملك مع أولاده، الذين عرفوا جيداً، بأنهم جنوا غضب أبيهم، وكراهية رجال الدين، ولعنة الناس جميعاً، وبناء عليه علم الملك من خلال تقارير الرسل، بأن جميع خصومه قد أصبحوا نادمين، فاستعد لاستقبالهم في مان Mans ، حيث قدم في البداية ولداه: غيوفري ورتشارد الولاء إليه، وأقسما يمين التابعية، وبعد عدة أيام، مثل أمام الملك القديم، الملك الشاب، مع رئيس أساقفة روان وعدد كبير آخر من الأساقفة والبارونات، في بوري Bure في نورماندي، وقد ألقى بنفسه على قدمي أبيه، وطلب رحمته، وأثير الملك والده بالعاطفة نحو ابنه، لأنه كان يحبه بشكل كبير، ولأنه أدرك اخلاصه، توقف عن غضبه عليه، وتلقى ولاءه مع يمين التابعية، وعندما اكتمل عمل السلام، وتأكد تماماً بالقبلة،

أطلق سراح تسعمائة وستة وتسعين فارساً من دون فدية، وكان قد أسر هؤلاء خلال الحرب، لكن قلة، كانت أعمالهم الشريرة جداً قد دفعته إلى الغضب، على الرغم من ميوله الرحيمه، أبقاهم بالاعتقال، وأيضاً، أطلق الملك الشاب جميع الفرسان الذين أسرههم في الحرب، من دون فدية، وقد تجاوز عددهم المائة الواحدة، ثم أرسل والده الملك رسائل إلى جميع المناطق في مملكه لإخبارهم عن المصالحة التي تمت، حتى يمكنهم وهم الذين عانوا بشكل عام من الحرب وتألوا، أن يتهجوا في إعادة إقامة السلام، وأوضحت الرسائل أن جميع القلاع التي حصنت ضده أثناء الحرب، ينبغي أن تعود إلى وضعها الذي كانت عليه قبل بداية الأعمال العدوانية.

إقامة وليم ملك اسكوتلندا سلاماً مع الملك هنري

وأقام في السنة نفسها وليم ملك اسكوتلندا، الذي كان سجيناً في فالي، سلاماً مع الملك هنري ملك انكلترا، وكان ذلك في الثامن من كانون الأول، وفق الشروط التالية: أعلن ملك اسكوتلندا عن نفسه تابعاً لملك انكلترا، وقدم ذلك عن مملكة اسكوتلندا وعن جميع ممتلكاته، وقدم الطاعة له والولاء على أساس أنه مولاه الخاص، وكذلك إلى هنري ابن الملك، ما احتفظ باخلاصه إلى ابيه، وبالطريقة نفسها فعل الأساقفة، مع الايرلات، والبارونات العائدين إلى اسكوتلندا، الذين رغب الملك في أن يتلقى منهم الطاعة والولاء، ليس فقط عن أنفسهم بل أيضاً عن خلفائهم، وليس له فقط بل إلى خلفائه إلى الأبد، من دون أية تحفظات من أي نوع، فضلاً عن هذا وعد ملك اسكوتلندا مع رجاله بعدم منح ملجأ في أي جزء من ممالكهم لأي لاجئ قادم من انكلترا، بل يتولون اعتقال كل من يأتيهم ويسلمونهم إلى ملك انكلترا وإلى قضاته، وكضمانة على الالتزام بهذه المعاهدة أعطى ملك اسكوتلندا إلى الملك هنري وإلى خلفائه قلعتي بيرويك، وبكسبورغ Boxburg إلى

الأبد، وإذا ما حاول ملك اسكوتلندا خرق هذه المعاهدة، تعهد أساقفة اسكوتلندا وايرلاتها وباروناتها بمعارضته والوقوف ضده، وأن يقوم الأساقفة بوضع مملكته تحت الحرمان من شركة المؤمنين حتى يعود إلى تادية واجبه نحو ملك انكلترا، وهكذا أعطى الملك وليم رهاثن، وعاد إلى انكلترا متحرراً من السجن، حتى يجري تسليم القلاع وفقاً لصفقته مع الملك، وبالنسبة للحصون الكثيرة التي أقيمت في أرجاء انكلترا ونورماندي أثناء الانقسامات بين الأب والابن، فقد جرى الآن هدمها بموجب أمر الملك.

كيف قام الملكان الأب والابن بزيارة ضريح القديس توماس

سنة ١١٧٦ م، فيها، أكل ملكا انكلترا، الأب والابن، بعد عودتهما إلى انكلترا، على المائدة نفسها في كل يوم، وناما كل ليلة في غرفة النوم نفسها، وقاما أيضاً معاً بزيارة الشهيد المبارك، القديس توماس، لتقديم صلواتهما وعهودهما عند ضريحه، وتجولا بعد ذلك في جميع أرجاء انكلترا، واعدين بالعدالة لكل انسان، من رجال الدين ومن العلمانيين، وقد قاما بعد ذلك بتنفيذ كامل الوعود، وفي السنة نفسها، حشد وليم دي بروز Brause بشكل تأمري جمعاً من الويلزيين في قلعة أبير جافني Abergavenny، ومنعوا المسافرين من حمل السكاكين والقسى، وعندما عارضوا هذا الأمر، أمر بهم فعوقبوا بالاعدام، ومن هذا يمكنك أن تفهم كيف أنه اقترف خيائته تحت رداء العدالة، وأقدم على فعلته هذه للانتقام لعمه (خاله) هنري أوف هيرفورد، الذي كانوا قد قتلوه في يوم سبت عيد الفصح المتقدم.

وعين في السنة نفسها رتشارد رئيس أساقفة كانتربري ثلاثة رؤساء شمامسة في أسقفيته هم: سفاري Savary ، ونيقولا، وهيربرت، وجرى في السنة نفسها تكريس جون عميد سالسبري أسقفاً لنورويك، وليس بعد أمد طويل هدم الملك هنري ملك انكلترا

تماماً قلاع: ليستر، وهنتغدون، وولتون، وغوربي، وستوتبري، وهي، وثيرسك، إلى جانب قلاع أخرى كثيرة، وذلك مقابل الأضرار والأذى التي غالباً ما ألحقها أصحاب هذه القلاع به، ثم إنه قام بناء على نصيحة ابنه والأساقفة بتعيين قضاة في ستة أقاليم من مملكته، ووضع في كل جزء ثلاثة، أقسموا بأنهم سوف يعطون عدالة كاملة لكل إنسان.

كيف منح الملك أربعة بنود إلى بطرس مندوب الكرسي الروماني

ووصل في هذه الآونة بترو— ليونيز، النائب البابوي، إلى انكلترا، ووافق الملك على منحه أربعة بنود هي التالية، ووعده بمراعاتها في مملكة انكلترا، وكان أولها، أنه لن يجري في المستقبل سحب أي رجل دين ليمثل شخصياً أمام قاضي مدني، من أجل أي جريمة أو عدوان، باستثناء قضية الغابة أو الأجرور الاقطاعية، سواء أكانت أجوراً مستحقة للملك أو لأي اقطاعي آخر، وكان ثانيها، أنه لا يجوز اعتقال رؤساء أساقفة، أو أساقفة، أو رعاة ديرة في أيدي الملك لمدة تتجاوز السنة، باستثناء إذا كان ذلك لسبب واضح، أو لضرورة ملحة، وكان ثالثها، وجوب معاقبة رجال الدين، الذين أدينوا، أو اعترفوا، أمام قضاة الملك، بحضور الأسقف، وكان رابعها، وجوب عدم إرغام رجال الدين على الخدمة في الحرب، وفي السنة نفسها، كانت جوانا، ابنة الملك، التي أعطيت زوجة إلى ملك صقلية، في التاسع من تشرين الثاني في سانت جايل، ومن ثم جرى حملها إلى زوجها، وذلك برعاية جماعة من الرجال اللامعين، الذين شهدوا على ذلك، وفي السنة نفسها وضعت جميع قلاع انكلترا في الحفظ بناء على أوامر الملك، وقام كذلك وليم إيرل غلوستر، الذي لم يكن لديه ولد يرثه، والذي لم يرغب بتقسيم ميراثه بين ابنتيه، بتعيين جون ابن الملك الذي بلا أرض، وريثاً له.

كيف أخضع الملوك الأجانب خلافتهم إلى قرار ملك انكلترا

وفي هذه الآونة نشب خلاف بين ألفونسو ملك قشتالة، وزوج ابنة ملك انكلترا، وبين عمه سانشو ملك نافار، فأرسلوا سفراء إلى ملك انكلترا، ووعدوا بالالتزام بقراره، وعندما مثل السفراء أمام الملك في وستمنستر، وأمام الأساقفة، والاييرلات، والبارونات، قد عرضوا أولاً موقف ألفونسو، من أنه عندما كان مايزال صغيراً ویتيمًا، انتزع منه سانشو ملك نافار، بشكل ظالم وبعنف قلاع وأراضي: لوغتيوم Log-toium، ونفارات Navarret، وأنثيلينا Anthlena، وأبتول Aptol، وأغوسن Agosen مع متعلقاتهم، مع أنهم كانوا ملكاً لوالد ألفونسو قبل أن يموت، ومن ثم ألوا إلى ألفونسو نفسه منذ سنوات تملكه، ولهذا السبب طالب بإعادتهم إلى صاحبهم، ولم ينكر سفراء سانشو هذه الحقائق، لكنهم أكدوا بأن ألفونسو قد استولى بالقوة على قلعتي ليجين Legin، وبورتيل Portel، وبأنها بيد غودين Godin، وبها أن رجال الفئة الثانية لم تعارض ذلك، فإنهم طالبوا بالمساواة ومن ثم إعادتهم إلى صاحبها، وقد أعلنوا أيضاً عن إقامة هدنة بين الفريقين لمدة سبع سنوات، وأنها تأكدت باليمين، وبعدها تشاور ملك انكلترا مع أساقفته وإيرلاته، وباروناته حول موضوع هذا الخلاف، بدا أن مامن واحد من الفريقين أنكر استخدام العنف على الطرفين، وظهر أنه لا يوجد سبب يحول دون إعادة متبادلة، ولذلك قرر الملك وجوب أن يعيد كل فريق الذي استولى عليه، وأن يراعى الهدنة ويلتزم بها طوال المدة، ومن أجل خاطر السلام، ينبغي أن يدفع ألفونسو إلى سانشو، لمدة عشر سنوات، مبلغ ثلاثة آلاف [دينار] مرابطي، وأنه بناء على هذه الشروط ينبغي أن يكون هناك سلام نهائي بين الاثنين.

واجتمع في تلك الأيام سفراء من عند مانويل امبراطور القسطنطينية، ومن لدن فريديريك الامبراطور الروماني، ومن عند وليم رئيس أساقفة

تريف Treves، ومن عند هنري دوق ساكسوني، ومن عند فيليب كونت فلاندرز، وانشغل كل واحد منهم بعمله المنفصل، والتقوا بالملك في البلاط في وستمنستر، وكانهم على اتفاق، وكان ذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني، ولقد أتينا على ذكر هذه الحقيقة كبرهان على المكانة والتقدير الذي نظر به العالم أجمع إلى أبهة وعظمة الملك، حيث اندفع كل واحد بالطلب إليه النصيحة وفض خلافتهم.

نقل الرهبان المدنيين من كنيسة وولتهام

سنة ١١٧٧م، فيها جرى نقل الرهبان الذين يسمون بالمدنيين من كنيسة وولتهام Waltham ، وأحل محلهم رهبان نظاميون، بموجب سلطات الخبر الأعظم، وكان ذلك عشية أحد العنصرة، وجاء ذلك بناء على أوامر الملك، الذي كان حاضراً لتلك المناسبة، وفي اليوم نفسه تسلم رالف قانوني أوف شستر حكم تلك الكنيسة نفسها، من يدي أسقف لندن، الذي إليه عادت الأسقفية، وقد ربط نفسه بعبارات تفوه بها بأن يلتزم بالطاعة الرهبانية، ودخل بعد ذلك إلى الكنيسة بصحبة الراهب، الذي عينه الأسقف ليكون رئيساً للرهبان، وجلس على عرشه بشكل مهيب.

وبعدما أنهى ملك انكلترا مشاكل مملكته وأرسى قواعدها حسب رغباته، عبر إلى نورماندي في الثامن عشر من آب، وعقد مؤتمراً مع ملك فرنسا، إثره أبرمت المعاهدة التالية: «أنالويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نعلم هنا جميع الناس، بأننا بإلهام من الرب، قد وعدنا وأكدنا باليمين، في أن ندخل في خدمة مخلصنا المصلوب، وأن نأخذ الصليب، وأن نذهب إلى القدس، ورغبتنا أن نكون صديقين، وأن يحافظ كل واحد منا على حياة وعلى أعضاء، وعلى الشرف الدنيوي للآخر، ضد جميع الناس، وإذا ما حاول أي واحد إيذاء أي واحد منا، أنا هنري سوف أساعد لويس ملك فرنسا، بحكم أنه مولاي، ضد جميع

الناس، وأنا لويس سوف أساعد هنري ملك انكلترا، بحكم كونه رجلي المخلص، ضد جميع الناس، محافظين على الاخلاص الذي ندين به لرجالنا، ماداموا متابعين الاخلاص لنا»، ووقع هذا في مينانكورت -Mi-nancourt، في الخامس والعشرين من أيلول.

تأسيس دير وستوود

سنة ١١٧٨م، فيها، قام رتشارد دي لوسي، مسؤول العدالة في انكلترا، في الحادي عشر من حزيران بإرساء قواعد كنيسة ديرية على شرف القديس توماس الشهيد في مكان كان اسمه وستوود -West-wood، في منطقة روكستر، وأيضا بعدما أمن الملك هنري جميع الحصون في ممالكة كلها من اليرينيز إلى المحيط البريطاني، وبعدهما فض كل شيء وفقاً لرغبته قام في الثالث عشر من حزيران بزيارة ضريح القديس توماس الشهيد، وبعد ذلك بوقت قصير عمل في السادس من آب، في وودستوك ابنه غيروفري فارساً بحزام.

حول الرؤيا التي عملت إلى أحد النساء

فيما يتعلق بالقديس أمفيبالوس

كان في السنة نفسها رجلاً عادياً، يعيش في بلدته الخاصة، سينت ألبان، وقد تمتع بأخلاق كانت متحررة من النقد بين أهل بلدته، فقد عاش منذ صغره حتى الوقت الحالي باستقامة، وذلك بقدر ماسمحت له مقدرته وحظه بذلك، وكان مداوماً تقياً على الكنيسة، وبينما كان هذا الرجل متمدداً في فراشه في إحدى الليالي، في حوالي وقت نداء الديك، دخل رجل طويل جلاي الطلعة إلى حجرتة، وهو متدثر بالبياض، وكان ممسكا بيده صولجاناً جميلاً، وأشرق البيت كله وأشع لدى دخوله، وأضاءت الحجرة وكأنها في وضح النهار، واقترب من فراشه وسأله بصوت لطيف: «روبرت هل أنت نائم؟»، وأجاب روبرت وهو يرتجف

خوفاً ودهشة: «من أنتم ياسيدي»؟ فقال له: «أنا الشهيد القديس ألبان، وقد جئت لأخبرك بإرادة الرب فيما يتعلق بمولاي الكاهن الذي علمني الايمان بالمسيح، الذي وإن كانت شهرته عظيمة جداً بين بني البشر. فإن مكان ضريحه مازال غير معروفاً، مع أن المعتقد بين المؤمنين بأنه سوف يظهر في العصور المقبلة، وبناء عليه انهض، والبس ثيابك واتبعني فأنا سأريك البقعة المدفون فيها بقاياها الثمينة»، وبناء عليه نهض ووبرت من فراشه— كما بدا— ولحقه، وذهبا معا خلال الشوارع العامة نحو الشمال، حتى وصلا إلى سهل، قد ترك منذ أجيال غير مزروع، وذلك على مقربة من الطريق العام، وكان السطح مستويًا، فيه مرعى جيد للمواشي، ومكان استراحة للمسافرين، وذلك عند قرية اسمها رديبورن Redburn، على بعد نحو ثلاثة أميال من سينت ألبان، وكان في هذا السهل مرتفعين اسمهما «رايبيتي الأعلام»، لأنه جرت العادة أن يكون حولهما تجمعات للمؤمنين، عندما كانوا— وفقاً للعادات القديمة— قد اعتادوا سنويًا على عمل مسيرة مهيبة إلى كنيسة سينت ألبان، وتقديم الصلوات، واستدار هنا القديس ألبان قليلاً خارج الطريق، وأمسك بيد الرجل واقتاده إلى إحدى الأكوام، التي أحتوت ضريح الشهيد المبارك، وقال وهو ملتفت إلى تابعه: «هنا ترقد بقايا معلمي»، ثم إنه فتح الأرض قليلاً على شكل صليب باهام الانسان، وأخرج قليلاً من الطين والعشب، وفتح صندوقاً صغيراً، فصدر منه ضوء مشع، ملاً أولاً الغرب كله بأشعته ثم العالم بأجمعه، وبعد ذلك انغلق الصندوق ثانية، وعاد السهل إلى مظهره السالف، واعترت الرجل الدهشة حتى يسأل القديس ما الذي عليه أن يعمل، فقال له القديس: لاحظ البقعة بدقة، وتذكر الذي عرض عليك، ولسوف يحل الوقت سريعاً، عندما ستظهر المعلومات التي أخبرتك بها بشكل خاص، لمنفعة كثيرين»، ثم استطرد يقول: «انهض الآن، ودعنا نذهب، ونعود إلى المكان الذي جئنا منه»، وعندما كانا عائدتين على طريقهما، دخل القديس

إلى كنيسته، ورجع الرجل إلى بيته، وذهب إلى فراشه مجدداً.

كيف أباح الرجل خبر الرؤيا التي رآها

واسيقظ الرجل في الصباح، وكان منزعجاً جداً في تفكيره، متشككاً هل عليه أن يبوح للآخرين بما شاهده بالرؤيا، أم لا، ذلك أنه آمن بها حقيقة، وهنا خاف أنه إذا أخفاها سوف يغضب الرب، وأنه إذا باح بها سوف يتحمل استهزاء بني البشر به، وفي حالة الشك هذه، تغلب الخوف من الرب، ومع أنه لم يعلن خبر الرؤيا بشكل عام، أوصل الخبر إلى بعض أصدقائه المقربين والخاصين، وقام هؤلاء على كل حال— باعلان ماسمعه في ظلام الليل، بوضوح النهار، والذي سمعوه بأذانهم أعلنوه على رؤوس الأشهاد، وهكذا انتشرت الحكاية في جميع أرجاء المقاطعة، لذلك احتشد الناس في دير القديس ألبان، وأخيراً وصل الخبر المفرح إلى سيمون راعي الدير، الذي بفضل نفوذه، التالي لنفوذ الرب، حظي الخبر لديه باهتمام كبير، فقام على الفور بتقديم الحمد والشكر للرب، وعقد اجتماعاً ضم الرهبان، فاختر بعضهم للذهاب إلى المكان، الذي يتوجب على الرجل السالف الذكر قيادتهم إليه، وفي الوقت نفسه صلى الرهبان في الدير بخشوع إلى الرب، وسار في الوقت ذاته الرهبان الذين تعينوا للمهمة إلى المكان، على أمل العثور على آثار الشهيد، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا حشداً كبيراً من الناس، اجتمعوا مع بعضهم من مختلف أجزاء المنطقة، وقد اقتادهم الروح القدس، ليكونوا شهوداً على اكتشاف آثار الشهيد، وفيما هم ينتظرون وقوع الحادث، اقتاد الرجل المتقدم الذكر الرهبان إلى السهل حيث رقدت أجساد القديسين، وكان اليوم يوم جمعة قبل عيد القديس ألبان، عندما عمل هذا، ومن ذلك اليوم حتى جرى نقل أجساد القديسين، كانت هناك حراسة مستمرة ومتواصلة فوق تلك البقعة، وقد تعاون رهبان الدير مع العلمانيين للقيام بهذا الواجب.

وفي الوقت نفسه شرع الدير في تطبيق نظام حياتي دقيق، وأعلن للناس عن مناسبة مهيبه للصلاة والصوم، ونال هذا المكان الذي تمّ العثور فيه على الآثار المقدسة الآن مظهر سوق، حيث كانت عندما تغادر البقعة طائفة زارتها بغرض التقوى، تصل طائفة أخرى.

المرأتان اللتان شفيتا بزيارتها للقديس

وبينما كان الشهداء مايزالون تحت الأرض بدأت معجزات بالظهور بظواهر مدركة بشكل جيد، معطية آمالا بأعمال أعظم سوف تحدث فيما بعد، فقد كانت هناك امرأة من غيندن Gatesden، مربوطة منذ عشر سنوات بالكتفين وبالحقوين، وكانت بسبب عجزها محط عدم إعجاب من قبل زوجها، فغادرت مكانها المحلي، ولدى مرورها ببردبورن، تمددت ونامت قرب المكان الذي دفن فيه الشهداء، ولم تنهض من هناك حتى شفيت تماماً، وكانت هناك امرأة أخرى من دنستيل Dun-stable، اسمها سيسيليا Cecilia ، لها انتفاخ أعطاها مظهر الحامل، وقد عادت هذه إلى الصحة بزيارة البقعة، وكان هناك أيضاً فتاة في الخامسة من عمرها، لم تتمكن من المشي منذ ولادتها، بل كانت تحمل دوماً من قبل والديها، فوضعت إلى جانب البقعة ذاتها، على مشهد من عدد كبير من الناس المؤمنين، وبعد نوم قصير، نهضت وركضت على قدميها، مما أعطى والديها سروراً عظيماً، وفي الوقت نفسه حلّ يوم عيد القديس ألبان الشهيد، ومع أن هذا اليوم كان مشهوراً بحد ذاته، صار الآن أعظم شهرة بنشر أخبار هذه المعجزات، وجرى حث المؤمنين على تقديم الصدقات بشكل أكبر للاستخدام في التقشف في الطعام، وجرى تكرار مسيرة مهيبه في اليوم التالي، ثم إن الأيام التي كانت قد مضت لم تتبدد في الكلام الفارغ، ذلك أنه منذ ساعة اكتشاف الآثار المقدسة، ظهرت معجزات كثيرة ونفذت، فقد سخر رجل من كنغبري Kings-bury ، من الذين كانوا يحفرون بحثاً عن القديسين، وقد قدم إلى

البقعة مع البقية، إنما مع تفكير مختلف عن تفكيرهم، حيث على الفور استولى عليه جنون، ومزق ثيابه، وعوضاً عن سخريته بالذين كانوا يحفرون، صار مشهداً يهزأون هم منه، وبعدما تعذب لبعض الوقت أمام جميع الذين كانوا موجودين، توقفت يد الرب عن معاقبته، وعاد سالماً إلى منزله، وإن كان معاقباً منبوذاً، وضحك رجل آخر من الذين كانوا يحفرون بحثاً عن القديسين، وقد أصيب أيضاً بضربة انتقام رباني، لأنه عندما كان في وسط كلامه، قهر بعنف ولفظ فوق البقعة روحه الكافرة، وقدم رجل اسمه أَلْغار *Algar* من دنستيبيل إلى البقعة في عربة، كان فيها برميل جعة للبيع، وجاء إليه رجل فقير مريض ورجاه من أجل محبة الشهداء منحه جرعة صغيرة لإطفاء عطشه، وغضب أَلْغار من طلبه، وقال له بأنه لم يقدم إلى هناك تقديراً منه للشهداء، بل للحصول على الربح ببيعه بضائعه، وعندما كان هكذا يهين الرجل الفقير، سقطت نهايتا البرميل، وتدفقت الجعة على الأرض، وهكذا حدث أنه بوساطة القديسين لم يحث الرجل الفقير الذي أنكر عليه نيل جرعة صغيرة، على ركبته لوحده، بل فعل ذلك عدد كبير آخر معه جثوا على ركبهم، وشربوا مارغبوا، لأن مامن أحد منعهم، وهكذا أمكن عن طريق تدخل الشهداء قمع شرور المعتدي، ونال المؤمنون الأتقياء الجائزة، ذلك أنه خلال الأيام الثلاثة التالية نال عشرة أشخاص من الجنسين الشفاء من مختلف الأمراض، فحمداً للرب وللشهيد المقدس.

اكتشاف القديس أمفيا لوس ورفاقه التسعة

وفي صباح اليوم الذي جرى فيه اكتشاف أجساد القديسين والعثور عليهم، وصل الأب المبجل الراعي سيمون إلى البقعة المقدسة، وذلك بعدما أقام قداساً لأسرار مخلصنا في بيعة القديس جيمس المجاورة، وصدوراً عن الاحترام للشهيد القديس ألبان أمر الرهبان الذين كانوا حضوراً بالبحث بيقظة أكبر، وأن يستخدموا على الفور المزيد من

الحفارين، وكانت بيعة القديس جيمس قد بينت تكريماً للشهيد، عقب نزول بعض اشعاعات الضوء دوماً على القطعان، كلما ساقهم رعاهم للرعي فوق تلك البقعة، ولهذا السبب أيضاً أقام الراعي المتقدم الذكر قداساً، وطلب عون الشهيد لمباركة بحثهم، وبعد عودة الراعي ورهبانه إلى الدير، جلسوا لتناول الغداء، فقرأ واحد منهم بصوت مرتفع حكاية آلام القديس الذي كان يحفرون من أجله ومن أجل رفاقه، الذين بعدما تحرروا من الجسد دخلوا في المجد السرمدي، وبناء عليه، عندما كان أهل الدير يبكون وراغبين في سماع خبر وحشية القاضي، وشورور معاونيه، وتفاصيل طويلة عن موتهم، دخل شخص فجأة إلى الغرفة، وأعلن أنهم للتو قد اكتشفوا أجساد أمفيالوس وثلاثة آخرين، ولماذا علي أن أتحدث عن أثر هذا الخبر؟ فقد تبذلت تنهداتهم إلى حمد وشكر، وأعقبت البهجة الأسي، ونهضوا من وراء المائدة، وساروا جميعاً إلى الكنيسة، وقدموا الشكر تعبيراً عن البهجة التي ملأت قلوبهم، وكان الشهيد المقدس أمفيالوس راقداً بين اثنين من رفاقه، بينما تم العثور على الثالث وهو راقد بشكل اعتراض في مكان منفرد لوحده، كما أنهم وجدوا قرب المكان سبعة شهداء آخرين، صاروا مع القديس أمفيالوس عددهم كلهم عشرة، وكان بين الآثار المكتشفة المتعلقة ببطل المسيح هذا سكينين كبيرين أولهما في جهمته والثاني في صدره، وبذلك تأكدت الأخبار التي وصلتنا من العصور القديمة في كتاب قصة استشهاده، لأنه وفقاً لذلك الكتاب، إنه في حين هلك الآخرون بالسيف، نزع أحشاء أمفيالوس أولاً، ثم طعن بالحرايب والسكاكين، ورجم أخيراً حتى الموت، ولهذا السبب أيضاً لم يتم العثور على أي من عظامه كاملاً، مع أنه في أجساد رفاقه لم يكن هناك عظماً مكسوراً.

كيف جرى نقل آثار القديس أمفيالوس إلى دير القديس ألبان

وكما رأينا، عندما سمع الراعي بالأخبار السارة، بادر مسرعاً مع

رئيس الرهبان وبعض الرهبان إلى المكان، وأمر بإخراج الآثار المكتشفة، ولفها بأقمشة مناسبة، وإدراكاً منه للأذى الذي يمكن أن يحصل من ضغط الحشود، الذي لا يمكن إبعادهم عن الكنز الذي وجدوه، أصدر أوامره بوجوب حمل الشهداء المقدسين إلى كنيسة القديس ألبان، حيث يمكن العناية بهم بشكل أفضل، فهل أنا بحاجة لقول المزيد؟ وعاد الراعي والرهبان إلى الدير وهم يحملون معهم بشكل منفصل أجساد القديسين، أما بقية الرهبان الذين كانوا قد بقيوا في الدير، فقد خرجوا لاستقبالهم، وهم يحملون جسد الشهيد المبارك القديس ألبان، الذي برهن حملته أنه كان ثقيلاً بشكل عام، لكنه كان في تلك الحالة خفيفاً إلى حد بدا فيه وكأنه يطير، وليس راسياً على أكتافهم، وهكذا قابل الشهيد الشهيد، والتلميذ معلمه، وجرى استقباله لدى عودته بشكل علني من قبل الذين كان فيما مضى قد علمهم الإيمان الصحيح في بيت ريفي متواضع، وعلى كل حال، ينبغي عدم المرور بما حدث بصمت، فقد عمل الرب معجزة في العناصر عندما التقت هذه الآثار، فقد كان هناك انحباس للمطر، سبب جفاف كل شيء، وأوصل المزارعين إلى حالة اليأس تقريباً، ففي تلك اللحظة، تساقط مطر عاصف، مع أنه لم تكن هناك سحابة مرئية، ورويت الأرض، وتجدد الأمل بموسم مستقبلي، وكان العثور على القديس أمفيالوس ورفاقه في يوم السبت الخامس والعشرين من حزيران لعام ١٧٧ م، وكان ذلك العام عام ثمانمائة وستة وثمانين بعد استشهاده، وجرى وضع الآثار المقدسة كما كانوا مدفونين في تلك البقعة، وكان في سبيل مجد الرب، وشهيدته قد جرى شفاء المرضى من مختلف الأمراض، واستردت الأطراف المعاقة قوتها، وفتحت أفواه الخرسان، ورد البصر إلى الأعمى، والسمع إلى الأطرش، وتمكن الأعرج من المشي، فهل بقي هناك المزيد من الأمور الإعجازية، فالذين كانوا متلبسين من قبل الشياطين قد تحرروا، وتمّ شفاء المصروعين، ونقاء المجذومين، وأعيد الميت إلى الحياة، وإذا مارغب أي

واحد بقراءة أخبار المعجزات التي عملتها الرحمة الربانية بوساطة هؤلاء الشهداء، عليه استخدام كتاب معجزاته، والآن نطلب السماح من قرائنا من أجل الاستطراء، ونبادر مسرعين نحو المواضيع الأخرى.

كيف أقام هنري الملك الشاب مباريات مبارزات

عام ١١٧٩م، فيه عبر هنري الملك الشاب إلى غاليا، حيث أمضى ثلاثة أعوام في الصراعات وفي الاسراف في النفقات، واضعاً جانباً الأبهة الملكية، ومتخذاً سمة فارس، وصارفاً نفسه إلى تمارين الفروسية، ونائلاً للنصر في كل مبارزاته، وناشراً لشهرته في جميع الأرجاء من حوله، وعندما اكتملت سمعته عاد إلى أبيه الذي استقبله بالتشريف اللائق، وقرر في العام نفسه لويس ملك فرنسا القيام بزيارة للصلاة عند ضريح القديس توماس الشهيد، ولهذا الغاية قدم إلى انكلترا، الأمر الذي هو لم يفعله من قبل، ولا كذلك أي واحد من آبائه، فقد نزل في دوفر واستقبل في الثاني والعشرين من آب من قبل ملك انكلترا، الذي أظهر نحوه ونحو حاشيته كل علامات الاحترام الممكنة، وسار رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين، والاييرلات، والبارونات، وذلك إلى جانب رجال الدين والناس، سار هو و هؤلاء بموكب مهيب إلى الكنيسة، تشريفاً للملك الكبير، وما من أحد يعرف كم هو كثير الذهب والفضة، والأحجار الكريمة والصحون التي منحها الملك هنري إلى النبلاء الفرنسيين، ولذلك ما من انسان يمكنه الحديث عن شيء مماثل، وتبرع ملك فرنسا بمائة معيار من الخمرة، لتوزع سنوياً في باريس صدوراً عن الاحترام للشهيد المجيد، وكذلك من أجل استخدامات دير كانتربري، وعرض الملك هنري على الملك الفرنسي وحاشيته رؤية جميع ثروة مملكته، مما جمعه هو شخصياً، أو من قبل أسلافه، وأمسك الفرنسيون أيديهم عن تسلّم الهدايا، خشية أن يبدو أنهم جاءوا لغرض آخر غير رؤية الشهيد المبارك، وحين تمنعوا هكذا لعلمهم تحملوا نوعاً من

الشهادة العقلية، وهكذا بعدما أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في الشهر، والصوم، والصلاة، في كانتربري، وتلقى قليلاً من الهدايا الصغيرة من ملك انكلترا، كبرهان على المحبة، أبحر عائداً إلى فرنسا في السادس والعشرين من آب، ومات في السنة نفسها روجر أسقف أوف وينكستر في التاسع من آب.

مجمع روما برئاسة البابا الاسكندر

وعقد في العام نفسه مجمع عام في روما، حضره ثلاثمائة أسقف وعشرة أساقفة، وكان ذلك في التاسع والعشرين من آذار، في اللاتيران، وقد ترأسه البابا الاسكندر الثالث، وكانت القرارات التي اتخذت آنذاك، والتي تستحق الثناء العالمي، قد جاءت تحت تسعة وعشرين عنواناً كما يلي: حول انتخاب الحبر الأعظم، وحول الهراطقة الألبينيين، ومختلف أسمائهم، وحول قطاع الطرق والنهابين في بربانت، الذين أضروا بالمؤمنين، وأن مامن أحد سوف يتقدم إلى الأسقفية، أو إلى أية مرتبة لاهوتية، مالم يكن في العمر القانوني، وقد ولد من زواج شرعي، وأنه لا يجوز منح أية منافع وتوزيعها مادام الكرسيين لها أحياء، وأن لا تبقى أكثر من ستة أشهر شاغرة بعد وفاة الكرسيين لها، وحول الاستئنافات أن لا يشغل أي واحد من الطوائف المقدسة أو من الذين يعيشون من الموارد اللاهوتية، نفسه بالأعمال المدنية، وحول تثبيت الهدن، وتثبيت تواريجها، وأن يمتلك رجال الدين كنيسة واحدة، وكذلك الأساقفة، إذا مارسوا أشخاصاً من دون ألقاب محددة، عليهم الاحتفاظ بهم، حتى يمكن تعيينهم لمنصب في الكنيسة نفسها، وأن لا يتولى الحماة والعلمانيون ظلم الكنائس أو أي انسان لاهوتي، وأن لا يملك اليهود والمسلمين أي من العبيد المسيحيين، لكنهم إذا اختاروا التحول إلى المسيحية فلا يجوز انتزاع هؤلاء العبيد من أسيادهم، وأن يمتلك الأشخاص المجذومين، الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع،

مصلى خاص بهم مع كاهن لهم، وأن لايجري نقل الممتلكات اللاهوتية وتحويلها إلى أية استخدامات أخرى، وأن لايصرف العمداء الذين يمارسون الأعمال القضائية الأسقفية من أجل مبلغ محدد من المال، وبالنسبة لأعمال الانتخاب والتكريس اللاهوتي يجري تنفيذ إرادة الشطر الأكثر من المجلس، وأن لايسمح للذين يمارسون الربا بشكل علني بتناول القربان عند المذبح، وأن لايتلقون دفنا مسيحيا، وسوف يتمتع المزارعون والمسافرون بسلام عام وأمان، وعدّ جميع أعمال التكريس التي تجري من قبل المنشقين لاغية، وفارغة، وكل المنافع التي تمنح من قبلهم منقوضة، ولاتجوز المطالبة بأية مدفوعات من أجل سيامة الأشخاص اللاهوتيين، ودفن الموتى، والتفوه بالمباركة أثناء الزواج، أو من أجل التكريسات الأخرى في الكنيسة، ولايجوز لأي أشخاص دينيين أو آخرين الإقدام على تسلم كنائس أو عشور من يدي علماني من دون موافقة الأسقف وتفويضة، ولايجوز أيضاً للدواوية أو الاستتارية فتح كنائسهم تحت الحرمان، مرة في السنة، وأن لايتولوا وقتها دفن الموتى، ولايجوز لأحد، من أجل المال، مصادرة الملابس الدينية، ولامصادرة أحداً من رجال الدين لديهم ممتلكات خاصة، ولايجري تجريد الأساقفة إلا بسبب التخريب أو العجز عن كبح النفس جنسياً، ولايجوز للمسيحيين بيع الأسلحة إلى المسلمين، وأن لايتجرأ أحد على سرقة الذين تجنح سفنهم، ويتوجب على الكهنة في الطوائف المقدسة العيش بعفة، وإذا عثر عليهم وهم يمارسون ذلك النوع من الممارسات المعارضة للطبيعة، فسوف يجري حرمانهم كنسياً، ويطردون من الكهنوتية، وعلى رؤساء الأساقفة الذين يتولون زيارة الأسقفيات أو الكنائس، أن يقنعوا بحاشية تتكون من أربعين إلى خمسين فارساً، والأساقفة بعشرين أو ثلاثين، والنواب البابويون بعشرين أو خمس وعشرين، ورؤساء الشمامسة بخمسة أو سبعة، والعمداء ليس بأكثر من اثنين، ولايجوز لأحد ممارسة المبارزات، والذين يموتون فيهم يجرمون من الدفن

المسيحي، وعلى كل كنيسة كاتدرائية أن تمتلك معلماً يتولى تعليم الطلاب الفقراء والآخرين، شرط عدم مطالبة أي واحد بالدفع من أجل التعليم، ويتولى القسيس إدارة كنيسة واحدة، ولا يجوز للأولياء استخراج مال من الكنائس أو من أراضيهم، ولا يجوز إرغام الأساقفة والأشخاص اللاهوتيين على الظهور في المحاكم المدنية، وأن لا يدفع الرجال العلمانيين عشوراً إلى أناس علمانيين، وإذا مات سلم أي انسان ملكية من آخر كضمان من أجل دين، ثم إنه بعد حسم النفقات جمع ماله من انتاج تلك الملكية، عليه وقتها إعادة الضمان إلى المستدين منه.

رسالة البابا الاسكندر ضد هرطقة بطرس لومبارد

وأخبر البابا الاسكندر نفسه بأن المعلم بطرس لومبارد، قد ابتعد في بعض كتاباته عن أسس الإيمان وقواعده، ولذلك بعث بالرسالة التالية إلى وليم رئيس أساقفة سين:

« من الاسكندر، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى وليم رئيس أساقفة سين، تمنيات الصحة:

عندما كنتم من قبل في حضرتنا، أعلمناكم بكلمات الفم، وطلبنا منكم حث أساقفتكم المساعدين في باريس، وأن تستخدموا أفضل جهودكم لتدمير العقيدة الزائفة، لأسقف باريس السالف، التي أكدت أن المسيح، هو انسان، وليس شيئاً آخر، ولذلك نأمرك يا أخي بكتابتنا الرسولية، مثلما أمرناك من قبل بكلمة الفم أن تجمع أساقفتك في باريس، وأن يكون معهم آخرين من رجال الدين وأهل الحكمة، لتقوموا بإبطال العقائد المتقدم ذكرها جميعاً، وأن تجعلوا المعلمين يعلمون التلاميذ في اللاهوت بأن المسيح إله كامل، وهو أيضاً انسان كامل، يتكون من جسد وروح، وعليك أن تأمر جميع الناس بأن لا يقدموا بأي حال من الأحوال على التبشير بالعقيدة المزيفة المتقدم ذكرها، بل أن

يقوموا بمقتها كلياً».

حول كتاب الراعي واكيم الذي كتبه ضد بطرس اللومباردي

وكتب في هذه الأيام واكيم راعي دير فلور Flore كتاباً ضد بطرس اللومباردي، أطلق عليه فيه اسم هرطقي واسم مجنون، لأنه قال لدى حديثه عن الوحدة أو جوهر الثالوث، بأن الآب، والابن والروح القدس، هم جوهر واحد سامي، هو لم يلد ولم يولد، بل انشق واحداً، وبسبب هذا التأكيد اتهم الراعي بطرس بأنه لم يؤمن بثلاثة أشخاص هم الرب، بل بوجود رابع، أي الثلاثة المعتادين، وجوهرهم العام، الذي هو رابع بشكل ما، أي ليس هناك شيء هو الآب، أو الابن، ولا روح القدس، ولا جوهر، ولا أساس، ولا طبيعة، مع أنه أقر بأن الآب، والابن، والروح القدس هم جوهر واحد، وأساس واحد، وطبيعة واحدة، وقام واكيم نفسه بتأكيد وضعه بالنصوص التالية: «هناك ثلاثة لهم الوجود في السماء، وهم: الآب، والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، وهناك ثلاثة لهم الوجود في الأرض، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثلاثة هم واحد»، وقال ثانية: «وأرغب يا أبي، أن يكونوا واحداً فينا، مثلما هم أيضاً واحداً»، وعلى هذا بدا أن واكيم المتقدم الذكر، لم يعترف بوحدة صحيحة وكاملة من هذا النوع، بل بنوع من الوحدة التراكمية، تشابهت عناصرها فصارت مثلما ندعو عدداً كبيراً من الناس، شعباً واحداً، وكثيراً من المؤمنين كنيسة واحدة.

كيف أدان البابا انوسنت كتاب واكيم

وبقيت هذه الخلافات غير محسومة لسنين طوال، وذلك منذ أيام البابا الاسكندر إلى أيام البابا انوسنت، أي طوال مدة بابويات: لوسيوس Lucius ، وأوربان، وغريغوري، وكليمنت، وسيلستين

Celestine الذي خلفه انوسنت الثالث، الذي قام في سنة ١٢١٥ لتجسيد ربنا، فعقد مجمعا عاماً في روما، وأدان كتاب واكيم ضد بطرس بهذه العبارات: «نحن نوافق، ونستحسن في هذا المجمع، ونعتقد، ونعترف مع بطرس بأن هناك عنصر سامي واحد، لا يمكن مقارنته ولا وصفه هو حقاً الآب، والابن، والروح القدس، وأنهم مع بعضهم ثلاثة أشخاص، وكذلك كل واحد منهم منفصل، وبناء عليه هناك ثلاثة أشخاص وليس أربعة في الإله، لأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة أشخاص هو الشيء نفسه، أو العنصر الأساس، أو الجوهر للطبيعة اللاهوتية، التي هي بداية جميع الأشياء، وإلى جانبها لا يوجد شيء آخر، وأن ذلك العنصر الأساس لم يلد ولم يولد، ولم يبنثق، بل الآب هو الذي ولد، والابن هو المولود، وروح القدس هي المنبثقة، وبناء عليه هناك تمييز بين الأشخاص، ووحدة في الطبيعة، لأنه مع أن الآب، والابن، والروح القدس، هم أشخاص مختلفون، لكنهم ليسوا مختلفين بعنصر الأساس، فالآب بولادته لابن من الأبدية أوصل إليه عنصرة الأساس، وهذا ما أكده هو نفسه بقوله: «ذلك الآب الذي أعطاني هو أعظم من الجميع»، كما أنه لا يمكن القول بأنه أعطى الابن جزءاً من عنصر الأساس واحتفظ بالباقي لنفسه، لأن عنصر أساس الآب لا يمكن تقسيمه، وهو كله ساذج، كما أنه لا يمكن القول بأن الآب قد نقل أساسه إلى الابن بولادته له، أي أنه بإعطائه هكذا الابن هو لم يحتفظ به لنفسه، وإلا فإن عنصره الأساسي سوف يتوقف، لكن الابن تسلم بالولادة كل العنصر الأساسي للآب، وهكذا فإن الآب والابن لهما عنصر الأساس نفسه، وهما الشيء نفسه، وكذلك الروح القدس التي انبثقت من الاثنين، وبقيت فيهما معاً، ذلك أن العبيد المؤمنين للمسيح ليسوا— كما قال الآب واكيم، هم عنصر أساس للجميع، بل واحد فقط في وحدة الرعاية والنعمة، لكن بالنسبة للأشخاص اللاهوتيين هناك وحدة بالذات وفي طبيعتهم، وبناء عليه نحن ندين

ونشجبت كتاب وعقائد واكيم، ونأمر أنه إذا ما حاول أحد الدفاع عن مواقف في هذه القضية، أن يُنظر إليه على أنه هرطقي بين جميع الناس»، وبشأن هذا المجمع والبابا المذكور أعلاه، سوف يقال المزيد في مكانه المناسب.

كيف جرى تكريس فيليب ملكاً لفرنسا

وجرى في العام نفسه، تتويج فيليب بن لويس ملك فرنسا، ملكاً في يوم عيد جميع القديسين في الرايم Rheims ، من قبل وليم رئيس أساقفة تلك المدينة، وكان أبوه مايزال حياً، وقدم كل شيء تطلبه التتويج، وجلب أيضاً كادوولان Cadwallan، أمير ويلز، في هذا العام، ليمثل في حضرة ملك انكلترا، حيث وضعت كثيراً من الاتهامات ضده، ولدى عودته إلى ويلز، بموجب أمان منحه إياه الملك، هوجم من قبل أعدائه، وقتل في الثاني والعشرين من ايلول، حيث كان ذلك تحدياً كبيراً للملك، وعلى هذا لا يمكن توجيه اللوم إليه، ذلك أنه أمر بعقوبة مقترفي هذه الجريمة بعقوبة حادة.

التحالف بين ملك فرنسا وملك انكلترا

عام ١١٨٠م، فيه جرى عقد مؤتمر بين فيليب الملك الجديد لفرنسا، وبين الملك هنري في مكان بين غيسور، وتراي Trie، حيث جرى ابرام المعاهدة التالية بينهما: «أنا فيليب بنعمة الرب، ملك فرنسا، وأنا هنري بالنعمة نفسها ملك انكلترا، نعلم جميع الناس، بأننا جددنا يمين التحالف والصداقة بيننا، ولكي نتجنب جميع مناسبات الخلافات بيننا من الآن فصاعداً، اتفقنا أن مامن واحد منا سوف يدعي ملكية أية أرض ضد الآخر، والممتلكات والأشياء التي بأيدينا الآن، وذلك باستثناء أوفرين Auvergne التي يوجد حولها الآن خلاف بيننا، وباستثناء الرسم الاقطاعي لقلعة رالف، وباستثناء رسوم صغيرة أخرى

واقترساق لأراضينا في بيري Berri، التي حولها لم نتمكن من التوصل إلى اتفاق، وقد اختار كل منا ثلاثة أساقفة وبارونات ليقرروا فيما بيننا، ونحن سنلتزم بقرارهم بعد الموافقة على ذلك بنوايا طيبة»، ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا في باريس، وكان ذلك في الثامن عشر من أيلول، ودفن في دير السسترشيان في باربوكس Barbeaux، الذي أكملت عمارته على حساب الملك نفسه.

كيف شعث رتشارد كونت أوف بوتواتو

أراضي غيوفري دي ليزيناياك

وفي تلك الآونة استشير رتشارد دوق أوكتين وابن الملك هنري بعجرفة غيوفري دي رانكون وبسبب كثير من الأذى الذي ناله منه جمع عساكره، وألقى الحصار على تيلبورغ Tailburg، التي كانت إحدى قلاعها، وكانت مغامرة جريئة مامن واحد من أسلافه قد أقدم عليها، لأن القلعة كانت حتى ذلك الحين غير معروفة من قبل أعدائها، وكانت محمية بثلاثة خنادق وأسوار، إلى جانب أسلحة من جميع الأنواع، والحواجز والموانع، كما كانت متوجة بأبراج متحركة منصوبة على مسافات، وكان يوجد على شرافاتها كميات واسعة من الحجارة، إلى جانب مخازن من المؤن، وعدد كبير من الفرسان والعساكر المجريين، ولذلك لم تشعر بالخوف من وصول الدوق رتشارد، وقام هو بمهاجمة أراضيها بأكثر من غضب أسدي، واستولى على المنتجات المجموعة من الأعناب، وأحرق القرى، ودمّر كل شيء، ثم نصب خيامه قرب القلعة، وأقام آلات رمي مقابل الأسوار، مما سبب ذعراً حقيقياً عظيماً بين صفوف الحامية، الذين ماكانوا يتوقعون وقوع مثل هذا الشيء، ولقد رأوا— على كل حال— أنه شائن أن يتعامل مثلهم من العساكر المجريين ويرغموا على البقاء محصورين داخل الأسوار، لذلك قرروا بالاجماع القيام بهجوم مفاجيء على جيش الدوق، وجرى تنفيذ هذا

القرار بشجاعة، لكن الدوق جمع رجاله، وأرغمهم على التراجع إلى ماوراء أسوارهم ، وفي أثناء تراجعهم كان هناك قتال شديد، وكان سيئا بالنسبة لكل من الرجال والخيول، وللسيوف والرماح، والقسي، والقسي الزيارة، والترسة والحراب، مع كل نوع آخر من السلاح، والسوابغ والدروع الدفاعية، فهذه جميعاً جرت تجربتها في تلك المبارزات، ونجم عن ذلك أن أهل البلدة، وجدوا أنفسهم غير قادرين على متابعة تحمل حملات الدوق، فتراجعوا إلى ماوراء الأسوار، واندفع الدوق في مطاردتهم ودخل مع المطاردين، وامتألت الشوارع بالسلب والحرائق، لأنه لم يكن قد ترك لهم طريق للنجاة، وكان سكان البلدة محظوظين بالفرار إلى البرج الرئيسي، وتمت تسوية الأسوار الجميلة بالأرض، وعانى الآخرون الذين مكثوا في القلعة الثائرة من الحنف نفسه خلال شهر، واكتمل كل شيء حسب رغبات الدوق، وعند ذلك عبرا إلى انكلترا حيث جرى استقباله بالتشريف الأعظم من قبل أبيه الملك هنري.

كيف أخضع فيليب ملك فرنسا تصريف مملكته إلى ملك انكلترا

عام ١١٨١م، فيه، ذكر بعض وزراء ملك فرنسا سيدهم، كيف أن ملك انكلترا قد حكم مملكه الواسعة بسلام، وأبقاهم سالمين، من أولئك البرابرة من شعوب الويلزيين والاسكوتلنديين، ولهذا أخضع الملك الفرنسي — بناء على نصيحة آل بيته — مملكته وكذلك شخصه إلى تصريف ملك انكلترا، حيث تأثر بطرائقه وحذا حذوه، فوضع جميع نورماندي، تحت اشراف الملك الشاب ابنه، وعبر إلى انكلترا في الخامس والعشرين من تموز، وقام بزيارة هدفها الصلاة عند ضريح القديس توماس الشهيد.

ومات في العام نفسه في العشرين من تشرين الثاني، روجر رئيس أساقفة يورك، الذي حصل أثناء حياته على امتياز من البابا الاسكندر،

قضى أنه إذا ما قام أي كاهن كان تحت سلطانه، بعمل وصية وهو على فراش موته، ومات دون أن يتولى توزيع ممتلكاته بيديه، وقتها يستولي رئيس الأساقفة على جميع ممتلكات المتوفى، وبما أن كل واحد ينبغي أن يخضع للقوانين التي وضعها للآخرين، نجد الآن أنه عندما مات رئيس الأساقفة، فإن جميع كنوزه قد صودرت بموجب حكم عادل من الرب، وقد بلغت أحد عشر ألف باوند من الفضة، وثلاثمائة قطعة من الذهب، وكأس ذهبي واحد، وسبعة كؤوس من الفضة، وتسعة طوس من الفضة، وثلاث ممالح من الفضة، وثلاثة كؤوس من المر، وأربعين ملعقة، وتسع قصعات من الفضة، وطشت فضي واحد، وقصعة فضية كبيرة.

رسالة البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند

وفي هذه الآونة كتب البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند، كما يلي: « من الاسكندر الأسقف، إلى ولده المحبوب في المسيح، صحة ومباركات رسولية، لقد سمعنا منذ زمن طويل مضى، بوساطة العلاقة بكثيرين، عن النشاط الذي أبديته في انجاز الأعمال التقوية، منذ أن تبنت الديانة المسيحية، هذا وأبدى ولدنا المحبوب، فيليب الطيب، الذي قال بأنه تحدث مع عظماء وأشرف الرجال في مملكتك، إلحاحه وإخلاصه المعهود، في العمل على تبيان نواياكم وخططكم، وأوضح لنا رغبتكم في توجيهكم في العقيدة الكاثوليكية والرسولية، وأن هذا هو شغفكم، الجامح، وذلك بالنسبة لشعبكم ولكم أنفسكم، وأن لا تتمسكوا بشيء يبدو مخالفا لعقائد الكرسي الرسولي، وإلى ذلك ينبغي أن نضيف الفضيلة السامية المتعلقة برغبتكم — كما قال فيليب المتقدم الذكر، بأنه سمعها من شعبكم — بأن تمتلكوا كنيسة ومذبحاً في مدينة القدس، حيث يمكن لرجال دين وحكام من مملكتكم البقاء والتعلم بصورة أوفى والتدرب بشكل أكمل على الأنظمة الرسولية، التي

بوساطتها يمكنكم أنتم أيضاً وشعبكم أن تتلقوا بصورة أسهل العقائد المسيحية، وتمسكون بها، وبناء عليه، رغبة منا في إبعادكم عن الأفكار التي تنأى بكم عن الإيمان المسيحي، قد بعثنا إلى سموكم فيليب المتقدم الذكر، الذي من خلاله يمكن أن تتعلموا أفكار الإيمان المسيحي، وذلك حيث تبدو أنت ويبدو أتباعك أنكم تختلفون عنا، وهكذا لا عليك أن تخاف من أي شيء يمكن أن يصدر عن أخطائكم، في أن يعيق خلاصكم أو خلاص أتباعكم، أو أن يلقى بأية وصمة على إيمانكم بالمسيحية».

كيف خلف لوسيواس البابا الاسكندر

ومات في العام نفسه البابا الاسكندر، بعدما جلس في منصب البابوية الرومانية لمدة اثنين وعشرين عاماً، وقد خلفه همبولد Humbald أسقف أوستيا، الذي اتخذ لنفسه اسم لوسيواس الثالث، ومكث أربعة أعوام في الكنيسة الرسولية، وأيضاً تزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت أوف هينولت Hainult ، من مرغريت أخت فيليب كونت فلاندرز، وفي هذا العام ألغي أيضاً النقد القديم، وصدر نقد جديد في يوم عيد القديس مارتن، وفي العام نفسه، خلف بلدوين راعي فوررد، وهو دير سستر شياني، روجر، وصار أسقفاً لوينكستر.

كيف رفض غيوفري المنتخب للنكولن الانتخاب

عام ١١٨٢م، فيه قام غيوفري المنتخب للنكولن، والذي هو ابن ملك انكلترا، بعد تأكيد انتخابه من قبل البابا وحكمه لتلك الكنيسة نفسها بسلام لمدة سبعة أعوام، قام في يوم عيد الغطاس في مالبورما Marlborough ، بالتخلي عن انتخابه، وكان ذلك بحضور الملك والأساقفة، مع أن مامن أحد أرغمه على فعل ذلك.

وفي الوقت نفسه، منح هنري بحضور نبلاء المملكة في وولتهام، وبكرم منه ألفي مارك من الفضة وخمسة مارك من الذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وعبر بعد ذلك إلى نورماندي، وفي هذه الأيام جرى نفي هنري دوق سكسوني من قبل الامبراطور، وهنري هذا كان ختن الملك، وقد وصل إلى الملك مع الدوقة، وولديه: هنري وأوتو، وهناك زوده الملك لمدة ثلاثة أعوام بسخاء، بكل الأشياء التي احتاجها، وبأعظم الكميات، وفي هذا العام نفسه جرى تكريس كونستانتى Con-stantiis رئيس شامسة أكسفورد، أسقفاً للنكولن، من قبل رتشارد رئيس أساقفة كانتبري، في آنجو في كنيسة القديس لود Laud، ومات أيضاً وولتر أسقف روكستر في هذا العام.

وفاة الراعي سيمون وتعيين وارن

عام ١١٨٣م، فيه مات سيمون راعي دير القديس ألبان، وقد خلفه وارن رئيس رهبان الكنيسة نفسها، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد أم الرب، حيث وقتها تلقى المباركة كراعي دير.

موت هنري الملك الشاب

وفي هذه الآونة بذل الملك هنري جهده في سبيل جعل ولديه غيوفري ورتشارد يقدمان الولاء للملك الشاب، بحكم كونه الابن الأكبر له، وذلك عن بريتاني، ودوقية أكوطين، ولهذه الرغبة وافق غيوفري على الفور، وقدم الولاء من أجل ايرلية بريتاني، لكن رتشارد ما أن سمع بطلب أبيه حتى انفجر غاضباً، وقائلاً إنه من غير المنطقي، طالما والدهم مازال حياً، أن يخضعوا أنفسهم إلى أخيهما الأكبر، الذي ولد من الأب نفسه والأم نفسها مثلهم أنفسهم، وأن يقوم الأخ الأكبر بادعاء وراثته الأب، إنه هو نفسه، أي رتشارد، له الحق بالمطالبة بوراثته ممتلكات أمه، وكان الملك هنري منزعجاً جداً تجاه هذا التصرف، وسعى

باخلاص شديد لجعل ابنه الشاب، يبذل غاية جهده لخضد شوكة عجرفة أخيه، وبعدما اجتمعا مراراً من أجل هذا المقصد، ووضح أنه مامن أمل في السلام، حشد الملك الشاب جيشاً كبيراً، وقرر محاربة أخيه، لكن حياته انقطعت فجأة مثل خيط، ومعه آمال الكثيرين، ففي الوقت الذي كان فيه بنضارة شبابه، وعندما فقط أكمل الثامنة والعشرين من عمره، توفي في ذلك الجزء من غاسكوني الذي اسمه تورونيا Turonia في قلعة مارتل، في يوم عيد القديس بارنباس Bar-nabas الرسول، وجرى لف جسده بأثواب من الكتان، هي التي لبسها لدى مسحه بالميرون أثناء تتويجه، وحمل إلى روان، حيث دفن إلى جوار المذبح في الكاتدرائية، بتشريف عظيم يليق بأمر كبير مثله، وفي هذا العام نفسه مات جيرارد الملقب بلي بوسل Pucelle وكانت قد جرت سيامته لكرسي كوفنتري، وجاءت وفاته بعد عشرة أسابيع من صيرورته أسقفاً، وقدم أيضاً وولتر دي كاوتانس Coutance أسقف لنكولن إلى انكلترا، وجلس على عرش أسقفيته بشكل مهيب.

عام ١١٨٤م، فيه مات رتشارد رئيس أساقفة كانتبري، في ألنغهام Allingham ، وهي قرية عائدة لأسقف روكستر، واصطحب الملك هنري دوق سكسوني مع أسرته إلى انكلترا، حيث ولدت الدوقة بعد ذلك بعدة أيام ولداً أعطي اسم وليم، وكان ذلك في وينكستر، وفي العام نفسه جرى انتخاب بلدوين أسقف ووركستر، ليكون رئيساً لأساقفة كانتبري، كما تمّ انتخاب وولتر أوف لنكولن ليكون رئيساً لأساقفة روان، وتلقى هذين الأسقفين الطيلسان، وبمهابة جلسا على عرشيهما، وقدم في هذه الآونة إلى انكلترا فيليب رئيس أساقفة كولون، وفيليب كونت أوف فلاندرز، ليقدموا نذريهما إلى الشهيد المبارك، القديس توماس، وخرج الملك هنري لاستقبالهما، ودعاها للقيام بزيارة لندن، المدينة الملكية وعندما وصلا إلى لندن، أقامت تلك العاصمة

احتفالاً، لم يشاهد مثل منظره من قبل، وغنت جميع شوارعها فرحاً وحبوراً، وجرى استقبال رئيس أساقفة كولون وكونت فلاندرز بمسيرة مهيبة في كنيسة القديس بولص، وقدم لهما في اليوم نفسه تشریف آخر، وبعد ذلك استضيفا لمدة خمسة أيام في القصر على حساب الملك، لكن هل حملا معها وهما عائدین إلى الوطن كثيراً من الهدايا أم لم يحملها، يبدو أن من الفضول البحث في ذلك، ومات في العام نفسه جوسلين أسقف سالسبري.

كيف هاجم المسلمون اسبانيا المسيحية وتراجعوا باضطراب

وفي هذه الأيام، في حوالي يوم عيد القديس يوحنا المعمدان اقتاد أبو حفص ملك المسلمين في اسبانيا ملك ملوك المسلمين الذي اسمه أبو يعقوب، على رأس سبعة وثلاثين ملكاً آخر، إلى داخل أراضي المسيحيين، وحاصروا أولاً شنترين، وبعد قتال استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالي، أحدثوا ثغرة في الأسوار، ودخلوا إلى البلدة، وهربت الحامية إلى القلعة، وفي الليلة التالية انقض أسقف البرتغال مع ابن الملك على المسلمين، وقتلوا الملك أبو حفص مع خمسة عشر ألفاً من رجاله، وقد كوموا جثثهم في مكان الأسوار التي أحدثت فيها الثلثة، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس يوحنا، والقديس بولص [٢٦- حزيران]، حشد رئيس أساقفة سانتياغو عشرين ألفاً من الرجال، وقتل عند الفجر ثلاثين ألفاً من المسلمين، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديسة مرغريت دمر المسلمون عند العقاب عشرة آلاف امرأة وطفل، غير أن الذين كانوا في بلدة العقاب خرجوا منها وحملوا على المسلمين فقتلوا ثلاثة ملوك مع جيشهم كله، وبعد ذلك في عشية عيد القديس جيمس سمع الملك أبو يعقوب بأن ملك قشتاله كان قادماً لقتاله، ولذلك عندما رغب في امتطاء حصانه وقع أرضاً ثلاث مرات ومات، وبناء عليه هرب جيشه كله، مخلفاً وراءه جميع أمواله، وأعطى ملك

البرتغال بعضاً من أسرى المسلمين كرقيق للعمل في خدمة البنائين في إعادة عمارة الكنائس، وعمل بالذهب بيعة ذهبية في القديس فنسنت Vincent وقدمت بعد ذلك عدة غلايين إلى لشبونة جالبين معهم مركباً ضخماً، كان فيه آلة رمي ذات طبيعة أنه كان بإمكان المسلمين الرمي فيها إلى ما وراء الأسوار، والعودة ثانية، وبفضل الحكمة الربانية، تمكن أحدهم من الغطس في الماء تحت هذا المركب، وفتح ثغرة كبيرة في أسفله، مما سبب غرقه، وقدّر المسلمون أنهم صدوا، ولذلك هربوا مخلفين وراءهم جميع أثقالهم.

انتخاب غي لوزغان حامياً لمملكة القدس

كان في هذه الأيام يحكم في القدس بلدوين ابن الملك عموري، وقد كان منذ بداية حكمه مصاباً بمرض الجذام، وكان هذا المرض قد حرمه بصره، والقدرة على استخدام قدميه ويديه، ومع ذلك على الرغم من ضعف جسده، كان قوياً في فكره، وقد بذل جهوداً فوق طاقته لتأدية واجباته الملكية، وفي سبيل هذه الغاية حث نبلاء مملكته، وكان ذلك بحضور أمه والبطيرك من أجل تعيين غي لوزغان، كونهت يافا وعسقلان، ليكون وكيلاً للمملكة، وكان غي هذا قد تزوج من سيبيلاً أخت الملك، التي كانت من قبل زوجة مركزيز مونت فرات، الذي منه ولدت بلدوين، لكنه بعدما صار لبعض الوقت وكيلاً للمملكة، ولم تتقدم المملكة، عزل الملك غي، وعين ريموند كونهت طرابلس في موضعه.

كيف دمر صلاح الدين سلطان مصر عدة مدن عائدة للصليبيين

أخضع في هذه الآونة صلاح الدين، سلطان دمشق، جميع ممالك المسلمين في أرجاء الشرق، وبذلك صار من الممكن تسميته عن حق ملك الملوك، وسيد السادة، وصار الآن مقصده إخضاع جميع الصليبيين

أيضاً، فعبر نهر الأردن في بداية تموز، وأغار على المنطقة من حول قلعة الكرك لجمع الغلال والأعلاف، ومنطقة الكرك هي التي كانت تعرف من قبل باسم البتراء في الصحراء، ثم إنه عبر إلى بلدة نابلس، التي نهبها ثم أحرقها، وفي سبسطية تمكن الأساقفة من دفع فدية عن المدينة وعن الكنيسة بتسليمه ثمانين من الأسرى، وزحف من هناك صلاح الدين إلى العربية فشعث تلك المنطقة، واقتلع النساء والرجال وحملهم معه أسرى، وتابع من هناك زحفه إلى قلعة جيرين الكبرى التي دمرها، وقتل كل من الرجال والنساء وذلك باستثناء عدد قليل اتخذهم أسرى، وكانت جيرين الصغرى قرية تابعة للداوية، وقد شاركت بالمصير نفسه، وعاد المسلمون بعد ذلك عبر طريق كوكب الهواء، وكانت قلعة تابعة للداوية فقتلوا بعضاً من سكانها وحملوا البقية أسرى.

انتخاب ملك انكلترا ملكاً للقدس

وعندما مات أخيراً بلدوين الملك المجذوم للقدس، حكم مكانه طفل كان في الخامسة من عمره، كان ابن أخت الملك المتوفى من أخته سيبيليا ووليم مركيز أوف مونتفرات، وكان بعد تتويجه أن عهد بتربيته لريموند كونت طرابلس، ولكن عندما رأى الناس ورجال الدين أن المملكة تدهورت إلى حالة بات من غير الممكن الحفاظ بها عليها، أخذوا يفكرون بالخطوات المتوجب اتخاذها، مقدرين في ظنونهم أن السلطان من غير الممكن أن يبقى طويلاً من دون عمل مؤثر، وكانت لديهم آمال قليلة للافادة من سني طفولة الملك، لذلك اتفقوا جميعاً على ارسال سفراء إلى هنري ملك انكلترا، وعرضوا عليه مملكة القدس، مع مفاتيح المدينة المقدسة، وكذلك مفاتيح ضريح ربنا، وتولى هرقل البطريق بناء على طلبهم القيام بهذه السفارة، وكان برفقته مقدم الداوية مع آخرين، وقد عبروا البحر المتوسط، ووصلوا إلى روما، وحصلوا على رسائل من البابا لوسيوس، فيها رجاء ملك انكلترا بالموافقة على طلبهم.

وصول البطريك هرقل إلى انكلترا وإعلامه الملك هنري بانتخابه

عام ١١٨٥م، فيه وصل هرقل بطريك ضريح القيامة المقدس، وروجر مقدم الاستبارية في القدس، إلى الملك هنري، في ردنغ، وأوصلوا إليه رسالة البابا، وشرحوا له الهدف من رحلتهم، والوضع المأساوي لمدينة القدس ولجميع منطقتها، وأثارت الكلمات الملك والمجتمعين وجعلتهم يبكون، فقد تفاعلت عواطفهم مع ميلاد الرب، وآلامه، وبرج داوود، ومفاتيح الضريح المقدس، وراية المملكة، فهؤلاء قد قدرهم الملك واحترمهم بدون حدود، وجاء محتوى رسالة البابا، بين مواضيع أخرى مايلي:

رسالة البابا لوسيويس إلى ملك انكلترا

من لوسيويس، أسقف وعبد عبيد الرب، الخ

« لما كان سلفك قد شهروا فوق جميع أمراء العالم بالشجاعة في السلاح، والنبالة في العقل، تعلم الناس من المؤمنين أن يتطلعوا نحوهم كحماة لهم في محنتهم، وليس من دون مسوغ أن تقدموا إليكم، أنتم الذين ورثتم جميع فضائل أبيكم وكذلك مملكته، في اللحظة التي بات فيها ليس الخطر فقط ولكن الدمار الوشيك معلقاً فوق الشعب الصليبي، يطلبون أن تتولى بسلطانكم الملكي حماية أتباع المسيح، المسيح الذي سمح لكم بالوصول إلى مقام مجدكم الرفيع الحالي، وجعلكم سور دفاع ضد الذين يهاجمون اسمه بشكل شرير، فضلاً عن هذا ليكن معروفاً من قبل سموكم بأن صلاح الدين ذلك المعذب الشرير لاسم المصلوب، قد بلغ حداً خطيراً من العمل العدواني ضد صليبي الأرض المقدسة، وأنه إذا لم يضبط عدوانه، هو قد بات متطلعاً لأن يصب نهر الأردن كله في فمه»، الخ.

رفض الملك هنري مملكة القدس

وبعدما تسلم ملك انكلترا هذه الرسالة دعا إلى الاجتماع رجال الدين، والناس، والنبلاء التابعين لمملكته، وكان ذلك في الثامن عشر من آذار في كليركنول Clerkenwell في لندن، وفي أثناء اجتماع الملك بالبطريك مع مقدم الاستبائية حث بشكل مهيب جميع أفراد رعيته المخلصين، أن يعلنوا عن الذي يرونه مفيداً لخلاص روحه بشأن الموضوع المعروف أمامهم، مضيفاً أنه مصمم بشدة في عقله الأخذ بالنصيحة التي سوف يقدمونها، وتولى المجلس كله فحص الذي سمعوه، فرأى أنه من الأسلم والأفضل لخلاص روح الملك هو حكمه لمملكته كلها باعتدال صحيح، والدفاع عنها ضد غارات البرابرة، وهذا خير من أن يتولى بشخصه الاشراف على مصالح شعب الشرق، لكنهم لم يتوصلوا إلى أي قرار، فيما يتعلق بأولاد الملك، الذين كانوا غيباً، والذين طالب بطريك القدس بارسال واحد منهم إلى القدس، إذا مارفض الملك الذهاب شخصياً.

ورسم في هذا العام نفسه جون ابن الملك فارساً بنطاق، وذلك من قبل أبيه في وندسور، في اليوم الأخير من آذار، وبعد ذلك عبر الملك إلى إيرلندا، ثم إن الملك عبر مع البطريك إلى نورماندي، واحتفل بعيد الفصح في روان، ولدى سماع ملك فرنسا بوصول ملك انكلترا، جاء مسرعاً تماماً إلى فودرويل Vaudreuil حيث أمضى الملكان ثلاثة أيام من المحادثات العادية، وحمل كثير من النبلاء الصليب بحضورهما، لكن الملكين نفسيهما وعدا بأنها سوف يرسلان مساعدة سريعة إلى الأرض المقدسة، لأنها اعتقدا أنها سوف لن تكون مسألة سهلة القيام بمثل هذه المغامرة المهمة من أقصى حدود الغرب، وخابت آمال البطريك بالنسبة لهدفه، وحبطت آماله، فعاد إلى بلاده.

وفي العام نفسه، قتل هيوج دي لاسي، الذي كان صاحب مقاطعة

اسمها ميديا) ميث Meath في ايرلندا) في الخامس والعشرين من تموز، ومات في الوقت نفسه ايرل أوف هنتنغدون من دون أولاد، فأعطى الملك الايرلية مع متعلقاتها إلى وليم ملك اسكوتلندا، وأيضاً جرت سيامة غيلبرت دي غلانفيل رئيس شامسة ليوكس Lisieux أسقفاً لروكستر في التاسع والعشرين من ايلول، وعاد هنري دوق سكسوني— ياذن من الامبراطور— إلى وطنه، وأقنع نفسه وأرضها بميراثه الأبوي الخاص.

بلدوين رئيس أساقفة كانتربري يتسلم الطيلسان والسلطات الشرعية

عام ١١٨٦م، فيه تلقى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان مع التفويض الشرعي، والسلطة على المقاطعة التي يحكمها، وكذلك جرت سيامة وليم دي فير Vere أسقفاً لهيرفورد، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد القديس لورانس، ومات في العام نفسه غيوفري كونت بريتاني، وابن ملك انكلترا في التاسع عشر من آب، وقد دفن في باريس في كنيسة نوتردام في سدة الرهبان النظاميين، وقد خلف ابنتين من زوجته كونستانسي ابنة كولون الذي كان من قبل كونت بريتاني، وقد ولدت بعد وفاته ولداً أعطي اسم آرثر، وفي العام نفسه، تمت سيامة هيجو أوف بيرغندي، رئيس رهبان طائفة الكارثوسيين Carthusian في انكلترا، أسقفاً للنكولن، وكان ذلك في يوم عيد القديس متي، وفي اليوم نفسه جرت أيضاً سيامة وليم دي نورهيل Norhale أسقفاً لووركستر Worcester، ومات البابا لوسيوس، وخلفه أوربان، وتمت سيامة جون قائد جوقة المرتلين في اكستير أسقفاً لتلك الكنيسة.

البابا أوربان يمنح إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إذناً لبناء
كنيسة في أكنغتون

وفي تلك الآونة، كتب البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتبري كما يلي: «نحن نعلمكم بوساطة هذه التقديرات، بأنكم تمتلكون الإذن ببناء كنيسة على شرف الشهيدين المباركين: اسطفان، وتوماس، وبتزويدها بأشخاص مناسبين ليكونوا مرتبطين بها، وعليك أن تعين لهم جميع ما يحتاجون إليه للحفاظ عليها، وذلك وفقاً للكيفية التي سوف تعينهم بها، كما أن جميع التقدمات التي تعمل عند آثار القديس توماس الشهيد، تكرر ربع ذلك لاستخدامات الرهبان، وربع من أجل أعمال الكنيسة، وربع للفقراء، والربع المتبقي للاستخدامات التي تراها مناسبة.

تتويج سيببلا ملكة على القدس

ومات في تلك الآونة، بلدوين الملك الطفل للقدس، ولم يكن هناك من يخلفه إلى العرش سوى سيببلا، زوجة غي كونت يافا، وأخت الملك المجذوم، وأم الملك الطفل، الذي توفي آنذاك، وبما أن الهدنة بين صلاح الدين وبين الصليبيين كانت على وشك الانتهاء، باتت حماية المملكة في حالة حرجة، وأنها سوف تتحطم بعد وقت قصير، لأنها ماعدت تحتل التأخير، وبناء عليه عقد اجتماع للنبل، وتم الاتفاق على وجوب تتويج سيببلا زوجة غي ملكة، لأنها وريثة المملكة، وجرى رفض غي على أساس أنه غير أهل للحكومة، ورفضت سيببلا الملك على أساس هذه الشروط، حتى يوافق النبلاء على منحها حق اختيار الرجل الذي سوف يكون زوجها، وأقسموا على إطاعته كملك، وطلب منها غي عدم اهمال العناية بالمملكة من أجله، وهكذا جرى بعد عدة أيام من التأخير قبول سيببلا ورضوخها وهي تبكي، وتوجت ملكة بشكل مهيب، وتلقت الولاء من جميع الناس، في حين جرى تجريد غي في اللحظة نفسها من زوجته ومن تاجه، وعاد إلى قومه، وانتشر في الوقت نفسه تقرير، مالبث أن تأكد بوساطة الحقائق، عن اقتراب عدوان صلاح الدين، وبناء عليه

استدعت الملكة رجال اللاهوت لديها مع نبلائها المدنيين، وتباحث معهم حول اختيار ملك، وكما حدث من قبل أن سمحوا لها جميعاً باختيار من ترغب به، وتطلعوا بقلق إلى الاختيار الذي سوف تعمله، فقالت لغبي الذي كان واقفاً بين الآخرين: «مولاي غبي، لقد اخترتك لتكون زوجاً لي، وأعطيتك نفسي ومملكتي، ولأن تكون الملك المستقبلي»، واعتزت الدهشة الجميع بسماع كلامها، وعجبوا كيف أن امرأة بمثل هذه البساطة، قد خدعت مثل هذا العدد الكبير من المستشارين العقلاء، وفي الحقيقة جاء تصرفها جديراً بالثناء الكبير، بسبب كل من عدالته وحكمته، لأنها أبقت التاج لزوجها، وأبقت زوجها لنفسها.

وحدث في تلك الآونة زلزال مخيف، حتى انكثرتا التي نادراً ما شهدت مثل هذه الأشياء، قد هدمت فيها عدة بيوت، وحدث أيضاً أن أم صلاح الدين، كانت على طريق عودتها من مصر إلى دمشق مع حاشية كبيرة وفخمة، وقد عبرت من خلال الأراضي الصليبية الواقعة على الطرف الآخر من نهر الأردن، وكانت واثقة بالهدنة، ولكن أرنات (رينودي شاتليون) هاجم الجماعة واستولى على كل ما هو ثمين كان معهم، وتمكنت أم صلاح الدين من النجاة بالفرار، وغضب صلاح الدين لما حدث، وطالب بإعادة المنهوبات، وبترضيته، وفقاً لشروط معاهدة الهدنة، ولدى مطالبة أرنات برد المنهوبات، ردّ بقسوة وبجواب مهين، وبناء على ذلك ابتهج صلاح الدين إلى أبعد الحدود لأن الصليبيين كانوا أول من خرق المعاهدة، وأعدّ نفسه للحرب وللانتقام، [وفي العشرين من كانون الثاني حمل ملك فرنسا وانكثرتا الصليب].

صلاح الدين يشعث الأرض المقدسة

عام ١١٨٧م، فيه حشد صلاح الدين وهو يتحرق غضباً ضد الصليبيين: الفرثيين، والبداءة، والترك، والمسلمين، والعرب، والميديين،

والأكراد، وشعث جميع الأرض المقدسة، ولم يقتنع باحتلال بعض الحصون الصغيرة في الجليل، بل أعد نفسه لحصار جبل الجمجمة (أكرا)، وزحف إلى هناك مع مختلف أنواع الآلات الحربية، وتمكن وهو على طريقه من انزال الهزيمة بكتلة كبيرة من الصليبيين، وقتل المقدم الأعلى للداوية مع ستين من فرسان الداوية، وتحمس بهذا النجاح، فتابع العمل ومتابعة الحصار، ولدى سماع ملك القدس بأن المدينة [مدينة طبرية] قد حوصرت، والسكان قد ضغط عليهم بشدة، أعلن النفير العام وبوساطته حشد جميع قوات مملكته، ولم يترك أحداً إلا العاجزين عن القتال، بسبب عمرهم أو جنسهم، وقد أبقاهم للدفاع عن الحصون، وكان موضع الاحتشاد هو نبع الصفورية، وعندما زحفوا من هناك، وصل تعدادهم إلى عشرين ألف مقاتل، وجرى تعيين ريموند كونت طرابلس قائداً أعلى لهم، وانطلقوا نحو طبرية، وعندما حل يوم المعركة الحاسمة رأى حاجب الملك في منامه، بأن نيراً قد طار فوق معسكر الصليبيين، وهو حامل في خالبه سبعة أسهم، ويصرخ عالياً: « الويل لك يا قدس، الويل لك يا قدس»، وفي ترجمة لهذا الحلم وشرح له، يكفي أن نتذكر كلمات الروح القدس التي تفوهت بها على لسان النبي في قوله: « فوق الرب قوسه، وفيه أعدّ وريد الموت».

صلاح الدين يستولي على مدينة القدس ويأسر الملك شخصياً

ولدى سماع صلاح الدين باقتراب الملك لرفع الحصار، زحف بشجاعة لمواجهة الصليبيين، مدركاً بأنهم قد أنهكوا بضيق الطريق وقسوة الصخور، وليس بعيداً عن طبرية، وفي مكان اسمه حطين، انقض على جيش الملك وهو واثق من النجاح، وقد تلقاهم الصليبيون بشجاعة وذلك بقدر ماسمحت لهم طبيعة الأرض، واشتد القتال، وحمي الوطيس، وسقطت أعداد من على الجانبين، إنما أخيراً، وبسبب آثام الصليبيين، انتصر الأعداء لأنهم - كما يقولون - أنزل كونت

طرابلس — الذي كان يقود الجيش — علمه بشكل خياني، وجعل جنوده يفكرون بالفرار، علماً بأنه لم يكن أمامهم سبيل للفرار، إلا من خلال الأعداء، ووقع الملك غي بالأسر، وتم الاستيلاء على الصليب المقدس، وتعرض الجيش كله إما للقتل بالسيف، أو للأسر من قبل الأعداء، وذلك باستثناء كونت طرابلس، الذي من المعتقد أنه خانهم، ونجا أيضاً اللورد رينالد حاكم صيدا، واللورد بالين مع عدد ضئيل من فرسان الداوية، وكان القتال في هذه المعركة المأساوية، في يومي الثالث والرابع من تموز، في الأيام الثمانية للقديسين: بولص، وبطرس، ونجا مقدم الداوية من هذه المأساة، إنما مع خسارة مائتين وثلاثين من رهبانه الفرسان، وكانت نجاة كونت طرابلس دون الاصابة بجراح برهاناً للافتراض بأنه خان الجيش، وتمكن العدو من قهر الصليب المقدس، مع أسقف عكا، ورئيس جوقة المرتلين في ضريح ربنا، أما الأسقف فقد قتل، وأما رئيس الجوقة فقد وقع بالأسر، ومثله حدث للصليب المقدس، وهو الذي كان من قبل قد جرى تحريره من قبل من نير الأسر، قد اتخذ الآن أسيراً بسبب ذنوبنا، وبذلك تدنس بأيدي غير المسيحيين.

كيف جرى اخضاع المدينة المقدسة وتقريباً جميع المملكة لصلاح الدين

وبعد حصول صلاح الدين على هذا النصر، رجع إلى طبرية، وبعدها استولى على القلعة التي كانت قد بقيت مستعصية عليه، أرسل الملك وأسراه إلى دمشق، ثم إنه دخل إلى الجليل، فلم يجد أحداً يعترض سبيله، فاستولى عليها من دون سفك للدماء، وتابع من هناك زحفه إلى القدس، ونصب آلات رمية في جميع الجهات من حول الأسوار، وأقام سكان المدينة من الدفاعات الذي استطاعوا اقامته، لكن قسيهم، وقسيهم الزيارة وآلات رميهم للحجارة قد تكدست من دون فائدة،

وتجمع الناس وهم مرعوبين حول البطريك وحول الملكة، التي كانت تحكم المدينة في ذلك الوقت، وطالبوا الدخول بمباحثات مع صلاح الدين من أجل تسليم المدينة، وتلا ذلك عملية استسلام تستحق البكاء ولا تستاهل الوصف، وقضت الشروط أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينار واحد، لكن كان في المدينة أربعة عشر ألفاً من الجنسين كانوا غير قادرين على دفع هذه الفدية، وبذلك نزلوا إلى درجة العبودية الدائمة، وبذلك استسلمت مدينة القدس إلى أعداء المسيح، وسقط الضريح في أيدي الذين كانوا يعذبونه، وهو المكان الذي دفن فيه، وصار الذين يدينسون المصلوب متملكين لصليبه، ودخل صلاح الدين إلى المدينة مع أصوات الطبول والأبواق، وبادر مسرعاً إلى الهيكل، فأزال الصليب الذي كان مبنيًا هناك، وجميع الأشياء التي نظر الصليبيين إليها نظرة احترام، ثم إنه أمر بغسل الهيكل بماء الورد من الداخل ومن الخارج، وإعلان النداءات المتعلقة بدينه في زواياه الأربع، وتركت كنيسة القيامة مع ضريح ربنا في أيدي بعض السريان مقابل دفع جزية مقررة، ثم تابع صلاح الدين زحفه واستولى على بقية المدن والبلدات، باستثناء عسقلان، وصور، والكرك، الواقعة فيما وراء الأردن، والتي تعرف باسم آخر هو مونتريال (كذا ومونتريال هي الشوبك).

البابا يمنع بناء كنيسة أكنغتون

وكتب في هذه السنة البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتبري بالصيغة التالية: «إلى أولادنا الأعمام، ورؤيس الرهبان ورهبان كنيستك، لقد أرسلتم لنا رسائل حول موضوع الكنيسة التي شرعتم بعمارته، ذاكرين أنه مالم يتم التوقف عن متابعة العمل فإن سمعة وأوضاع كنيستهم سوف تتضرر كثيراً، وبناء عليه رغبة منا وحرصاً بأن لا ينشب خلاف بينكم وبين إخوانكم، وبما أنكم لن تستطيعوا القيام بشكل

صحيح بأداء واجباتكم المقدسة عندما ينشب خلاف بينكم أنفسكم، وبناء على نصيحة إخواننا، نحذر، ونأمر بدقة إخوتكم، أنه حتى نقرر انطلاقاً من أسباب معروفة من قبلنا، الذي ينبغي عمله بشأن هذه المسألة، أن تضعوا جانباً جميع مناسبات الالتماسات، وتوقفوا عن أعمال بناء تلك الكنيسة، حتى يجري منحكم رسائل من الكرسي الرسولي، بعدم معارضة ذلك».

ومات في العام نفسه البابا أوربان، وقد خلفه غريغوري، وأيضاً بعدما شغل هذا الكرسي لمدة شهرين مات، فجرى تعيين كليمنت الثالث في العشرين من كانون الأول، وفي هذا العام أيضاً دفع غيلبرت، أسقف لندن، دين الطبيعة، وسمع في العام نفسه رتشارد، كونت أوف بواتو، بأنباء الكارثة في الأرض المقدسة، والاستيلاء على الصليب، فقام على الرغم من نصيحة أبيه وارادته بحمل شارة الصليب، فكان بذلك أول نبلاء ماوراء البحر بفعل ذلك، وقد تلقى هذه الشارة من يدي رئيس أساقفة تور.

كيف حمل كثيرون الصليب بناء على التبشير بالحملة الصليبية

عام ١١٨٨م، فيه حمل فردريك امبراطور الرومان شارة الصليب، بناء على تبشير هنري أسقف ألبا Alba ، الذي كان نائباً للكرسي الرسولي، والذي كان قد أرسل من قبل البابا كليمنت، وفي الوقت نفسه توجه كل من فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا للاجتماع في مؤتمر في نورماندي بين تراي Trie وغيسور، وذلك من أجل تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، وقد قاما بعد كثير من المداوات بالاتفاق، أمام فيليب كونت أوف فلاندرز وبحضوره، بشكل متبادل ومتضامن، على حمل شارة الصليب والاسراع برحلتيهما معا إلى القدس، وبناء عليه، كان ملك الانكليز أول من حمل شارة الصليب من يدي رئيس أساقفة الرايمز، ووليم الصوري، ووليم هذا كان البابا قد عهد

إليه بوظيفة النائب البابوي للمسائل الصليبية في غربي أوروبا، وبعد هذا أخذ أيضاً ملك فرنسا وفيليب كونت فلاندرز الصليب، وكان المثل الذي أظهره هكذا وضربوه قوياً وفعالاً، لذلك تناول الصليب في مملكتي وممتلكات الملكين المتقدمي الذكر بحماس، كل من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والدوقات، والمراكيز، والكونتات، والبارونات، والعساكر، والناس من الطبقتين الوسطى والدنيا سواء، وتم الاتفاق بين الأمراء على أن يرتدي جميع الفرنسيين صلباناً من اللون الأحمر، والانكليز من اللون الأبيض، وأتباع كونت فلاندرز صلباناً من اللون الأخضر، أما بالنسبة لممتلكاتهم، فقد تم الاتفاق على أنه حتى انجاز حجهم، وبعد إمضاء كل واحد منهم أربعين يوماً في بلاده، فإن جميع الأشياء سوف تبقى كما كانت قبل حملهم للصليب.

كيف نأت عواطف رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه

في هذه الآونة، قتل غيوفري أوف ليزنيك Liziniac بشكل خياني واحداً من أصدقاء رتشارد كونت أوف بواتو، وثار الكونت من أجل الانتقام لهذه الجريمة، ولجأ إلى السلاح، لكنه تذكر شارة الصليب التي حملها، فوفر حياة الذين كانوا راغبين بحمل شارة الصليب من أتباع غيوفري، أما البقية فقد قتلهم، وأخضع عدة قلاع، وكان غيوفري يعتمد على الأموال والمساعدات - التي قيل - بأن ملك انكلترا كان يرسلها له، ولذلك قام بمقاومة الكونت رتشارد، إنما مع قليل من النجاح، وأبعدت هذه الظروف عقل الكونت عن أبيه، وبعد إخضاع غيوفري، كان الكونت قد أصيب بجراحة على يدي كونت طولوز، ولذلك غزا أراضي هذا النبيل، وأخضع في وقت قصير سبع عشرة قلعة، وغضب ملك فرنسا لمهاجمة رتشارد لأراضي كونت طولوز من دون معرفته، فقام بشكل سري بمهاجمة قلعة رالف، وأرغم جميع الذين كانوا هناك على تقديم ولائهم له، وبدا هذا مخللاً كثيراً بالشرف من

جانب مثل هذا الأمير العظيم، خاصة وأن ملك انكلترا عندما كان على وشك العبور إلى انكلترا، قد عهد بالعناية بأراضيه إلى الملك الفرنسي، وحقق بعد هذا الملك الفرنسي صداقة بعض الممتلكين للقلاع التي كانت خاضعة لملك انكلترا، وكان ذلك بعضه بالوعد، وبعضه الآخر بالوعيد، وهكذا ياغواء من الشيطان، نشبت الخلافات بين الملكين، اللذان قاما بعد حملهما للصليب بانزال جراحات متبادلة، كل على الجانب الآخر، وغزا أخيراً الملك الانكليزي المملكة الفرنسية، وأحرق كامل المنطقة الممتدة من فيرنويل Verneuil إلى ميودان Meudan، ومات في هذا العام رتشارد أسقف وينكستر في الثاني والعشرين من كانون الأول، ودفن في وينكستر.

رسالة فردريك الامبراطور الروماني إلى صلاح الدين

وكتب في هذا العام الامبراطور الروماني فردريك إلى صلاح الدين، فيما يتعلق بالأرض المقدسة، الرسالة التالية:

«[نحن] فردريك، بنعمة الرب امبراطور الرومان، المهيب الدائم، والمنتصر المجيد على أعداء الامبراطورية] والحاكم السعيد للمملكة كلها، إلى صلاح الدين اللامع، وحاكم المسلمين، عليه يتعظ بفرعون، ولا يلمس القدس.

لقد تسلمنا الرسائل التي أرسلتها حضرتكم إلينا منذ وقت طويل مضى، حول مسائل ثقيلة وهامة، كان من الممكن أن تستفيد منها، لو أمكن الاعتماد على كلامك، الذي بات واضحاً لجلالتنا، وكنا على نية الاجابة على اتصالاتكم برسالة تليق بعظمتكم، لكن بما أنك الآن دنست الأرض المقدسة، التي هي خاضعة لحكمنا بموجب التحويل من الملك السرمدي، وبحكم كوني الوصي على اليهودية، والسامرة وفلسطين، فإن هذا يدفع مقامنا الامبراطوري للمبادرة بالزحف ضد

أعمال الاغتصاب المجرمة والشريرة بكل سرعة وفعالية، وبناء عليه، إنك مالم تقم قبل كل شيء، بإعادة الأرض التي استوليت عليها، وبإعطاء تعويضات مرضيه، تتوافق مع القوانين المقدسة، من أجل هذه التجاوزات العدوانية، ولكي لانظهر بإثارة حرب غير شرعية، فإننا نعطيك مهلة من الأول من تشرين الثاني، مقدارها اثني عشر شهراً، وإنك بعدها سوف تجرب حظ الحرب، في ميدان صوعن، وذلك بفضل الصليب المانح للحياة، وباسم يوسف الحقيقي، لأننا لايمكن أن نصدق إلا بصعوبة بالغة أنك جاهل بما تحدثت عنه الكتابات الماضية والقديمة وشهدت عليه، فهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن كل من الأحباش، والموريتانيين، والفرس، والسكيزيين، والفرثيين كانت بلادهم هي التي لاقى فيها قائدنا ماركوس كراسيوس موتاً قبل أوامه، وأن اليهودية والسامرة والعربية، والجزيرة، والعراق، ومصر هي] من المخجل القول أن مواطناً رومانياً هو أنطونيوس، الرجل الذي تمتع بفضيلة واحدة، لأنه تجاوز حدود ضبط النفس، وعمل ضد ماكان ينبغي عمله بحكم كونه جندياً أرسل من قبل دولة عظيمة، قد أخضعها لحبه غير الطاهر لكليوبترا، وهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن] أرمينيا مع بلدان أخرى لاتحصى هي خاضعة لسلطاننا؟ فهذا أمر معروف بشكل جيد بالنسبة إلى أولئك الملوك الذين غالباً ماتلطح السيف الروماني بدمائهم، وأنت شئت أم أبيت سوف تعلم بالتجربة قدرة نسورنا المنتصرة، وستصبح عارفاً بعساكرنا المكونة من عدد كبير من الشعوب منها: الغاضيين الألمان، والشرسين من الراين، والشباب من ضفاف الدانوب، الذين لايعرفون كيف يفرون، والبافاريين أهل الأبراج، والسوابيين البارعين، والفرنجة الحذرين، وأهل سكسوني الذين رياضتهم هي استخدام السيف، والتورنجيين، والوستفاليين، والبربانتيين النشطين، واللوريين الذين غير معتادين على السلام، والبيرغنديين الحادين، وسكان جبال الألب الرشيقين، والفريزونيين مع

خناجرهم وأسواطهم، والبوهيميين الجاهزين دوماً لموت شجاع، والبولونيين الأشجع من أشجع الحيوانات المفترسة، وأهالي: النمسا، وستيريا، وروانيا، واستيريا، وروكمفيا، وإيريا، ولومبارديا، وتوسكانيا، وتخوم أنكونا، والبنادقة أصحاب الإدارة، والبيازنة البحارة، وأخيراً، من المؤكد أنك سوف تتعلم كيف أن يميننا— التي تفترض أنها ضعفت بسبب تقدم السن— ما تزال قادرة على استخدام السيف، في ذلك اليوم، الذي هو يوم الاحترام والسرور، الذي تقرر من أجل نصر قضية المسيح».

جواب صلاح الدين إلى الامبراطور فردريك

« إلى الملك الكبير، والصديق المخلص، فردريك اللامع ملك ألمانيا: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الواحد الأحد، القادر، والقاهر، والباقي، الذي ليس ملكه من نهاية.

نحمده دوماً، الذي نعمته على العالم كله، وندعوه لينزل شآبيب رحمته على جميع أنبيائه، وخاصة على معلمنا، رسوله النبي محمد ﷺ، الذي أرسله بالدين الصحيح الذي سيظهره على الدين كله، ونود أن نعلم الملك المخلص والقوي، الذي هو صديقنا اللطيف، ملك ألمانيا، أنه قد وصل إلينا رجل اسمه هنري، ادعى أنه رسولكم، وأعطى إلينا رسالة، قال بأنها من يدكم، ولقد أمرنا بقراءة الرسالة، وسمعنا منه كلاماً تفوه به، والكلام الذي تفوه به جاوبناه أيضاً بكلام، وإليكم الآن جواب رسالتكم: لقد عددتم الذين تحالفوا معكم للقدوم ضدنا، وسميتهم، وذكرت اسم هذه البلاد، واسم تلك البلاد، وهذا الكونت، وذلك الكونت، وبينت وجود كذا من رؤساء الأساقفة، والمركيزات، والفرسان، وإذا مارغبنا أن نعدد الذين هم في خدمتنا، والذين يستجيبون لأوامرنا، والذين يطيعون كلامنا، والذين سيقاتلون من أجلنا، لطالت القائمة حتى لا يمكن وضعها كتابة، وإذا ما أحصيت

عدد أسماء المسيحيين، فإن عدد المسلمين أكبر من عددهم، لابل هم ضعف أضعاف المسيحيين، وإذا كان البحر يقوم بيننا وبين الذين سميتهم مسيحيين، ليس هناك من بحر يفصل بين المسلمين، الذي لا يمكن تعدادهم، وبيننا وبين الذين سيقدمون لعوننا ليس هناك من عوائق، ويوجد لدينا البداية، البداية، الذين سيكون بهم وحدهم كفاية لمواجهة أعدائنا، والتركان، الذين يمكنهم من دون مساعدة تدميركم، حتى فلاحينا، إذا ما أمرناهم، فإنهم سوف يقاتلون بشجاعة ضد الشعوب التي ستأتي لغزو بلادنا، وسوف تسلبهم ثرواتهم، وتفنيهم، أوليس لدينا في جانبنا العساكر الذين يجبون القتال، والذين بوساطتهم فتحنا البلاد وحصلنا عليها، وأخرجنا أعداءنا وطردهم؟ وهؤلاء جميعا وكل الملوك المسلمين لن يتأخروا عندما نحشدكم، ولن يتقاعسوا عندما نستدعيهم، وعندما سيتم حشد عساكرك، كما ذكرت في رسالتك، ولدى قيامك بقيادتهم، كما أخبرنا رسولك، فإننا سوف نواجههم بقدره الله، كما أننا لن نكتفي بالأراضي القائمة على شاطئ البحر، بل سوف نعبر نحوكم - بمشيئة الله - ونأخذ منكم أراضيكم، بعون الله وقدرته، لأنك إن كنت ستقدم، سوف تقدم مع جميع قواتك، ونحن نعلم أنه لن يبقى في وطنك أحد للدفاع عن أنفسهم أو للقتال من أجل بلادهم، وعندما سيعطينا الله بقدرته النصر عليكم، لن يبقى لنا من عمل نقوم به سوى الاستيلاء على أراضيكم، بقدرته تعالى، ومشيئته، لأن المسيحيين المتحدين قد جاؤوا مرتين ضدنا في مصر، مرة إلى دمياط، وثانية إلى الاسكندرية، [وكان هناك أيضاً في ساحل بلاد القدس أراض بيد المسيحيين، وفي بلاد دمشق، وفي بلاد المسلمين، وكان في كل حصن صاحب له عرف مصالحة]، وأنت تعرف كيف أن المسيحيين قد عادوا في كل مرة، وإلى أية نتائج قد وصلوا، هذا ويحتشد قومنا ويجتمعون مع بعضهم في بلادهم، وقد زود الله بلادنا بالوفرة، ووحدها بالطول والعرض تحت سلطاننا، فبلاد مصر مع متعلقاتها

وبلاد دمشق، وساحل القدس، وأرض قيسارية مع قلاعها، وبلاد
الرحبة مع متعلقاتها، وبلاد الهند مع متعلقاتها، هي بنعمة الله في أيدينا،
وبقية ملوك المسلمين هم في سلطنتنا، لأننا إذا ما أردنا أن نأمر الملوك
اللامعين للمسلمين فإنهم لن يتخلوا عنا، وإذا ما حثنا خليفة بغداد [حفظه الله] للقدوم إلى عوننا، فلسوف ينهض عن سرير دولته العظمى
ويقدم لمساعدة سعادتنا، يضاف إلى هذا، نحن تملكنا بفضل عون الله
القدس وأراضيها، والمتبقي هناك هو ثلاثة مدن بأيدي المسيحيين هي:
صور، وطرابلس، وأنطاكية، والذي بقي علينا هو وجوب احتلالهم
أيضاً، وإذا كنت تريد الحرب، وإذا كان الله قد أراد لنا أن نحتل جميع
بلاد المسيحيين، فإننا سوف نلتاقك بمشيئة الله، كما قد كتب في رسالتنا،
ولكن إذا كنت تطلب منا سلاماً حقيقياً، فما عليك إلا أن تأمر أصحاب
هذه الأماكن المذكورة أعلاه، بتسليمها لنا من دون مقاومة، ونحن
بالمقابل سوف نعيد إليكم صليب الصلبوت، وجميع الأسرى المسيحيين
في بلادنا كلها، وسوف نكون بسلام معكم، ولسوف نسمح لكم
بوجود كاهن واحد في الضريح، ولسوف نعيد الدير التي كانت
موجودة في أيام المسلمين، وسنحسن إليهم، وسنسمح للحجاج
بالوصول خلال حياتنا، وسنكون في حالة سلم معكم، وإذا كانت
الرسالة، التي وصلت إلينا على يدي هنري، هي رسالة الملك، فقد كتبنا
هذه الرسالة جواباً لها، وكتبت هذه الرسالة في سنة ٥٨٤ لهجرة نبينا
محمد ﷺ بفضل الله الواحد [وحفظ الله نبينا محمد ﷺ وأمته، وحفظ
الله حياة وسلامة مخلصنا، مولانا اللامع، والملك المنتصر، ومعطي
الوحدة، والكلمة الصادقة، والحامل للواء الصدق والتمسك به، مقوم
العالم والشريعة، سلطان الاسلام والمسلمين، خادم الحرمين الشريفين،
والحرم القدسي الشريف، أبو المظفر الناصر يوسف بن أيوب، محيي ذرية
المروانيين].

كيف أطلق سراح غي ملك القدس من الأسر

وجرى في هذا العام اطلاق سراح غي ملك القدس، من الأسر من قبل صلاح الدين، وذلك بعدما بقي في الأسر لمدة عام، وجاء اطلاق سراحه على شرط خلع نفسه عن ملكه، والذهاب فوراً إلى المنفى فيما وراء البحار، غير أن رجال الدين في المملكة كانوا يرون بأن هذه الاتفاقية ينبغي أن تعد لاغية، وأن مصداقية العهد لايجوز الحفاظ عليها في الحالة التي يكون فيها الدين في خطر، ومادامت أرض الميعاد ليس فيها أمان، لأنها ليس لها رأس أو حاكم، وليس للحجاج الممكن وصولهم قائد، ولا يوجد للناس من يحميهم، وباطلاق سراح الملك، نجد أن كثيراً من الحجاج الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً، أخذوا يحتشدون مع شعب البلاد، وقد شكلوا جيشاً كبيراً، وقد رغب هؤلاء بدخول صور، لكن التركيز رفض السماح لهم، مع أن المدينة قد عهد له بها على شرط، أنها بناء على طلب الملك والورثة للمملكة، أن تعاد إليهم، وعلى كل حال إنه عند وفاة التركيز، التي كانت بعد أيام قليلة توقف هذا الاضطراب، ومات أيضاً في الوقت نفسه ريموند كونت طرابلس، الذي إليه عزيت مأساة أرض الميعاد كلها، ولهذا السبب، لم يتلق — كما قيل — الطقوس الأخيرة للمسيحية في ساعة موته.

وبعد هذه الوقائع أخذ الملك طريقه نحو عكا، وذلك مع جيشه الذي تألف من بارونات المملكة، الذين ظلوا مرتبطين به، وذلك بالإضافة إلى الداوية والاسبتارية، والبنادقة الذين وصلوا مؤخراً، وكذلك الحجاج من جنوا، وتجاوز تعداد كامل عساكره التسعة آلاف رجل، ووصل ملك القدس، إلى قرب المدينة، فأمر عساكره بتسلك جبل بين الجبال هناك، وهو جبل بسبب استدارته، ولأنه شابه البرج في قمته أطلق عليه اسم تورون Turon (تل المصلين)، وارتفع هذا الجبل بشكل شاهق على الجانب الشرقي من المدينة، وامتد على شكل دائرة

ناشرة نفسها فوق السهل، وفي اليوم الثالث لوصول الصليبيين، ألقوا الحصار على المدينة، الذي لم يخفف حتى أيام الاستيلاء عليها من قبل فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، وتحمس عامة الجند كثيراً، إلى حد أنهم لم ينتظروا وصول الملكين، بل تقاطروا واحتشدوا من جميع الجهات للخدمة في جيش الرب.

كيف تراجع صلاح الدين من عكا باضطراب

وقام ملك القدس، وهو محاط بحشوده الضخمة من الحجاج، باصدار الأوامر إلى جميع عساكره بالنزول من تورون، وقام معهم بنصب معسكره أمام المدينة، وقدم بعد عدة أيام صلاح الدين لمواجهةهم والتصدي لهم، وأقلع مع قوة قوية بالهجوم على الصليبيين، وكأنه فكر أنه سوف يقهرهم بحملة واحدة، ولكن جيش المؤمنين الذي كان متراصاً، وكان رجاله يقاتلون من أجل أرواحهم، تصدى بشجاعة لقوات صلاح الدين، وأعطى صلاح الدين أوامره بتطويقهم، مقدراً أنه لن يكون من الممكن لأي واحد منهم النجاة، لكن كان قد قضي عكس ذلك من قبل، الذي يسبب الاضطراب لخطط الأشرار، فبعد تحمل القتال لمدة ثلاثة أيام، والحملة من قبل المسلمين، الذين أوقعوا بهم من جميع الجهات، وعندما بدأوا يسقطون لأنهم أضعفوا من قبل الأعداء وحملةهم، شاهدوا اسطولاً فيه اثني عشر ألفاً من الدانيين والفريزيين مبحراً بسرعة، وقد دخل إلى الميناء، وقد وصلوا — بعون الرب — بعد رحلة موفقة وارتعب صلاح الدين لدى مشاهدته لهذا المنظر مع حوادث مشابهة، فراجع إلى الأجزاء المنخفضة من بلاده.

العائق الكبير لقضية الأرض المقدسة

وكان في هذه الأونة هناك انتكاسة كبرى بالنسبة لقضية الأرض المقدسة، وبسبب الخلافات التي نشبت مؤخراً، لابل منذ أن حملوا شارة

الصليب، وهذه الخلافات التي تفجرت بين ملك فرنسا، ورتشارد كونت بواتو من جانب، وبين هنري ملك الانكليز من الجانب الآخر، وكان النزاع بينهم على درجة كبيرة من الشدة، حيث انتزع أحدهم قلاعاً من الآخر، واقترب تجاوزات كثيرة، بالقتل والاعتصاب، وأخيراً اجتمعوا من أجل السلام في مؤتمر في نورماندي، لكن الشيطان ألقى ببذور الشقاق بينهم، ولذلك افترقوا وهم متعادين.

كيف سعى جون كاردينال أوف آناجنيا لإقامة سلام بين الملكين فيليب وهنري

عام ١١٨٩م، فيه عندما كان الملك هنري مازال مقيماً في بلاد ماوراء البحار، شعر بانزعاج كبير وبحقن كان الذي سببه له ملك فرنسا، وابنه رتشارد كونت أوف بواتو، وفي يوم الميلاد كان في سومور في أنجو، مقيماً لاحتفال الميلاد هناك، مع أن عدداً من كونتاته وباروناته قد تخلوا عنه وتحولوا إلى جانب ابنه رتشارد، وبعد عيد القديسة هيلاري خرقت المعاهدات التي كانت قائمة بين الملكين، ودخل فيليب الملك الفرنسي، والكونت رتشارد إلى مناطق ملك انكلترا، ونهبوها، وتخلّى عنه البريتانيون أيضاً، والتحقوا بالكونت رتشارد، وكان البابا كليمنت مندهشاً لأن السلم لم يعقد بين الملكين، لذلك بعث بجون كاردينال آناجنيا Anagnia، مع سلطة كاملة لإزالة الخلاف من بينهما، وحاول هذا الأسقف توصيلهما إلى الاتفاق، أحياناً بالملامة، وأحياناً أخرى بالمناقشات اللطيفة، وأخيراً أعطى الملكان موثيق وضمانات، وأقسماً بالالتزام بقرار لجنة تحكيم تألفت من رؤساء أساقفة: بورغ، وروان، وكانتربري، وأن أي واحد منهما سوف يخفق في ميثاقه، بأن يجعل السلام بينهما أقل ثباتاً، أو أنه سوف يؤخر الحملة إلى القدس، فإنه سيصدر ضد الفاعل لذلك قراراً بالحرمان الكنسي، وسيجري الاعلان عن ذلك بوساطة سلطة مولانا البابا، وسوف يعدّ مدمراً للصليب ربنا،

وللديانة المسيحية كلها، واتخذ الكاردينال على الفور موقفاً ضد جميع رجال الدين والعلمانيين، حين يقرر من منهم كان السبب في ذلك الشقاق بين الملكين، وذلك باستثناء شخصي الملكين المتقدمي الذكر.

رسالة ابن المركيز فيما يتعلق بمحنة الأرض المقدسة

« من كونراد ابن مركيز مونترفرات، إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتبري، تحيات: اضطربت أحوال الدنيا، وإنه لخطير بالنسبة للايان الكاثوليكى رؤية القدس وقد انفصلت عن الكرسي الرسولي، فقد أصبحت القدس جثة هامدة، وعجز الصليبين يتحدث عنه المسلمون بكل ازدراء، فلقد دنسوا ضريح ربنا، وهم الآن يدمرون الجمجمة، ويستخفون بموضع ميلاد المسيح، ولقد دمروا بشكل كامل ضريح مريم العذراء المباركة، وكرسي القسطنطينية لايبدي الاحترام لكرسي روما، وأنطاكية أيضاً، كما هو معروف تعيش في رمقها الأخير، وجميع هذه الأشياء قد وقعت — كما هو معروف — بسبب تقاعس المسيحيين، هذا وتستحق مدينة القدس المقدسة كثيراً من البكاء والنواح عليها، لأنها حرمت من متعبدها، وأيضاً حيث فيما مضى، أمضى المسيح ساعات النهار والليل في الصلاة، وهناك الآن اسم محمد ﷺ هو موضع الاجلال بصوت مرتفع، وبناء عليه إنني أضع أمام سموكم صلواتي ممزوجة بالدموع، بأن تتلطفوا بمواساة الام الأرض المقدسة، بتذكير الملوك، وبحث ذوي الإيوان الصحيح حتى يقوموا بطرد هؤلاء الكلاب من ميراث يسوع المسيح، وأن يقدموا المساعدة على تحريره من الأسر، وأن يخلصوا من حكم المسلمين الأرض التي مشت عليها وداستها القدمين المقدستين لمخلصنا، وبالإضافة إلى كتلة الظلم هذه والإضرار بالمسيحية، هناك صداقة مزدهرة بين صلاح الدين وامبراطور القسطنطينية، الذي إليه — كما يقال — سلم صلاح الدين جميع كنائس أرض الميعاد، وأن تمارس الطقوس المقدسة فيهم من قبل أتباعه وفقاً

للعادات الاغريقية، فضلاً عن هذا أرسل صلاح الدين أيضاً بناءً على موافقة ذلك الامبراطورد وثنة إلى القسطنطينية حتى يعبد هناك بشكل علني، لكن بفضل من الرب أسر في البحر من قبل الجنويين وجلب مع السفينة التي حملته إلى صور، وظهر أخيراً جيش جهزه الامبراطور أمام أنطاكية، وقد وعد صلاح الدين بهائة غيلون، وأعطاه صلاح الدين جميع أرض الميعاد، إذا مامنع زحف الفرنسيين لمساعدة الأرض المقدسة، وكل واحد يقدم في القسطنطينية على حمل الصليب، يلقي به في السجن، ولقد حظينا بمواساة واحدة هي أن أخا صلاح الدين وابنه أيضاً قد وقعا بالأسر أخيراً أمام أنطاكية، وقد أودعا بالاعتقال في السجن، وداعاً».

الأسباب التي اقتادت رتشارد للثورة ضد أبيه

وعقد في العام نفسه، بعد الفصح، مؤتمر بين الملكين في فيرت— برنارد Ferte- Bernard والتقيا أخيراً في أيام اسبوع أحد العنصرة، وطالب الملك الفرنسي بوجوب تزويج ابنته، أليس الموجودة تحت وصاية الملك هنري، من الكونت رتشارد، مع ضمانه لرتشارد بعرش انكلترا بعد وفاته، وكذلك أن يقوم ابنه جون بتبني الصليب والمشاركة في الحروب الصليبية، لأن رتشارد لن يذهب من دونه، ورفض ملك انكلترا الموافقة على هذه المقترحات، وافترق الملكان بغضب، وقام الكاردينال المتقدم الذكر، بالتهديد بشكل ايجابي، أنه إذا لم يعمل ملك فرنسا والكونت رتشارد سلاماً مع ملك انكلترا، فهو سيضع ممتلكاتها تحت الحرمان، فرد ملك فرنسا عليه، أنه لن يكون خائفاً من مثل هذا القرار الظالم، وكذلك ليس من صلاحية كنيسة روما اصدار قرار حرمان ضد الملك أو مملكة فرنسا، من أجل حمل السلاح في سبيل معاقبة رعايا متمردين، وأن الكاردينال قد شم رائحة الباوندات الاستيرلنية لملك انكلترا، ولذلك هو بات يشك بحكمه الذي أفسد بذلك، ومن جهة أخرى نصح رؤساء الأساقفة والنبلاء ملك انكلترا

بالموافقة على مطالب ابنه، قائلين إنه أمر صحيح اعطاء مثل هذا الولد النبيل والفارس الشجاع بعض الضمانات بشأن الحصول على المملكة بعد وفاة أبيه، لكن الملك رفض فعل ذلك، في تلك الأوضاع، خشية أن يقال بأنه فعل ذلك بالضغط وتحت الإكراه، وليس بإرادته الحرة، ولدى سماع الكونت رتشارد بهذه الاجابة، قدم الولاء للملك الفرنسي أمامهم جميعاً، عن جميع أراضي أبيه التابعة لتاج فرنسا، باستثناء إقطاعية أبيه مادام حياً، وكذلك باستثناء الولاء المستحق لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وافترق الملكان وجميع الناس.

كيف استولى ملك فرنسا على أربع قلاع من ملك انكلترا وطرده الملك نفسه من مدينة مان

وغادر ملك فرنسا المؤتمر بصحبة الكونت رتشارد، واستولى على حصون فيرت — برنارد، ومونت فورت، وبالفيركيو Baalverque، وكانت هذه الحصون تابعة لملك انكلترا، وبقي بعد الاستيلاء عليهم أربعة أيام، ثم تابع زحفه إلى مين، وتظاهر بالذهاب إلى تور، وفي يوم الاثنين التالي، عندما اعتقد ملك انكلترا ورجاله أنهم بأمان هناك، عبأ قواته للقيام بهجوم على مدينة مان Mans، وألقى ستيفن دي تورنهام، الذي كان نائب ملك انكلترا في أنجو النار في الأحواز، فتجاوزت النيران الأسوار، وحولت المدينة إلى رماد، وبناء على هذا تابع الفرنسيون زحفهم إلى جسر حجري، حيث تصدى لهم غيوفري دي بيورلون Biurlun مع عدد كبير آخر كانوا مع من أتباع ملك انكلترا، وسعى هؤلاء إلى تدمير الجسر، ونشب قتال شديد هناك، وسقط كثيرون من على الجانبين، ووقع غيوفري بالأسر بعدما تلقى جراحة في رقبته، ووقع بالأسر عدد كبير آخر وحاول البقية النجاة إلى المدينة، فدخل الفرنسيون معهم، ويثس ملك انكلترا من المقاومة، فهرب مع سبعمائة فارس، وطارده الملك الفرنسي والكونت رتشارد لمسافة ثلاثة

أميال، ولولا أن الجدول الذي خاضوه لم يكن عريضاً وعميقاً، لكان من الممكن أخذ جميع الفرسان مع حاشية ملك انكلترا أسرى، وقد هلك في هذه المعركة عدد كبير من الويلزيين، والتجأ الملك هنري على رأس فئة قليلة إلى قلعة تور، أما بقية رجاله فالتجأوا في برج مان، وحاصر ملك فرنسا على الفور، البرج، وتمكن جزئياً بوساطة مجانيقه، وجزئياً بوساطة لغاميه من السيطرة على الحصن ومن كان فيه، وكانوا يتألفون من ثلاثين فارساً، وستين رجلاً مسلحاً، فقد استسلم هؤلاء جميعاً، وزحف من هناك للاستيلاء على مونت - دبل - Mont-Double، وترو Trou، ودي روكر Rocher ومونتويري Mon-toire، وكارسير Carciere، وشاتو - دو - لوير Chateau- du-Loir، وشومنت Chaumont، وأمبواز Amboise، وروشي - كوربون Roche - corbon، وبومونت Beaumont.

الاستيلاء على اشبيلية

وعبرت في العام نفسه خلال البحار البريطانية، العديد من السفن، ودخلت باتفاق مع حجاج انكلترا، وقد غادرت دارتماوث Dart-mouth في الثامن عشر من أيار، وكان تعدادها سبعة وثلاثين مركباً، محملة بشكل كثيف، ووصلت بعد أنواع من المغامرات إلى لشبونة، وقد رأى ملك البرتغال أن هذه المراكب محملة بالأسلحة وبعساكر مسلحين بشكل جيد وجاهزين للقتال، فرجاهم تقديم العون له في الاستيلاء على مدينة اشبيلية، ووعدهم بأن يعيرهم سبعة ثلاثين غليون وكثيراً من السفن الأخرى، وعقد معهم أيضاً اتفاقية، تأكدت بالأيمان، بأنهم سوف يحتفظون بكل ماسيكدونه في تلك المدينة لدى الاستيلاء عليها من ذهب، وفضة، وأسلاب أخرى، وأن يعطوه المدينة فقط، وبناء عليه غادروا لشبونة مع رياح طيبة، وسرعان ما وصلوا إلى ميناء اشبيلية، حيث أوصلوا سفنهم إلى الشاطئ، ونصبوا معسكرهم، وألقوا الحصار

على الفور على المدينة، وكان عدد رجالهم القادرين على القتال ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقاموا في اليوم الثالث بهجوم حاد وعنيف على الأسوار، وشقوا طريقهم بالقوة خلال الأرباض، حيث كان هناك نبع محاط بنبع مزدوج، وله سواتر دفاعية مكونة من تسعة أبراج، ومنه كان أهل المدينة يحصلون على الماء، وقد طموا النبع بالروث والحجارة، وارتعب سكان المدينة لانقطاع مواردهم من الماء، فذهب السيد أمير المدينة إلى ملك البرتغال، فسلم المدينة إليه من دون معرفة الصليبيين، وهكذا استولى الصليبيون على المدينة بهذه الصورة الرائعة، ووجدوا فيها ستين ألفاً من الناس جعلوهم كلهم طعمة لل سيف باستثناء ثلاثة عشر ألفاً من الجنسين، وبرحمة من الرب جاء الحصول على هذا النصر من دون خسائر بين صفوف الصليبيين، وبعدما نظفت المدينة من الجيف المهترئة، كرس ملك البرتغال المسجد الكبير ليكون كنيسة على شرف أم الرب، وعين أسقفاً لها، كان واحداً من الحجاج الذين جاءوا إلى هناك من فلاندرز.

كيف أرغم الملك هنري على عمل سلم مع ابنه رتشارد

وقدم في العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس بطرس، والقديس بولص، إلى سومور: وليم رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت فلاندرز، وهيوغ دوق بيرغندي، من أجل السعي لصنع سلام بين الملك الفرنسي وبين الكونت رتشارد، كونت بواتو، وكان الكونت قد ضم البريتانيين إلى رجال بواتو، وقد حصلوا على رسائل موثقة من ملك فرنسا، تعهد فيها أنه لن يعمل سلاماً مع الملك هنري من دون شمولهم بالمعاهدة، وألقى في الوقت نفسه ملك فرنسا، ورتشارد كونت بواتو الحصار على تور، وفي يوم الاثنين التالي للعيد المتقدم ذكره، وضعوا سلاماً للتسلق على أسوار جانب اللوار Loire ، الذي كان فيه القليل من الماء، واستولوا على المدينة مع حمايتها التي تألفت من تسعة

وستين فارساً، ومائة رجل مسلحين، ثم أرغموا ملك انكلترا على ابرام سلم مهين، وفق الشروط والعبارة التالية: « وضع ملك انكلترا نفسه تحت اشراف ملك فرنسا، وبالتالي كل ما يراه الأخير مناسباً ليفعل، يفعلهُ ملك انكلترا من دون مخالفة»، ثم قدم ملك انكلترا الولاء إلى ملك فرنسا، مثلما كان قد فعل من قبل في بداية الحرب، وكان بين الشروط وضع أليس أخت ملك فرنسا تحت عهدة الكونت رتشارد حتى عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وعند ذلك سوف تصبح زوجته، واشترط أيضاً وجوب تلقي الكونت رتشارد الولاء من رعية أبيه على طرفي البحر، وأن مامن واحد من البارونات أو الفرسان، الذين ارتبطوا خلال هذه الحرب بالكونت رتشارد، يجوز أن يعود إلى انكلترا، إلا في الشهر الأخير، قبل مغادرة الملك نحو الأرض المقدسة، حيث سيكون موعد ذلك في منتصف الصوم الكبير، فضلاً عن هذا عليه أن يدفع إلى ملك فرنسا عشرين ألف مارك من الفضة من أجل خدماته في مساعدة كونت رتشارد، وأن ملك فرنسا والكونت رتشارد سوف يحتفظان بمدن: مان، وتور مع شاتو— دو— لوار، وترو، حتى يتم الوفاء بالشروط المتقدم ذكرها، وبعملية الانتقال هذه بدا أن نبوءة ميرلين قد تحققت، بأن لجاماً جرى صنعه في شواطئ آرموريكا سوف يوضع بين فكيه، لأن لجاماً قد وضع بين فكي ملك انكلترا، لأن الممالك التي كان سلفه قد حصلوا عليها في أوفرين، أصبحت ممتلكات واحد آخر، لأنه أرغم الآن على التخلي لابنه رتشارد— شاء أم أبي— عن أولئك الذين هجروه، أي: غيوفري دي ميدون، وغبي دوفال، ورالف دي فولتشر، وكانوا جميعاً يسكنون داخل سواحل آرموريكا، أي بريتاني، التي هناك من خلالها يمر أمن بين بريطانيا وفرنسا، من دون اللجوء إلى سواحل نورماندي.

حول مغادرة امبراطور الرومان إلى الحج

في هذه الآونة، وفي يوم عيد القديس جرجس، انطلق فرديريك، امبراطور الرومان ليقوم بحجه، وجاء، انطلاقه من ريمبورغ Re-mesburg، وقد عزم على الزحف خلال هنغاريا وبلغاريا.

موت الملك هنري

وعاد الملك هنري من شينون، من المؤتمر وهو محبط تماماً، وقد لعن اليوم الذي ولد فيه، وبعد مضي ثلاثة أيام لم يعد موجوداً، فقد توفي في ثمانية عيد الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عاماً وسبعة أشهر وخمسة أيام، وأعدوه في اليوم التالي لحمله للدفن، وعرضوه في ملابسه الملكية، وتاجه، وقفازيه، وحذائه، وخاتمه، وصولجانه، وسيفه، وعندما كان ممدداً ووجهه غير مغطى، وعندها عندما سمع رتشارد الأخبار عن موته، فجاء ليقابل الجنازة، وقتها تدفق الدم من فتحي أنف الميت، وكأن ذلك جاء غضباً لحضور الرجل الذي من المعتقد بأنه سبب موته، ولدى رؤية الكونت رتشارد لهذا بكى بحرقة، وتبع جثة أبيه، وهو عظيم الحزن والاضطراب، إلى فونت — ايفرود Font-Evraud، حيث أمر بدفنه مع التشريف، وذلك من قبل رئيسي أساقفة تور، وتريف، وحيث كان الملك المتوفى غالباً مايقول بأن العالم كله ينبغي أن لا يكون كافياً لمطامح ملك واحد، هناك نقش موضوع على قبره، قد جاء فيه مايلي:

« هنا يرقد الملك هنري، أنا الذي كثيراً من الممالك

قد أخضعت، وكنت كونتاً وملكاً.

ومع أن بلدان العالم كله لم تكن

كافية لي فيما مضى، ثمانية أقدام من الأرض، الآن

كافية لي، أيها القاريء فكر بالموت،

وانظر إليّ، كما ينبغي على جميع الناس أن يفعلوا».

وبودي أنا أن أضيف هنا في هذا المكان القوانين التي عملها الملك هنري لصالح مملكته، لولا خوفي من إنهاك صبر قرائي، وماتت في الوقت نفسه تقريبا ماتيلدا، ابنه هنري، وزوجة هنري دوق سكسوني.

كيف حصل الايرل رتشارد على دوقية نورماندي

وهكذا عندما بات الملك هنري ميتاً، قام ابنه رتشارد على الفور بإلقاء القبض على ستيفن دي تورنهام Turnham] لعل الأصح: تور] الذي كان نائب الملك في أنجو، وألقاه بالسجن. وطالبه بتسليم القلاع والأموال التي كانت بين يديه، وكانت عائدة إلى أبيه، ثم إنه احتفظ مع التشریف بكل الذين خدموا والده، والذين على اخلاصهم يمكن الاعتماد، وكافأ كل واحد منهم وفقاً لما يستحقه لطول الخدمات التي أداها إلى والده، علاوة على ذلك عندما قدم أخوه جون لرؤيته استقبله بكل تشریف، ثم أخذ الطريق بعد هذا إلى روان في نورماندي، وفي اليوم الثالث عشر قبل غرة شهر آب، قام بحضور الأساقفة، والاييرلات، والبارونات، والفرسان بأخذ سيف دوقية نورماندي، وتولى هذه الرسوم رئيس الأساقفة، من على مذبح مريم العذراء المباركة، وبعد تلقي الولاء من كل من رجال الدين والناس، أكد كلياً لأخيه جون تملكه لجميع الأراضي التي أعطاه إياها والده في انكلترا، وهي ملكية بأربعمائة مارك، وكل كونتية مورتين Mortaigne، ومنح كذلك إلى أخيه غيوفري، الذي كان من قبل الأسقف المنتخب للنكولن، رئاسة أساقفة يورك، وقام غيوفري على الفور بإرسال كهنته مع رسائل الدوق، واستحوذ، على رئاسة الأساقفة، ووضعها بين يديه، وطرده حراس الملك، وهيوبرت وولتر، عميد الكنيسة نفسها، الذي كان قد

جرى انتخابه أسقفاً من قبل بعض الرهبان النظاميين، وفي اليوم الثالث من حكمه، عقد الدوق مقابلة مع الملك الفرنسي، بين شومنت Chau-mont، وتراي Trie، وفي تلك الأثناء طالب ملك فرنسا بقلعة غيسور وجميع المقاطعة المجاورة، لكن بسبب أن الدوق كان مقبلاً على الزواج من أليس أخت الملك، أوقف الضغط لتحقيق طلبه لبعض الوقت، ووعد الدوق من جانبه بدفع أربعة آلاف مارك زيادة على المبلغ الذي وعد به والده.

كيف أطلق الملك رتشارد سراح أمه من اعتقالها المديد

وكانت في الوقت نفسه أمه الملكة إيلانور، التي أبعدت عن فراش والده، ووضعت في اعتقال مضيق لمدة ستة عشر عاماً، قد تلقت الآن من ابنها الإذن بإدارة القضايا والأمور في المملكة وفقاً لرغباتها، وصدرت التعليمات إلى النبلاء باطاعتها في كل مجال من المجالات، وقامت الملكة من خلال الصلاحيات هذه التي منحت لها باطلاق سراح جميع الذين كانوا بالسجن في انكلترا كلها، عارفة من خبرتها كم هو مؤلم للإنسان أن يكون بالسجن، وتحققت في هذه الأيام نبوءة ميرلين، التي تقول: «سوف يبتهج نسر المعاهدة المخروقة في عشه الثالث»، والذي عني بالنسر هو الملكة، لأنها مدت جناحها على المملكتين: فرنسا، وانكلترا، وقد انفصلت عن الملك الفرنسي بالطلاق بسبب قرابة العصب، وعن ملك انكلترا بسبب الريبة والسجن، وعلى هذا كانت من على الجانبين هي نسر المعاهدة المخروقة، ومن الممكن فهم الشطر التالي من الجملة: «وهو سوف يبتهج في عشه الثالث» وفق مايلي: كانت الملكة قد ولدت ابنها الأول، الذي اسمه وليم، وقد مات هذا وهو ما يزال طفلاً، وكان ابنها الثاني هو هنري، الذي رقي إلى مرتبة ملك، وهذا أيضاً كان قد سدد دين الطبيعة، بعدما تورط في أعمال عدوانية ضد والده، وكان رتشارد هو الولد الثالث، وهو الذي قصد»

بالعش الثالث» وهو قد كان مصدر بهجة إلى أمه وقد أطلق سراحها—
كما قلت— من شقاء سجنها.

قدوم الملك رتشارد إلى انكلترا وتتويجه

وبعد الفراغ من ترتيب هذه الأمور جميعها، تولى الدوق رتشارد تطبيق عدل صحيح بالنسبة إلى جميع رعيته، ثم إنه وصل إلى باربيفلوف Barbefleuve، ونزل إلى اليباسة في بورتماوث في النصف الأول من آب (١٣—آب)، ومالبت خبر وصوله أن انتشر في جميع أرجاء انكلترا، وسبب كثيراً من البهجة إلى كل من رجال الدين والناس، لأنه مع أن بعضهم قد حزن لوفاة والده، قد وجدوا الآن المواساة من كلمات الشاعر هذه:

« غنيت مندهشاً لأن الشمس حجبت نورها

ومع ذلك لم يتبع ذلك الظلام».

وتوجه الدوق إثر وصوله مباشرة إلى وينكستر، حيث أمر بوزن جميع كنوز والده، وبعمل قائمة جرد بهم، وقد وجدوا هناك تسعمائة ألف باوند من الذهب والفضة، إلى جانب أحجار كريمة، وتوجه من هناك إلى سالسبري، ومن هناك سافر من مكان إلى آخر، حيث منح إلى جميع الرعية ما طلبوه في شكواويهم، ومنح كثيراً من الأراضي إلى أناس لم تكن لديهم أملاك من قبل، فضلاً عن هذا منح إلى أخيه جون ابنة روبرت ايرل غلوستر مع ايرلية وقلع: مالبورا Marlborough، ولوتغارشيل Lutegareshale، وبولسوفير Bolsover، ونوتنغهام، ولانكستر، مع المراتب الشرفية العائده لها، والمرتبة الشرفية العائده إلى وليم بيفيريل، وجرى تأكيد منح هذه الممتلكات إلى أخيه جون، الذي تزوج من ابنة الايرل المتقدم ذكرها، على الرغم من تحريم بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، لأن والديها كانا في المرتبة الثالثة من قرابة العصب.

وفي هذه الآونة نفسها قام بعض من الرهبان النظاميين في يورك بانتخاب غيوفري، أخي الدوق، وغنوا ترنيمة بشكل مهيب، ثم أكدوا الانتخاب وثبتوه بوضع أختامهم، غير أن المعلم بارثوليميو وموظف هيوبرت وولتر عميد تلك الكنيسة، لم يرغبوا بقيام ذلك الانتخاب أثناء غياب أسقف درم، وكذلك هيوبرت وولتر العميد، لأنه كان لهما الحق بالحضور أثناء الانتخاب، لذلك تقدما باستئناف إلى مولانا البابا ضده.

موت غيوفري أوف إيلاي من دون وصية

ومات في الوقت نفسه غيوفري أسقف إيلاي من دون وصية، وكان ذلك في اليوم الثاني عشر قبل غرة شهر ايلول (٢١ - آب)، ولذلك جرت مصادرة ثلاثة آلاف مارك فضي وألفي مارك ذهبي مما كان قد خلفه، وكانت المصادرة لصالح الملك، وذلك مع كمية من أثاثه، ومخزون من الخواتم، وصحون الذهب والفضة، والقمح، والملابس الثمينة، وأشياء أخرى، كثيرة جداً.

تتويج رتشارد الأول

ولدى الفراغ من جميع الاستعدادات من أجل تتويج الملك رتشارد، جاء إلى لندن، حيث كان هناك احتشاد لرؤساء أساقفة: كانتبري، وروان، وتريف، وقد جرى تحليله من قبلهم لحمله السلاح ضد أبيه، بعد حمله للصليب، وكان رئيس أساقفة دبلن هناك أيضاً مع جميع الأساقفة، والاييرلات، والبارونات، والنبلاء، العائدين للملكة، وفق الترتيب التالي، فقد جاء أولاً رؤساء الأساقفة، فالأساقفة، فرعاة الديرة، فالكهنة، وهم جميعاً يلبسون أرديتهم، وقد عملوا مسيرة مع الصليب، والماء المقدس، والمباخر، حتى وصلوا إلى القاعة الداخلية، حيث استقبلوا الدوق، فاقتادوه إلى كنيسة وستمنستر، إلى أن وصلوا إلى المذبح العالي، وكانت المسيرة مسيرة مهيبية، وسار في وسط الأساقفة والكهنة

أربعة بارونات يحملون حوامل الشموع مع الشموع، وجاء من بعدهم اثنان من الايرلات، حمل أولهما الصولجان الملكي وعلى رأسه صليب ذهبي، وحمل الآخر الصولجان الملكي وعلى رأسه حمامة، وجاء بعد هذين الإيرلين ثالث بينهما، كان يحمل ثلاثة سيوف مع أقربة من ذهب، كانوا قد جلبوا من خزينة الملك، وكان قد وضع عليهم الرنوك الملكية والأردية، كما أنه سار خلفهم إيرل آخر حاملاً بشكل مرتفع تاجاً ذهبياً، وجاء بعد الجميع الدوق رتشارد، حيث كان من على يمينه أسقف، ومن على يساره أسقف آخر، وقد نشرت فوقهم مظلة حريرية، وتابعوا سيرهم حتى المذبح كما سلف وقلنا، ووضعت الأناجيل المقدسة أمامه مع آثار بعض القديسين، وقد أقسم بحضور رجال الدين والناس بأنه سوف يحافظ على السلام، والشرف، والاحترام طوال حياته، وذلك نحو الرب، والكنيسة المقدسة، وقوانينها، وأقسم أيضاً أنه سوف يبارس عدلاً صحيحاً نحو الناس الموضوعين تحت عهده، وسوف يلغي جميع القوانين السيئة، والعادات غير العادلة، وذلك إذا ما وجد شيء من هذا القبيل في مملكه، وهو سوف يراعي بشكل ثابت كل ما هو جيد، وجردوه بعد هذا من ثيابه كلها باستثناء سراويله وقميصه الذي رفع فوق كتفيه، وذلك من أجل تلقي القربان، ثم ألبس نعلاً منسوجاً بخيوط ذهبية، ومسحه بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ملكاً في ثلاثة أماكن هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وكان يستخدم صلوات نظمت من أجل المناسبة، ثم جرى وضع قطعة من قماش الكتان مكرسة، على رأسه، فوقها وضعت قبة، وعندما ألبسوه مجدداً ملابس الملكية مع مئزر ورداء، أعطاه رئيس الأساقفة وسلمه بيده سيفاً يدمر به أعداء الكنيسة، وبعد انجاز هذا، ألبسه اثنان من الايرلات حذاءه في قدميه، وعندما تسلم العباءة، طلب منه رئيس الأساقفة، باسم الرب، أن لا يقدم على تسلم هذه التشريفات، مالم يكن قد نوى في عقله بشكل ثابت القيام بمراعاة الأيمان التي عملها والحفاظ عليها، وقد

أجاب بأنه بعون الرب، سوف يحافظ بصدق وإيمان على كل شيء وعد به، ثم أخذ الملك التاج من على المذبح وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، الذي وضعه على رأس الملك، مع الصولجان في يده اليمين، والعصا الملكية في يده اليسار، وهكذا اقتيد والتاج على رأسه من قبل الأساقفة والبارونات، وقد تقدمت أمامه الشموع، والصليب، والسيوف الثلاثة المتقدم ذكرها، وعندما وصلوا إلى تقديم القديس وتلاوته، اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو الأمام ثم نحو الخلف، وهكذا حتى جرى انشاد القديس، وانتهى كل شيء وفق الصورة الصحيحة، وقتها اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما، وأبعدها والتاج على رأسه، وهو يحمل بيمنه الصولجان، ويسراه العصا الملكية، ثم إنهم عادوا إلى السدة بمسيرة، وهناك خلع الملك ملابسه الملكية، وارتدى ملابس أقل وزنا، ووضع على رأسه تاجاً أخف، ثم إنه سار نحو مائدة الغداء، التي جلس إليها رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والإيرلات، والبارونات، مع رجال الدين والناس، وجاء جلوسهم كل واحد حسب مرتبته ومكانته، واحتفلوا بشكل فخم، ولذلك تدفقت الخمرة على أرض البلاط وعلى جدران القصر، وحدث هذا كله يوم الأحد قبل الخامس من أيلول.

تعذيب اليهود

وكان الكثير من اليهود حضوراً أثناء هذا التتويج، وذلك مراغمة للأوامر الملك، ذلك أنه كان قد أمر بأن يعلن في اليوم المتقدم، بأنه لا يجوز حضور أي يهودي أو امرأة التتويج، بسبب التعاويذ السحرية التي كانت تحدث أحيانا أثناء التتويجات الملكية، وقد ألقى رجال البلاط القبض عليهم، مع أنهم جاءوا بشكل سري، وبعدما سلبوهم وجلدوهم بشكل مرعب رموهم خارج الكنيسة، وقد مات بعضهم، وبعضهم الآن من الصعب أن نقول بأنه قد بقي فيهم رمق من الحياة، ولدى سماع سكان المدينة بحملة رجال البلاط هذه على اليهود، قاموا

بحملات مماثلة على الذين بقيوا في المدينة، وبعدما قتلوا عددا من الجنسين، وهدموا بيوتهم وسووها بالأرض وأحرقوها، نهبوا ذهبهم وفضتهم، وكتابتهم وثيابهم الثمينة، أما اليهود الذين نجوا من الموت، فقد التجأوا إلى برج لندن، وبعد ذلك اتخذوا مساكن لهم هنا وهناك بين أصدقاتهم، وقد تسببوا بأن يصبح آخرون أغنياء بسبب خساراتهم، وبدأت أعمال التعذيب في سنة يوبيلهم، التي يسمونها سنة الغفران، ولم تتوقف قبل نهاية السنة، وعلى هذا ما كان ينبغي أن يكون سنة غفران، تحول في يوبيلهم إلى الاضطراب، وعندما سمع الملك في اليوم التالي بالخطأ الذي اقترف وعمل، عدّ ذلك وكأنه خطأ اقترف بحقه شخصياً، ولذلك أمر باعتقال ثلاثة منهم، تولى محاكمتهم قضاة بلاطه، وقد شنقوا واحداً منهم لأنه استولى على أشياء كانت ملكاً للمسيحي، وأعدما الاثنين الآخرين لأنهما كانا قد أشعلا النار في المدينة، الأمر الذي تسبب باحتراق بيوت بعض السكان المسيحيين، وعندما سمع الشعب الانكليزي في جميع أرجاء البلاد بأخبار هذا الهجوم على اليهود في لندن، حملوا عليهم بإجماع من الآراء، وأنزلوا بهم أضراراً كبيرة، وقتلوا أشخاصاً منهم ونهبوا مقتنياتهم، ثم كان في اليوم التالي ليوم التتويج أن تلقى الملك رتشارد الولاء مع يمين التابعة الاقطاعية من النبلاء، فأصدر أوامره بعدم متابعة تعذيب اليهود، وأنهم ينبغي أن يعيشوا بسلام في أرجاء جميع مدن انكلترا.

سخاء الملك رتشارد

عندما اجتمع الرهبان السسترشيان من جميع أنحاء العالم، وعملوا مجمعاً لطائفهم، منحهم الملك رتشارد مائة مارك من الفضة لكل سنة، وأكد ذلك بصك.

كيف أعطى الملك رتشارد قسماً للكنائس التي كانت شاغرة في جميع أرجاء انكلترا

وفي اليوم التالي ليوم ارتقاء الصليب المقدس، [١٧ - ايلول] كان الملك رتشارد في بايول Pipewell [في نورثامبتونشاير] حيث قام بعقد مجمع كبير، بناء على نصيحة، رؤساء الأساقفة والأساقفة، وأعطى إلى أخيه غيوفري رئاسة أساقفة يورك، وعين في تلك الأثناء غودفري دي لوسي إلى أسقفية ونكستر، ورتشارد رئيس شامسة إيلاي إلى أسقفية لندن، وهيوبرت وولتر إلى سالسبري، ووليم دي لونغشامب إلى إيلاي، هذا وقام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، بعد اتمام أعمال الانتخاب، بمنع غيوفري المنتخب لرئاسة أساقفة يورك من تسلم أعمال السيامة، أو التكريس الأسقفي من يدي أحد سواه هو شخصياً، ولأجل هذه المسألة عمل مرافعة إلى الكرسي الرسولي.

كيف حصل هيوج أسقف درم على لقب إيرل بالمال

وعزل في هذه الآونة الملك رتشارد من وظيفة نائب الملك، رالف دي غلانفيل، ورئيس العدالة في انكلترا، مع جميع عمد المناطق في انكلترا والعاملين في مكاتبهم، وأرغمهم على دفع غرامات كبيرة لتخليص أنفسهم، وعمل من أجل جمع المال من أجل استرداد الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، بعرض كل شيء للبيع: اللوردية، والقلاع، ورئاسة البلدات، والغابات، والمزارع، ووظائف العمد، وماشابه ذلك، وبناء عليه، اشترى هيوج دي بوساز Pusaz ، أسقف درم، لنفسه ولكرسيه، الحقوق الملكية لبلدة سيغسفيلد Segesfeld، مع وبينتيك Wapentake، ومتعلقاتها، وإيرلية نورثامبرلاند، خلال حياته، وعندما منطقه الملك بالسيف الذي يخوله حمل لقب إيرل، قال وهو يضحك: «لقد عملت إيرلاً شاباً من خلال أسقف عجوز»، ومضى الأسقف أبعد من هذا، واشتط، ولكي يكمل مهزلة الأشياء، أعطى إلى الملك عشرة ماركات من الفضة، من أجل تعيينه مسؤولاً عن العدالة في انكلترا، ولكي لا يذهب إلى الأرض المقدسة، وكاحتياط ضد جميع المعارضين

دفع مبلغاً كبيراً، بمثابة رشوة إلى الكرسي الرسولي، الذي لم يعترض قط على وجهة نظر أي من الأشخاص، وهكذا حصل على إذن بالبقاء، وبهذه جعلته المطامح الدنيوية يقوم بالتخلي عن شارة الصليب، التي أخبرنا المبشرون، بوجود حملها من قبل جميع الناس، وبشكل خاص الأساقفة، وحقق الأسقف بهذا السلوك نبوءة القديس غودريك الناسك، فقد جاء في بداية ترقيته إلى الناسك وسأله حول تطورات مستقبله، وعن طول المدة التي سيحياها، فاعتاد الناسك أن يستخدم هذه الكلمات ويقولها له: « بالنسبة لتقدمك المستقبلي وعدد السنوات التي ستعيشها، عليك أن تسأل عنها الرسل المقدسين ومن شابههم، لأنني هنا أقوم بالتوبة من ذنوبي، ويجزني القول بأنني مازلت مذنباً تعيساً، ويهمني أن أخبرك أنك سوف تعاني قبل وفاتك بسبع سنوات من عمى مخزن جداً»، وترك الأسقف رجل الرب، وقد وقرت في نفسه الكلمات التي سمعها، ولأنه كان عظيم الثقة بالناسك، اهتم اهتماماً كبيراً بعينه، واستشار عدة أطباء حتى يتمكن من الاحتفاظ بنظره طوال الوقت الذي سيعيشه، وبعد مضي عدد كبير من السنوات، أصيب بالمرض الذي منه مات، فسأل الأطباء، بقلق كبير، ماهو أفضل مايمكنه فعله، فأجابوه جميعاً بصوت واحد، ونصحوه بأن يفكر بأوضاع روحه، ذلك أنه لن يلبث أن يغادر هذا العالم مرغماً، ولدى سماع الأسقف هذه الكلمات، قال: « لقد خدعني غودريك، فهو قد وعدني بسبع سنوات من العمى قبل موتي»، ويمكننا نحن الآن أن نقول بشكل مسوغ، أنه بالتأكيد كان أعمى، لأنه اغتصب بالرشوة لنفسه لقب إيرل الفارغ، ووظيفة العدالة، وورط نفسه بالمشاكل الدنيوية، ثم إن عدم حجه إلى الأرض المقدسة، وإيلائه القليل من الاهتمام لنجاة الأرواح، مع واجبات الأسقفية، لم يجرمه فقط من بصره، بل أغرقه في ظلام دامس، وبذلك مات هذا الأسقف، وفقاً لما قاله رجل الرب في نهاية السنوات السبع، ومات في هذه الآونة وليم إيرل أوف مانفيل في روان.

معركة مجيدة قاتلها الصليبيون ضد المسلمين

في الرابع من تشرين الأول لهذا العام، نشبت معركة بين الصليبيين والمسلمين عند أنطاكية كانت على الشكل التالي: كان على الجانب الصليبي: ملك القدس، والداوية، والاستبارية، ومركيز أوف مونتفرات، والفرنسيون، وثيبولد المفتش، وبطرس لاينيس اللاندغريفي، Landegrave مع التيتون والبيازنة، فقد حشدوا مع بعضهم جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف من الفرسان، ومائة ألف من الرجال، وكان الجيش المسلم تحت قيادة صلاح الدين، وقد تكوّن من مائة ألف فارس، مع حشد هائل من الجنود الرجال، وكان الصليبيون يحملون شارة الصليب على أسلحتهم، وقد بدأوا القتال في حوالي الساعة الثالثة من النهار، وكان الرب إلى جانبهم، لذلك دفعوا بالمسلمين إلى معسكرهم، وطاردوهم بحد السيف، وهاجموهم ودمروا لهم سبع فرق، وقتلوا خمسمائة فارس من فرسان صلاح الدين، كان من بينهم قطب الدين ابن صلاح الدين، وأصيب أخاه تقي الدين بجراحة مميتة (١)، وعندما كان الفريقان يتقاتلان هكذا بشراسة، قام خمسة آلاف من المسلمين بانقضاض مفاجيء، وقاتلوا الصليبيين، ولدى رؤية صلاح الدين لذلك ارتفعت معنوياته واسترد قوته، واشتد الضغط على الفرنجة من الجانبين، فوجدوا أنفسهم مرغمين على التراجع من خلال معسكر المسلمين، لكن بعدما فقدوا مقدم الداوية، وعدد كبير آخر، كانوا قد قتلوا في ذلك اليوم.

١ - كذا، والمرجح أن المقصود هنا معركة عكا التي ذكرها أبو شامة في الروضتين ص ٨٦٨٧، علماً بأن صلاح الدين لم يفقد أياً من أبنائه في الحروب، وكان تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، مؤسس المملكة الأيوبية في حماه أبرز قادة صلاح الدين في هذه المعركة وفي غيرها.

وصول رسل من لدن الملك الفرنسي إلى الملك رتشارد لسؤاله الاسراع بحجه إلى الأرض المقدسة برفقة الملك الفرنسي

في شهر تشرين أول نفسه، وصل إلى انكلترا روتروود كونت أوف بيرشي، كرسول من قبل الملك الفرنسي، ليخبر الملك رتشارد وبارونات انكلترا، بأنه أقسم في مؤتمر عقد في باريس، مع نبلاء مملكة فرنسا، يميناً قضى بوصوله حتماً بمشيئة الرب مع نبلاء مملكته إلى فنزلي، بعد عيد الفصح، ومن هنالك سوف ينطلق إلى القدس، وكبرهان على هذا القسم، بعث الملك الفرنسي رسالة إلى ملك انكلترا، يطلب منه أن يعطيه ضماناً حول الموعد نفسه من أجل تنفيذ الرحلة، وبناء على ذلك جمع ملك انكلترا أساقفة ونبلاء المملكة في وستمنستر، وبعد سماعه ليمين الملك الفرنسي، من أنه سوف يسرع بالمغادرة من دون تردد، أمر وليم الايرل القائد لديه بعمل قسم عنه شخصياً، بأنه رتشارد سوف يلتقي بالملك الفرنسي في فنزلي، في ذلك الموعد المحدد، من أجل أن يشرعاً معاً بالانطلاق من ذلك المكان نحو أرض الميعاد، وبعدما نفذ الرسل مهام بعثتهم، عادوا إلى بلادهم، وفي الأول من تشرين الثاني، من هذا العام، تلقى غودفري دي لوسي أسقف وينكستر، وهيوبرت وولتر الأسقف المنتخب لسالسبري، التكريس على يدي بلدوين رئيس أساقفة كانتبري، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

المحادثات التي جرت بين رئيس أساقفة كانتبري وبين رهبان ذلك المكان ومسائل أخرى

ووصل في شهر تشرين الثاني نفسه إلى انكلترا جون كاردينال آناني Anagni ونزل في دوفر، ولأن الملك كان في الأجزاء الشمالية من المملكة، مُنع من قبل الملكة إليانور من متابعة السفر من دون موافقة من الملك، ولذلك أمضى ثلاثة عشر يوماً، على حساب رئيس الأساقفة، وذلك حتى يمكن صنع سلام بين رئيس أساقفة كانتبري وبين رهبان

كانتربري حول بيعة أكنغتون، وبما أن رتشارد كان ملكاً حكيماً جداً، ولأنه تلقى إلتماسات من كلا الفريقين، قدم في شهر تشرين ثاني نفسه، وأعد شروط مصالحة وسلام بينها كانت كمايلي: أولاً— وجوب خلع روبرت رئيس الرهبان الذي عينه رئيس الأساقفة في ذلك المنصب، على الرغم من معارضة رغبات الرهبان، وأن يجري هدم تلك البيعة التي بناها رئيس الأساقفة في الضاحية، من دون موافقتهم، وأن يظهر الرهبان المتقدم ذكرهم، وفقاً لنظام القديس بندكت، طاعة قانونية ورعوية إلى رئيس الأساقفة، كما اعتادوا أن يفعلوا لسلفه، وأعطى الملك، بناء على طلب رئيس الأساقفة، إلى رئيس الرهبان المخلوع، رعاية دير ايفهام Evesham ، وتقرر أيضاً عدم منح البيعة المتقدم ذكرها امتياز التعميد، أو الدفن، أو إقامة الطقوس المقدسة، باستثناء الذي يقام من قبل كاهن علماني.

كيف قدّم وليم ملك الاسكوتلنديين الولاء إلى الملك

رتشارد في كانتربري

وقدّم في العام نفسه وليم ملك الاسكوتلنديين الولاء إلى ملك انكلترا عن حقوقه في انكلترا، وأعاد الملك رتشارد إليه قلعتي روكسبرا Roxburghe وبيرويك Berwick ، ومقابل تخليص هذين الحصنين، وترضية لمطالبة الملك رتشارد بالحقوق الاقطاعية على ملك اسكوتلندا، وفيما يتعلق بولاء هذا الملك، وتثبيتاً لصكه دفع هذا الملك إلى ملك انكلترا عشرة آلاف مارك فضي.

كرم الملك رتشارد وسخائه

وفي هذه الآونة، أعطى الملك رتشارد إلى أخيه جون كونتيات: كورنول Cornwall، وديفون Devon، وسمرست Somerset، ودورست Dorset ، وأعطى إلى أمه إليانور بائنتها المعتادة، مع أراضي

وتشريفات مضافة إليها.

عبور الملك رتشارد البحر إلى نورماندي

في الخامس من كانون الأول من العام نفسه، أفلح الملك رتشارد من مدينة كانتربري إلى دوفر، وعبر من هناك البحر، وتبعاً لذلك قام في عشية عيد العذراء القديسة لوسي، بالابحار إلى فلاندرز، حيث استقبل ببهجة من قبل الكونت فيليب، الذي رافقه أيضاً إلى نورماندي، وعين الملك هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، ومستشاره هيوج باردولف Bardulph، ووليم بريوير Briwere أوصياء على مملكة انكلترا، للحفاظ على قوانين وأعراف المملكة ولمراعاتها، ولتطبيق العدل ومنحه للذين يطلبونه، وكان هناك تمايز بين هؤلاء الأوصياء، وكان ذلك لصالح هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، فلقد عهد إلى الأول بإدارة العدالة في جزء البلاد الممتد من نهر همبر Humber الكبير، إلى البحر الاسكوتلندي، في حين احتفظ الثاني بالقضاء في البلدة الممتدة من النهر المتقدم الذكر إلى بحر غاليا، وقد أغضب هذا كثيراً هيوج أسقف درم، الذي علم آنذاك للمرة الأولى، أن الملك عمل منه رجل العدالة، ليس من أجل تطبيق العدل، بل من أجل استخراج المزيد من المال — كما تقدم الذكر — ولهذا السبب نادراً ما كان هو والمستشار على وفاق، وذلك كما يقال:

.... ذلك أن كل سلطة

تغار من منافستها

كيف ألقى رئيس الأساقفة حرماناً على أراضي جون أخو الملك،
لكن الكاردينال نقضه

وفي هذه الآونة، رفع جون أخو الملك، استئنافاً وشكوى شديدة إلى النائب البابوي، والأساقفة بأن رئيس الأساقفة قد أنزل حرماناً على

جميع أراضيه، وفعل ذلك حتى بعد الالتماس الذي عمله إلى الكرسي الرسولي، وسبب ذلك زواجه من ابنة إيرل غلوستر، التي كانت قريبة له قرابة صلب من الدرجة الثالثة، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الشكوى وقف إلى جانبها، وحرر الأراضي من الحرمان.

كيف جرى منح عشر ممتلكات انكلترا لمساعدة الأرض المقدسة

وفرضت في هذه الأيام ضريبة العشر على كل ما هو متحرك عام في انكلترا، وجمعت من أجل إرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وسببت هذه المكوس العنيفة شروراً كبيرة أثناء جمعها، وذلك تحت اسم صدقات، مما أزعج كثيراً رجال الدين والناس جميعاً، وجرى في هذا العام انتخاب رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف إيلاي، وتم تكريسها في لامبث في اليوم الأخير من كانون الأول.

كيف قرر الملكان المتحالفتان المغادرة معا إلى الأرض المقدسة

عام ١١٩٠م، فيه كان الملك رتشارد، ملك انكلترا، أثناء عيد الميلاد في بيور Bure في نورماندي، وأمضى وقت ذلك العيد المهيب مع أعيان تلك البلاد، وجرى بعد الميلاد اجتماع بين ملكي انكلترا وفرنسا عند مخاضة القديس ريمي Remy، وجرى الاتفاق، على وجوب — بمشيئة الرب — الاسراع بمغادرتهم إلى القدس في الوقت نفسه، وعملت صيغة من الاتفاق من أجل المحافظة على السلام بين البلدين، في يوم عيد القديسة هيلاري، وكان ذلك بحضور الأساقفة والنبلاء من المملكتين، وبعدهما تأكدت بالقسم من قبل الملكين، جرى الأمر بكتابتها، فجاءت كما يلي: «أنا فيليب ملك فرنسا سوف أحافظ على الاخلاص نحو رتشارد ملك انكلترا، على أساس أنه صديقي، وحليفي، فأحفظ حياته، وجوارحه، وشرفه الدنيوي، وأنا رتشارد ملك الانكليز، سوف أحافظ على الاخلاص الجيد نفسه مع ملك فرنسا، على أساس أنه صديقي،

ومولاي، فأحفظ حياته، وجوارحه، واتفقنا أيضاً على تقديم المساعدة أحدنا إلى الآخر، إذا كانت ضرورية، في الدفاع عن أراضي بعضنا، كل واحد منا بالغيرة نفسها التي يدافع بها عن ممتلكاته»، وأقسم نبلاء وبارونات المملكتين على عدم التخلي عن ولائهم إلى ملكيهما، أو عمل حرب، حتى مضي أربعين يوماً في سلام عقب عودة الملكين، وشارك الملكان في أداء القسم، وأقسم رؤساء أساقفة، وأساقفة المملكتين على إصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد الذين سوف يخرقون هذا التحالف، أو ينفذون خلاله، وتقرر أيضاً، أنه إذا مامات أحد الملكين أثناء الحملة، فإن الذي سيبقى حياً، سوف يتولى المسؤولية عن أموال وقوات المتوفى، ليتولى تنفيذ الخدمة التي يدينان بها للرب، ولما كانا غير قادرين على تنفيذ هذه المعاهدة بكل دقة، فقد أجلا الأعمال حتى عيد ميلاد القديس يوحنا، وذلك بغية تمكين الملكين، وجميع الصليبيين من الاجتماع من دون تقصير في فينزي، للدخول في أعمال حجهم إلى الأرض المقدسة، وورد في نص المعاهدة الكلمات التالية: «وإذا ما حاول أي واحد إعاقة اتفاقنا هذا، فلسوف توضع أراضيهم تحت الحرمان الكنسي، وكذلك سوف ينال أصحابهم الحرمان الكنسي»، وبعدما رتبوا القضايا على هذه الصورة، أنهموا المؤتمر، وفي هذه الأونة عقد بلدوين رئيس أساقفة كانتربري اجتماعاً في وستمنستر، فيه عمل وداعاً لرهبانه وانطلق يريد الأرض المقدسة في رتل فخم].

كيف جرى تعيين أسقف إيلاي مستشاراً

أرسل رتشارد ملك انكلترا سفراء برفقة آخرين كان قد أرسلهم وليم أسقف إيلاي، إلى البابا كليمنت، وحصلوا من الحبر الأعظم على المرسوم التالي: «نحن البابا كليمنت — تحيات: استجابة للطلب موضع الثناء، من ابنتنا المحبوب بالرب، رتشارد، الملك واسع الشهرة لانكلترا، قد قررنا في ادارتنا الرسولية على أن يعهد إلى عنايتكم الأخوية بواجبات

المستشارية لجميع انكلترا، وويلز، وفي رئاسة أسقفيتي كانتربري ويورك، وفي تلك الأجزاء من إيرلندا التي يمتلك فيها سلطة، جون إيرل أوف مورتون، أخو الملك، صدر في الثاني من حزيران، في السنة الثالثة من بابويتنا».

كيف علق رئيس أساقفة كانتربري الأسقف هيوج

وكتب في هذا العام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إلى رتشارد أسقف لندن كما يلي: «عندما كنا في روان علقنا عن ممارسة الواجبات المقدسة أخانا هيوج أوف كوفنتري، لأنه قام من دون اهتمام واحترام لكرامة المرتبة الأسقفية، فاغتصب وظيفة العمدة، لكن بناء على وعده الصادق بالاستقالة بين أيدينا من مسؤوليات ووظيفة العمدة، وأن لايشغل نفسه ثانية بأعمال من هذا النوع، اعتقدنا وقتها أنه يستحق التحليل، وبناء عليه نرسل هذا الأسقف إليكم مع رسالتنا هذه، ونأمركم القيام من دون تأخير بالتعاون مع أسقف روكستر وكهنتنا، بتحديد موعد ومكان للسماح ولائخاذ قرار عادل حول التهم التي من أجلها جرى تعليق ذلك الأسقف من قبلنا.

حول مذبحه اليهود في عدة أماكن

قرر في هذا العام كثير من الناس في جميع أرجاء انكلترا، من الذين كانوا على نية السفر إلى القدس، قبل أن يسافروا، أن يتسببوا بثورة ضد اليهود، وتفجر هذا أولاً في نورويك، حيث كان اليهود من الكثرة بقدر ما هو ممكن، فقتلهم في بيوتهم، ونجا على كل حال قليل منهم، والتجأوا إلى قلعة في ذلك المكان، وحدث بعد هذا في السابع من آذار، أن ذبح كثير منهم في ستامفورد في يوم السوق، وفي الثامن من عشر من آذار، قيل بأن سبعة وخمسين قد قتلوا في سينت إدموند، وعلى هذا جرى قتل اليهود، حيثما وجدوا على أيدي الصليبيين، باستثناء الذين جرت

حمايتهم من قبل موظفي المناطق والمدن، هذا وينبغي أن لانعتقد أن مثل هذه المذابح لليهود، كانت مرضية للناس العقلاء، لأنه قد كتب: «لا تقتلهم، خشية أن ينسى الناس».

حول المذبحة الرهيبة لليهود في يورك

وفي العام نفسه، أثناء الصوم الكبير، أي في الخامس عشر من آذار، قام يهود مدينة يورك، الذين كان عددهم قد بلغ خمسمائة إلى جانب النساء الأطفال، من خلال الخوف من هجوم عليهم يشنه الصليبيون، فحصلوا على إذن من العمدة ومن حاكم القلعة، بأن يعتصموا في القلعة، وعندما طلبت منهم الحامية ارجاع القلعة، رفضوا فعل ذلك، ولدى رفضهم ذلك تمت حملات متوالية على القلعة في كل من النهار والليل، وبعد مرور وقت طويل، تفكر اليهود بالأمر، فعرضوا مبلغاً كبيراً من المال مقابل حياتهم، لكن ذلك رفضه الشعب، ثم نهض واحد منهم، وكان بارعاً بالشريعة، فخاطب رفاقه على الصورة التالية: «آه، يارجال اسرائيل، اسمعوا رأيي، إنه من الأفضل، كما تأمرنا شريعتنا، أن نموت في سبيل شريعتنا، على أن نقع في أيدي أعدائنا»، ووافق الجميع على هذا، وجاء رأس كل أسرة بموسى حادة، فقطع أولاً رأس زوجته، وأولاده وبناته، وبعد ذلك جميع أسرته، وألقوا بعد هذا ببعض أجساد القتلى، الذين عدّوهم بمثابة ضحايا للشيطان، على المسيحيين في خارج القلعة، ثم إنهم حبسوا أنفسهم في بيت الملك، وأوقدوا النار فيه، فاحترق فيه كل من الأحياء والأموات مع البناء، وبعد هذا أحرق السكان والجنود بيوت اليهود، مع أوراق دأئنيهم، واحتفظوا بأموالهم في سبيل استخداماتهم الخاصة بهم.

تكريس غيوفري رئيس الأساقفة المنتخب ليورك كاهناً

وفرض في تلك الآونة الأسقف وليم، مستشار الملك، والمسؤول عن

العدالة في انكلترا ضريبة جوادين مع سائقين على كل مدينة من مدن انكلترا، وجواد واحد مع سائق واحد على كل رعوية، وكرس في هذه الأيام أيضاً، جون أسقف وايزرن Whithern ، والأسقف المساعد لكنيسة يورك، غيوفري رئيس أساقفة يورك المنتخب، ليكون كاهناً، وجرى في الوقت نفسه تثبيت انتخاب غيوفري المتقدم ذكره من قبل البابا كليمنت، الذي بين أشياء أخرى عملها، كتب إلى هيئة كهنة يورك، مضيفاً هذه الكلمات: « وبناء عليه نحث جميع إخوانيتكم أن تقدموا الاحترام والتشريف إليه بمثابة أسقف لكم، فتهننون بذلك على أنكم جديرين بالثناء بنظر الرب والناس، صدر في اللاتيران، في السابع من آذار، في السنة الثالثة من بابويتنا».

نظام تعبئة الجيش الصليبي أثناء حصار عكا

كان نظام تعبئة الجيش الصليبي أمام عكا في هذه الآونة كما يلي: كان أمام جبل المصلين، قرب البحر، الجنوبيين، وجاء بعدهم الاستبارية ومركيز أوف مونترفرات، ثم تلاهم بالترتيب هنري كونت أوف شامبين، وغي أوف دونبيرك Duinperc، وكونت برين Brenne، ثم كان بعد ذلك كونت بار، وكونت شالون Chalons، ومن بعدهما روبرت أوف دروكس Dreux، وأسقف أوف بوفيا Beauvais، وكان على مقربة منه باتجاه السهل، ثيوبولد كونت أوف كليرمونت، وهيوج دي غورني، وأوثودي تريسون، وفلورنتوس Florentius دي هوجي، وولكلين دي فيرار Walkeline de Ferrars، ثم جاء فلورنتاين Florentines، ثم أسقف كامبري Cambray، وإلى جانبه كان أسقف سالسبري، مع جميع القوات الانكليزية، ثم جاء وكيل فلاندرز، مع جون دي نيل، وأوگو دي هام، والفلمنكيين، وجاء من بعدهم صاحب هيسولدون Hissoldone، وفيزكونت أوف تور، وعلى مقربة منها ملك القدس وهيوج أوف طبريا مع أقربائهما، ومن بعدهما كان

الداوية، وجيمس دي أفني Avennes، وكان إلى جوارهما اللاندغريف Landegrave، وكونت أوف غيلدر Geldres مع الألمان، والداشين، والتوتون والفريزلاندرين، وكان بينهم قد نصب دوق سوايا معسكره بجوار المسجد، وبعدهم، وعلى مقربة من البرج تمرکز بطريك وأسقف عكا، وأسقف بيت لحم وفيكونت أوف شاتل— هيرلوت Chatel- Herault، مع رينالد دي فلشي Fleche، وهمفري أوف تور، وكان صرافو النقود تحت تورون، وفي الطرف الأقصى، على مقربة من الميناء، رئيس أساقفة بيزا مع اليازنة، وجاء بالأخير اللومبارد.

بناء بيعة عند عكا تشریفاً لتوماس الشهيد المبارك

وفي هذه الآونة عندما كان شماس انكليزي اسمه وليم، وكان من المقربين من رالف دي ديسيتو، عميد لندن، على طريق رحلته إلى القدس، عمل نذراً، أنه إذا ما وصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يبني على حسابه بيعة على شرف توماس الشهيد المبارك، وسوف يتولى تكريس مقبرة على اسم ذلك الشهيد، وقد وفي بنذره، وتقاطر كثيرون من مختلف الجهات مع بعضهم إلى الصلوات في تلك البيعة، وحمل وليم— بقرار من جميع الصليبيين، اسم رئيس الرهبان، ولكي يبني تقواه كجندي للمسيح، عمل شغله الشاغل رعاية الفقراء، وبصورة خاصة دفن الذين هلكوا من الأمراض وكذلك الذين قتلوا في المعركة.

مقدمو جيش صلاح الدين

كان المقدمون في عكا تحت قيادة صلاح الدين هم كما يلي: قراقوش، الذي عمل فارساً من قبل كربوغا أثناء حصار أنطاكية، وهو الذي ربي صلاح الدين، وكان معه جمال الدين، وقليج، وسنجر شاه، وشيركوه، وأبو الهيجاء السمين، وفخر الدين، وقطب الدين، وكان قادة جيشه

هم هؤلاء: أولاده الثلاثة: الملك الأفضل، والملك العزيز، والظاهر غازي، مع اثنين من أبناء أخوته هم: تقي الدين، وشمس الدين، مع المقدمين: زين الدين، وقاياز، وبدر الدين، والمشطوب، وسابق الدين، وامتلك جميع هؤلاء المقدمين سلطة على الجزيرة والرحبة، والبيرة، وعلى الفرس، والتركان، والعرب، والاسكندرية، ودمياط، وحلب، ودمشق، وجميع الأراضي الواقعة فيما وراء الفرات والممتدة حتى البحر الأحمر، وفيما وراءها إلى المغرب، وحكم تقي بلاد مصر، وعهد إلى أخوة صلاح الدين الأربعة بحكم بلدان: العباسية، واليمن، والمغرب، والنوبة، وقيسارية وعسقلان، وأمد، وميافارفين، وسنجار، والناصرية، ونبلس، وحمص، وحلب، ومرعش، وتولى العادل سيف الدين حكم الكرك والشوبك، وغازي جزء من أرمينيا، هذا وكان صلاح الدين السيد الحاكم عليهم جميعاً (١).

كيف جرى احراق آلات الحصار الصليبية من قبل المسلمين

وجرى في العام نفسه، قذف النفوط والنار الاغريقية من قبل المسلمين الذين كانوا محاصرين في مدينة عكا، على الآلات التي بناها الصليبيون بنفقات عالية جداً، من أجل اخضاع المدينة، وانتشرت النار، على الفور، وحولتهم إلى رماد، وقد حدث هذا في هذا اليوم الخامس من أيار.

كيف جرى اكتشاف خونة بين الصليبيين

وكشف في هذه الآونة العادل صاحب الكرك والشوبك عن مؤامرة كان قد أعدها مع أسقف بوفيا Beauvais وأخيه الكونت روبرت، وغني أوف دونبيرك Duinperc ، واللاندغريف، وكونت أوف غيلدر Geldres، الذين دخلوا بالمؤامرة مع صلاح الدين، ولذلك تسلموا من

١ - تشوهت الأسماء بالأصل إلى حد صعب فيه نقلها إلى العربية بدقة.

ذلك الأمير ثلاثين ألف دينار ذهبي، ومائة مارك من الذهب، بالإضافة إلى رشوة مقدارها أربعة جمال، وفهدين، وأربعة صقور، قد تسلمهم اللاند غريف، وقد وافقوا، مقابل هذه الهدايا على إيقاف الهجوم على المدينة، وترك أبراج حصارهم تحترق.

رسالة الملك رتشارد بشأن مستشاره

وأصدر في هذه الآونة رتشارد ملك انكلترا رسائل بعث بها إلى جميع التابعين من رعيته في جميع أرجاء انكلترا، كان نصها كما يلي: « من رتشارد بفضل الرب إلخ: نحن نأمركم ونحثكم بالنسبة لما يتعلق بنا وبمملكتنا، وكذلك بكم أنفسكم وبممتلكاتكم، لابل في جميع الأشياء، أن تكونوا طائعين إلى صديقنا، والعزيز علينا، المستشار، أسقف إيلاي، في جميع الأشياء التي فيها فائدة لنا، وأن تعملوا معه وتطيعوا أوامره لصالحنا، وكأننا نحن أنفسنا كنا في المملكة، شهدت على ذلك بنفسي في Bayonne.

حول قادة اسطول الملك رتشارد والقوانين

التي عملت ضد المجرمين

وفي هذه الآونة اختار الملك رتشارد وعين في اجتماع للنبلاء: جيرالد رئيس أساقفة أوكسين Auxienne وبرنارد أسقف بافاريا، وروبرت دي سابل Sabels، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فوريت Foret ، ليكونوا قضاة للأسطول المتحد لانكلترا، ونورماندي، وبريتاني، وبواتو، الذي كان على نية الإبحار إلى الأرض المقدسة، وبعث برسائل يرخصهم بها كانت كما يلي: « من رتشارد بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى جميع رعاياه الذين على نية الإبحار إلى الأرض المقدسة، التحيات: ليعلم جميع الناس، بأننا عملنا هذه القوانين التالية بناء على نصيحة مجلسنا الجيد: كل من يقتل على ظهر السفينة رجلاً

آخر، سوف يربط بالرجل الميت، ويلقى في البحر معه، وكل من يقتل رجلاً آخر على اليابسة يربط مع الرجل الميت، ويدفن معه، وإذا ما أدين أي واحد لإشهاره سكين ليضرب بها واحداً آخر، أو أنه أسال دم من واحد آخر، فإنه سوف يفقد يده، وإذا ما ضرب أي واحد انسانا آخر، فإنه سيغطس بالبحر ثلاث مرات، وكل من يقدم إهانة، أو ملامة، أو لعنة لرفيقه، فإنه سيجري تغريمه بأونسات من الفضة، بقدر ما قام بإهنته، والسارق الذي يدان بالسرقة سوف يجري صب قار يغلي على رأسه، وبعد ذلك يجري رش رماد فوقه ليعرف بذلك، ولسوف يطرد من السفينة عند أول ميناء تصل إليه»، وقد جعل الجميع فرداً فرداً يقسمون على الحفاظ على هذه القوانين، وأنهم بناء على ذلك سوف يطيعون رجال العدالة المتقدم ذكرهم، وبعد هذا أمر قادة اسطوله بالاقلاع واللقاء في مرسيليا.

كيف تسلم الملك رتشارد الصك والعصا في فنزلي

التقى في هذا العام الملكان الفرنسي والانكليزي في ثمانية القديس يوحنا المعمدان، في فينزلي، حيث كان جسد القديسة مريم المجدلية مدفوناً، وقد مكثا هناك لمدة يومين، وهنا تسلم الملك الانكليزي الصك والعصا في كنيسة القديس دنس، وانطلق بعد هذا الملكان مع جميع قواتهما نحو ليون على الرون، حيث عندما كانا هما وشطر من جيشهما يعبران الجسر، تحطم الجسر، فغرق كثيرون من كلا الجنسين، وافترق بعد هذا الجيشان، لأن مكانا واحداً لم يكن واسعاً بما فيه الكفاية لاستيعاب مثل تلك القوات الضخمة عندما تتحد، وأخذ الملك الفرنسي الطريق إلى جنوى، واتجه ملك انكلترا نحو مسينا، ولدى وصول رتشارد إلى ذلك المكان وجد أن كثيراً من الحجاج قد أنفقوا أموالهم، بسبب إقامتهم الطويلة هناك، واحتفظ الملك رتشارد بعدد كبير من هؤلاء وألحقهم بجيشه، وبعدها أقام هناك في ذلك المكان لمدة ثمانية

أيام، وهو يتوقع وصول اسطوله، وجد أنه خدع بآماله، فجمع عشر بطسات كبيرة، وتسعة غلايين جيدة التسليح، وأقلع بهذه المراكب، ذلك أنه كان قلقاً بسبب تأخر أسطوله، ولكي لا يبدو أنه كان كسولاً، أبحر مع قوة عسكرية جيدة، فعبر من أمام جزيرة القديس اسطفان، فأكويليا Aquileia ، فالجبل الأسود، فجزيرة القديس هونوراتوس Hon- oratus، فمدينة ميس Meis، ثم المدينة التي اسمها ويتيليامين Win-tilimine، ثم ارتحل من هناك إلى قلعة سين Seine ، وفي اليوم الرابع عشر من آب، وصل ملك الانكليز إلى ميناء دوفين Dauphin، ومكث هناك خمسة أيام، وعندما كان في ذلك المكان، أرسل إليه ملك الفرنسيين يطلب منه تزويده بخمسة غلايين، وقدم له الملك الانكليزي ثلاثة، لكنهم رفضوا من قبل الملك الانكليزي، وفي الرابع والعشرين من آب، وصل الملك إلى بورتوير Portesweire، الذي وقّع في منتصف الطريق بين مرسليليا ومسينا، وبعد عبوره بأمكان مختلفة دخل إلى نهر التاير Tiber ، الذي كان يوجد قرب مصبه برج ممتاز، والتقى في هذا المكان مع أوكتافيان أسقف أوستيا، مع رسالة لصالح البابا، بأن يزوره الملك، وقد رفض الملك هذا، قاذفاً الأسقف بالسيمونية، والكهنة الرومان بالجشع، مع تهم أخرى كثيرة، مضيفاً بأنهم قد تسلموا سبعمائة مارك، من أجل تكريس أسقف مين، وتلقوا ألفاً وخمسمائة مارك فضي من أجل منح نيابة البابا إلى وليم أسقف إيلاي، وعلاوة على ذلك تسلموا مبلغاً كبيراً من المال من رئيس أساقفة بوردوكيس Bour- deaux ، الذي اتهم بجريمة من قبل كهنته، وبناء عليه، دخل، بعد رفضه زيارة روما إلى أبوليا قرب مدينة كابوا Capua.

كيف عين الملك رتشارد ابن أخيه آرثر ولياً لعهد

وأعطى في هذه الآونة، تانكرد ملك صقلية] الذي خلف الملك وليم] إلى الملك رتشارد عشرين ألف أونسة فضة، من أجل أن يحتفظ

بشروط للسلام معه، ومقابل جميع مآدعاه ضده، وكمية من الذهب، مقابل الدعوى المتعلقة بالوصية التي كان الملك وليم قد عملها لصالح الملك هنري، والد رتشارد، وتقديراً للزواج الذي جرى التعاقد عليه بين آرثر دوق بريتاني وابنة الملك تانكرد، وبناء عليه عين الملك رتشارد آرثر المتقدم ذكره ولياً لعهد، في حال وفاته من دون أي وريث شرعي، وانطلق بعد هذا على طريق حجه.

كيف تركت الملكة إليانور مع ابنها لدى مغادرته بيرنغاريا

قررت في هذه الآونة الملكة إليانور، السير خلف ابنها الملك، وقد عبرت جبل جانوس Janus ، وسهول ايطاليا، والتقت به أخيراً، وبعدها أمضت معه أربعة أيام، حصلت على إذنه ورجعت إلى انكلترا، وتركت مع ابنها بيرنغاريا، ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد سيتزوجها، لأن الملك رتشارد كان قد أعطى الملك الفرنسي عشرة آلاف باوند كترضية له من أجل عدم زواجه من أخت هذا الملك، وبهذه الاتفاقية تخلى أيضاً ملك الفرنسيين عن مطالبتهم بقلعة غيسور وجميع فكسين Vexin.

وفي هذا العام أيضاً، عبر فردريك الامبراطور الروماني، في السنة الأربعين من حكمه، خلال بلغاريا، في طريقه إلى القدس، وفي أثناء زحفه من قونية نحو أنطاكية، وبعدها عبر بأمان جيشه النهر الأسود، سقط الامبراطور من على حصانه في الماء وغرق.

كيف ظهر توماس الشهيد المبارك إلى قادة اسطول الملك رتشارد

تعرض في العام نفسه اسطول ملك انكلترا إلى كثير من المخاطر، ففي طريقه إلى لشبونة استدار حول الجبل المرتفع الذي اسمه غدتيرا Go-desterre، ثم عبر بريتاني والقديس متى أوف فنزيترا Finisterre على يساره، والمحيط الذي كان عليه طريقه إلى القدس على اليمين، ثم غادر

بواتو وغسكوني على يساره، وكان الاسطول في يوم صعود ربنا في البحر الاسباني، وتعرض وقتها الاسطول إلى عاصفة فرقت السفن على الفور، وفي أثناء هياج العاصفة، وعندما كان الجميع خائفين يدعون إلى الرب، ظهر توماس الشهيد المبارك، رئيس أساقفة كانتبري في أوقات ثلاثة متنوعة، إلى ثلاثة أشخاص مختلفين، كانوا على ظهر سفينة اللندنيين، وقال لهم: «لاتخافوا، لأنني أنا، وإدموند الشهيد المبارك، والقدس نيقولا المعترف، قد جرى تعييننا من قبل الرب، من أجل حراسة اسطول ملك انكلترا، وإذا مانأى البحارة وقادة الاسطول بأنفسهم عن الذنوب، وتابوا من ذنوبهم الماضية، سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة، وسيوجه سبلهم في ممراته»، وسمعت هذه الكلمات ثلاث مرات متواليات، وإثرها اختفى القديس توماس، وتوقفت العاصفة وهدأت، وكان بين بحارة تلك السفينة واحداً اسمه وليم ذي اللحية، وآخر اسمه وليم فترز— أوسبرت Fitz- osbert، وغيوفري العامل بالذهب، وكان معهم كثيراً من سكان لندن، وعبر هؤلاء الآن لشبونة، ورأس القديس فنسنت Vincent ثم اقتربوا من مدينة اشبيلية، التي شكلت آنذاك النهاية القصوى للمسيحية في اسبانية، وفي الحقيقة كان الايمان المسيحي مايزال ضعيفاً هناك، لأنها قد غدت مسيحية قبل عام واحد مضى، حيث جرى الاستيلاء عليها وانتزاعها من سلطة المسلمين، ووجه بحارة السفينة اللندنية، سفينتهم وقادوها على مقربة من المدينة، فوجدوا بعض الاشارات الدالة على سكنى المسيحيين هناك، ولذلك رسوا هناك، وقد استقبلوا بكثير من التكريم من قبل الأسقف وبقية السكان، وكان على ظهر هذه السفينة ما يزيد على ثمانين من الشباب المسلحين، بهم احتفظ أهل المدينة مع ملك البرتغال، وأبقوهم في خدمتهم، وذلك لخوفهم من ملك المغرب، وأعطوهم كل نوع من الضمانات في أن يدفعوا لهم الذي يطلبونه، ووعدوهم بالاضافة إلى ذلك هدايا كثيرة، وإلى جانب هذه السفينة كان هناك مايزيد على عشر سفن

من الاسطول الانكليزي، مع بحارتها قد تفرقوا هنا وهناك، وأخيراً، وصلوا بفضل من الرب إلى مدينة لشبونة بوساطة نهر تاجه Tagus، وبعد هذا كان رئيس أساقفة أوكسيا Auxia ، وروبرت دي سابل Sables، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورترز Fortz، قد أخذوا طريقهم بين أفريقيا واسبانيا، ووصلوا بعد كثير من العواصف، في ثمانية القديسة مريم إلى مرسيليا، وكان ذلك مع جميع الاسطول الذي كان تحت عهدهم، وقد وجدوا الملك هناك، لذلك توقفوا للقيام بالترميمات الضرورية لسفنهم.

كيف نزل بلدوين رئيس أساقفة كانتبري مع آخرين في صور

في حوالي الوقت نفسه، كان بلدوين، رئيس أساقفة كانتبري، ووالف دي غلانفيل، وهيوبرت أسقف أوف سالسبري، الذين كانوا مسؤولين رسمياً عن العدالة في انكلترا، والذين تقدموا على الملك الانكليزي في الرحلة نحو القدس، قد أخذوا طريقاً مباشراً، مخلفين صقلية على اليسار، ووصلوا بعد المعاناة من كثير من المخاطر، إلى صور، في حوالي أيام عيد القديس ميكايل، وكان جون أوف نورويك قد ذهب إلى البابا، فحصل منه على الاذن، فوضع جانباً صليب الرب، وأخذ حقايبه، وعاد إلى انكلترا، وقد تحلل من عهده.

نشوب خلاف بين الملكين في مسينا

وصل في السادس عشر من إيلول من العام نفسه فليب الملك الفرنسي إلى مسينا، وتمت استضافته في قصر الملك تانكرد، ووصل الملك رتشارد في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، لكن لم يسمح له بالدخول إلى المدينة، لأن الفرنسيين كانوا خائفين من أن الأطمعة سوف لن تكون كافية للحشود التي تبعت الملكين، ولدى سماع رتشارد بذلك، أرسل قاداته إلى شيوخ المدينة، وطلب منهم بيع مؤن إلى جيشه، حتى

لا يتعرض أفراده إلى ضغط الحاجة، وقد رغب سكان المدينة بفتح أبوابهم واستقبال مثل هذا الأمير العظيم والترحيب به، لكن الفرنسيين لم يسمحوا لهم، فقد تسلقوا فوق الأسوار، وهم يحملون السلاح، وقرروا الدفاع عن الأبواب، وعند هذا أمر الملك رتشارد عساكره بأن يهبوا إلى السلاح، وأن يشقوا بالقوة طريقاً له ولأتباعه، على الرغم من أعدائهم، وأطاعت العساكر أوامر الملك، وهاجمت الأبواب، وشقت طريقها بالقوة إلى المدينة، وبعدها قتلوا عدداً من الفرنسيين، حيث كان ملكهم على رأسهم، أرغموا البقية على الفرار، وعندما بلغت هذه الأخبار إلى مسامع الملك الفرنسي شعر بغضب عظيم جداً ضد الملك الانكليزي، ولم يخلص نفسه من ذلك طوال حياته، ومع ذلك اجتمع الملكان، وتحادثا بسلام، وكان ذلك في اليوم نفسه، ولم يأتي على ذكر ماحدث.

كيف أخضع الملك رتشارد بعض الحصون

في الرابع والعشرين من ايلول من هذا العام، صعد الملك الانكليزي إلى سفنه، وأراد الاقلاع لكن الريح لم تكن مواتية، فعاد إلى مسينا في اليوم نفسه، وفي الثلاثين من ايلول عبر الملك رتشارد نهر الفار Var، واستولى على مكان حصين جداً في كالبيريا كان اسمه لابامير Lab-amare ، ووضع هناك أخته جوانا، التي كانت ملكة صقلية من قبل، وعاد إلى مسينا، واستولى في اليوم التالي على حصن اسمه دير الغريفون Griffones ، بين مسينا وكالبيريا، وقام الغريفون في هذا المكان بهجوم على هيوج برون Brun ايرل أوف مارش March، وقد جرى ردهم من قبل رتشارد، وبناء عليه أغلقوا أبواب المدينة، وحملوا أنفسهم إلى الشرافات، ومن هناك قتلوا وجرحوا عدداً من رجال الملك وخيوله، وغضب الملك لهذا وهاجم واقتحم الأبواب، واستولى على المدينة، ومركز في الرابع من تشرين الأول أتباعه فيها، وفي اليوم التالي

أعطى شيوخ المدينة رهائن من أجل رعاية صحيحة للسلام من قبلهم، وشيد بعد هذا قلعة هناك، أطلق عليها اسم ميت- غريفون Mate-Griffon، وعُقد في هذه الآونة مؤتمر اقليمي، كان الرئيس فيه، وليم أسقف إيلاي، النائب للكرسي الرسولي، لكن الذي أنجز في هذا المؤتمر كان قليلاً أو لاشيء من أجل تهذيب الكنيسة الانكليزية.

كيف تحررت الكنيسة النورماندية من نير العبودية

وفي هذه الآونة تحررت كنيسة الرب في نورماندي- بموافقة الملك رتشارد- من نير العبودية الذي تحملته طويلاً، فقد تقرر بالدرجة الأولى، وجاء ماتقرر بمنحة من الملك، أنه بالنسبة للكهنة، لايجوز اعتقالهم بأي حال من الأحوال من قبل السلطات المدنية، كما كانت العادة من قبل، مالم يكن ذلك من أجل قتل، أو سرقة، أو الاحراق عمداً، أو جرائم من هذا النوع الرهيب، وأن يكون ذلك على الفور بناء على طلب القضاة اللاهوتيين، حيث يتوجب تسليمهم للمحاكمة في محاكم لاهوتية، وبالإضافة إلى ذلك فإن جميع المسائل المتعلقة بعدم الوفاء بالعهد، أو الحنث باليمين، يجري تقريرها في هذا السياق في البلاط اللاهوتي، وأيضاً بالنسبة لقضايا المهور، أو هدايا الزواج، حيث كانت تجري المطالبة بمقتنيات أو بسلع حية، فهذه سوف يشار إليها من قبل التحكيم الكنسي، وأيضاً فيما يتعلق بالمتلكات الديرية، وانتخاب رعاة الدير، ورؤساء الرهبان، وراعيات الراهبات، فإن هذا كله ينبغي أن يتم بموافقة أسقفهم، وكذلك ليس للمحاكم المدنية صلاحيات حيث يمكن للمحاكم اللاهوتية البرهنة على ذلك، إما بالفعل، أو بشكل آخر إذا كانت الملكية صدقة أو وقف، وأن هذا ينبغي الإشارة إليه في قرار القضاة اللاهوتيين، وكذلك إن التصرف بالمتلكات الممنوحة بوصية ينبغي اقراره من قبل السلطات الكنسية، وأنه لايجوز استخراج عشر من ذلك، وكذلك بالنسبة لسلع الكهنة، ومع أنه قد قيل

بأنهم كانوا يبارسون الربا، فإنهم إذا ماماتوا، ليس للسلطات المدنية من صلاحيات تجاه مخلفاتهم، بل إنها ينبغي توزيعها من قبل السلطات الأسقفية على أعمال تقوية، وكذلك مها كانت الممتلكات التي أودعها رجال علمانيون أثناء حياتهم، وتحت أي عنوان غربوها، ومع أنه يمكن تسميتهم مرايين، الأمر نفسه، لا يجوز نقضها بعد موتهم، ولكن أي شيء أمكن العثور عليه غير مغرب بعد موتهم، وإذا أمكنت البرهنة على أنهم كانوا مرايين في أيام موتهم، فالذي ينبغي هو مصادرتهم، وكذلك إذا كان شخص ميت كان لديه أية رهينة قد حصل بها على الفائدة، فإن حصته ينبغي إعادتها إلى المودع للرهينة، أو إلى ورثته، والشئ نفسه ينبغي عمله بخصص زوجته وأولاده بعد موتهم، وإذا مات أي واحد موتاً مفاجئاً، أو بوساطة حادث، وكان من غير الممكن توزيع ممتلكاته، فإن توزيعها ينبغي أن يعهد به إلى السلطات الكنسية.

موت بلدوين رئيس أساقفته كاتربري

وفي هذه الآونة كان بلدوين رئيس أساقفة كاتربري، على حافة الموت في عكا، ف تبرع بجميع ممتلكاته لمساعدة الصليبيين في الأرض المقدسة، وبعد وفاته تولى هيوبرت أسقف سالسبري- الذي كان رئيس الأساقفة قد عينه منفذاً لوصيته- توزيع ممتلكاته بأمانة ولاستعمالات تقوية، وكان قلقاً حول حرس المعسكر، فدفع لهم، مثلما قرر رئيس الأساقفة في أيام حياته أن يفعل، وعين رواتب لعدة أيام لعشرين فارساً، وخمسين لخدمهم، وقد أخذ على نفسه العناية دوماً بالفقراء، ملقياً عين الرحمة على المعوزين، وقائماً في جميع الأحوال بواجبات أسقف صالح.

هذا ولم تتأثر عكا بالحملة المتوالية للصليبيين، وقاومت بشجاعة وتصميم، لأنها كانت محاطة بأسوار جيدة، وكانت مشحونة بشكل جيد، ومزودة بالآلات الحربية، علاوة على ذلك كان جيش صلاح

الدين محيطاً بالمحاصرين من جميع الجهات، ولهذا السبب وبسبب انسحاب بعضاً من الصليبيين، وكذلك بسبب الأعداد الكبيرة التي قتلت منهم، فإن جيش المسيح قد ضعف كثيراً، ومع ذلك فإن الصليبيين الذين وثقوا بمساعدة المسيح، كانوا متأملين أنه سيكون بإمكانهم تحمل المصاعب ومتاعب الحصار حتى وصول الملكين، ذلك إذا ما وصلوا إليهم مع أيام الفصح، لكن إذا لم يصلوا فإن أموالهم ستكون أنفقت، واستهلكت، وسوف تتبدد جميع الآمال بمعونة أرضية.

حول تشامخ ولیم أسقف إيلاي ومستشار انكلترا

أمر في هذه الآونة ولیم، قاضي انكلترا، ونائب الكرسي المقدس، بحفر خندق عميق حول برج لندن، آملاً أن يكون قادراً على جلب المياه من نهر التيمز إلى المدينة، لكن بعد انفاقه كثيراً من الأموال من الخزينة، تبرهن أن جهوده بلاثمار، علاوة على هذا أصبح هذا المستشار نفسه عظيماً جداً بين جميع شعوب الغرب، وكان في انكلترا هو ملك وراهب معاً، ولم يعد يبدي اهتماماً بأي شيء، ذلك أنه لم يعد قانعاً بالمكانة الأسقفية لوحدها، بل أظهر بأن تفكيره مرکز على أشياء كانت عالية جداً بالنسبة له، ذلك أنه أظهر عبثيته وعجرفته بقوله في مطلع رسائله كلها: «نحن ولیم، أسقف إيلاي بفضل نعمة الرب، ومستشار مولانا الحاكم، وقاضي انكلترا كلها، ونائب الكرسي الرسولي، التحيات، إلخ»، وقد مارس تجاوزات كثيرة بوساطة مراتبه التي شغلها، والتي حصل عليها بوساطة الرشوة، وسعى إلى ترميم المؤسسات المقدسة التي سلبها في سبيل حصوله على مراتبه، وكان يوزع الأموال على موائده، حتى يتمكن من القدوم ثانية واستخراج الأموال نفسها، لكن مع فائدة، ذلك أنه مارس واجبات النيابة البابوية، التي حصل عليها بكلفة ألف باوند من الفضة، وبات متعجرفاً إلى حد غدا فيه عبثاً ثقيلاً على جميع المؤسسات في انكلترا من كل من الدير، والكاتدرائيات، وفي الحقيقة

ارتحل خلال انكلترا كلها مع رتل تألف من ألف وخمسة مائة من الخدم، ورافقه أيضاً حشد من الكهنة، وأحاطت به كتائب من الجند، وقد أهمل جميع الأشياء التي ارتبطت بمرتبته الأسقفية، وقد خدمه على مائدته جميع أبناء النبلاء الذين زوجهم من حفيداته مع الاناث من قريباته، وقد اعتقد الذين احتفظ بهم، بمشابهة خدم، أنفسهم محظوظين، ولم تكن هناك أرض معروضة للبيع إلا واشتراها، ولم تكن هناك كنيسة فارغة أو دير شاغر، إلا ووزعه أو احتفظ به لنفسه، ولم تكن هناك قلعة من القلاع أو بلدة من البلدات إلا وحاول الحصول على الوصاية عليها، عن طريق التهديد أو الرشوة، وبهذه الأعمال، وبتصرفات مماثلة في سماتها، ألقى الرعب في قلوب الناس، وصارت مملكة انكلترا صامتة بحضوره، وما من أحد تدمر، لأنه لم يبق في انكلترا قوة تقاومه، وكان موكبه مكوناً من:

Ambubaiarum collegia, Pharmacopolae,

òMendici, mimae, balatrones, hoc genus omne.

وهكذا عندما كان يسير على الأرض، كان تتبعه جميع أنواع الموسيقى والغناء، مثلما يتبع الملائكة المقدسون الرب الكلي القدرة في السماء، ولقد عمل في كل مجال تماماً بطريقة بدا فيها وهو يسعى لأن يضع نفسه على سوية الرب، ولسوف نحكي خبر نهاية هذا كله في أحداث التاريخ المقبلة في وقتها.

حول الموتان عند عكا

عام ١١٩١م، فيه مات بعد موت بلدوين، المجل رئيس أساقفة كانتربري، نبلاء وفرسان مجريين بشكل جيد وأقوياء، وذلك أثناء حصار عكا، وقد قيل بأن ذلك جاء بسبب الأجواء غير الصحية، وكان بين هؤلاء رالف دي فولتشر، والكونت روبرت دي بيرشي، وثيوبولد أوف

بلوا، وأخوه الكونت ستيفن، والكونت الابن للامبراطور فردريك، وايرل فيرار Ferrars ، والاييرل روبرت دي ليستر، ووالف دي غلانفيل، ووالف هوتيراييف Hauterive، ورئيس أساقفة كولستر، وإلى جانبهم آخرون لايمكن تعدادهم، وفي تلك الأثناء كان الملك هنري الانكليزي مع الملك الفرنسي، ينتظران في صقلية حلول الربيع حتى يتجنبنا السفر في الشتاء.

ومات في هذا العام أيضاً البابا كليمنت، بعدما شغل الكرسي الرسولي لمدة أربعة عشر شهراً، وقد خلفه سيلستين، الذي كان يعرف من قبل باسم هايأسينثوس Hyacinthus.

كيف أقلع فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا من مسينا

وفي التاسع والعشرين من آذار من هذا العام أقلع الملك الفرنسي من مسينا، وأبحر مباشرة باتجاه القدس، ولحقه في العاشر من نيسان الملك رتشارد، وسط أهبة عظيمة، مع أسطول تألف من ثلاث عشرة بطسة من ذوات الأشرعة الثلاثة، إلى جانب مائة سفينة نقل، وخمسين غليون من ذوي الصفوف الثلاثة للمجدفين، وبعد مسير عشرين يوماً اقتربوا من جزيرة رودوس، وبعد عشرة أيام رسوا عند قبرص، هذا وقدم اسحق حاكم الجزيرة، الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور، مع قوة مسلحة كبيرة، لمنع الملك من الدخول، وأسر عدداً من أتباعه كانت سفينتهم قد جنحت، وسلبهم، وألقاهم في السجن ليموتوا جوعاً، وقام الملك الانكليزي، وهو يتحرق غضباً، بمهاجمة عدوه، وهزمه على الفور، وأخذه أسيراً واحتفظ به، وأخضع ابنته الوحيدة مع الجزيرة كلها وكل الأماكن الحصينة، وعمل اسحق اتفاقاً مع الملك في أن لا يبقيه بأغلال من حديد، ووفى الملك بوعدده، وغلّه بأغلال من فضة، وأمر بوضعه في قلعة قريبة من طرابلس اسمها المرقب، لكنه احتفظ بابنته مكرمة مع الملكتين تحت الحراسة في بيته الخاص به، وفي سبيل انعاش نفسه وأتباعه

بعد رحلتهم المتعبة، ومن أجل الحصول على المزيد من المؤن الطازجة قرر الملك رتشارد التوقف في هذه الجزيرة، من دون إلحاق الضرر بأي إنسان، لكن اسحق المتقدم ذكره منعه من محاولة الدخول إلى أراضيه، لابل أكثر من هذا منع كل واحد من رعيته بيع أية مؤن إلى جيش الملك الانكليزي، أو عرض أية أدوات وأشياء أمامهم لبيعها، وبهذه الوسائل أغضب الملك وأثاره، وأرغمه على انزال ماكان قد أنزله به من أضرار ذكرناها من قبل، وعندما تمكن الملك أخيراً من الحصول على أموال الجزيرة، وأعاد ترتيب الأمور بها بما يرضيه، تزوج من بيرنغاريا ابنة ملكة نافار، وهي نفسها التي كانت الملكة إليانور قد أحضرتها له عندما كان مقيماً في صقلية.

وفي اليوم الرابع من اسبوع الفصح لهذا العام كرس البابا سيلستين هنري ابن الامبراطور فردريك امبراطوراً، وفي هذا العام أيضاً مات فيليب كونت أوف فلاندرز، الذي أبحر نحو الأرض المقدسة مع الملك الفرنسي، من دون أن يخلف أولاداً.

كيف جرى سجن غيوفري رئيس أساقفة يورك في دوفر

وحدث في هذه الآونة أن جرت سيامة غيوفري المنتخب ليورك، أسقفًا، من قبل بارثوليميو رئيس أساقفة تور، وجاء ذلك بناء على أوامر الحبر الأعظم، وانطلق غيوفري بعد سيامته يريد انكلترا، ووصل مع أتباعه إلى دوفر، وكان متي دي كلير Clere عمدة تلك الكونتية قد تلقى قبل وقت قصير رسالة من وليم أسقف إيلاي جاء فيها مايلي: «نحن نأمرك إنه إذا ماوصل الأسقف المنتخب ليورك إلى أي ميناء، واقع تحت سلطتك، أو أي رسول من قبله، أن تتولى اعتقاله حتى تتلقى أوامرنا متعلق به، ومثل هذا نأمرك أن تتولى احتجاز جميع رسائل مولانا البابا، أو رسائل أي رجل عظيم، يمكن أن تصل إلى هذه المناطق»، وبناء عليه عندما عرف متي بوصول رئيس الأساقفة، قام بناء

على نصيحة أخت أسقف إيلاي، التي كانت وقتذاك مسؤولة عن القلعة، بتنفيذ تعليماته من دون إبطاء، فحاصره لمدة ستة أيام ومعه عصابة من الرجال المسلحين، في مقر رئاسة رهبان القديس مارتن، وأنزله إلى ضائقة شديدة، ذلك أنه في تلك الأثناء حصل على المؤن بصعوبة بالغة، وكان ذلك عن طريق الصدقات التي كان من الممكن وصولها له، هذا وازدادت خيانة الساخطين يومياً، ووصل إلى الكنيسة المذكورة أعلاه مجموعة من جنود أسقف إيلاي مع العصي، واندفعوا وهم مسلحين إلى حضرة رئيس الأساقفة، وأمروه بصلف وبشكل حاسم بمغادرة المملكة من دون تأخير، وبالإبحار إلى فلاندرز، وقد رفض إطاعة هذه الأوامر، ووقف ورداؤه فوق كتفيه والصليب بيديه، فسحب بالقوة من أمام المذبح، وجر من قدميه، ومن ذراعيه، ومن رجليه، ورأسه يلتطم بالأرض، وأخذ مع كهنته، ورجال الدين الذين جاءوا لرؤيته من مناطق كثيرة، وحملوه إلى القلعة، وألقوه بالزنزانة، حيث بقي سجيناً مضيقاً عليه لمدة ثمانية أيام، ووصلت أخبار هذه المعاملة إلى أسقف لندن، فذهب هذا الأسقف على الفور إلى المستشار، وبعد كثير من المصاعب، وبعد معالجات طويلة، حصل على اطلاق سراح رئيس الأساقفة، لكن بعدما أعطى أسقفيته كلها ضماناً له، وبناء عليه أطلق سراح رئيس الأساقفة، وخرج من السجن، وقدم إلى لندن، حيث استقبل من قبل الأسقف، والكهنة والشعب بكل تشريف، وبمسيرة مهيبه، ويعزى إلى هذا العمل الطائش — كما ستظهر أحداث التاريخ المقبلة فيما بعد — كثيراً جداً مما حل فيها بعد من إهانات بالمستشار.

كسوف متميز للشمس

في شهر حزيران من العام نفسه، ظهر يوم الأحد، عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، في حوالي الساعة السادسة من النهار، كسوف للشمس،

استمر حتى الساعة الثامنة، وكان القمر وقتها في السابع والعشرين، وكانت الشمس في برج السرطان.

كيف استولى الملك رتشارد على مركب شحن كبير

وفي الحادي والعشرين من آذار، من هذا العام، وصل فيليب ملك فرنسا إلى عكا] كذا: علماً بأنه غادر مسينا في التاسع والعشرين من آذار]، ونزل الملك رتشارد الذي لحق به، في قبرص، مع كميات واسعة من المؤن، وسمع بأن جيش الملك الفرنسي كان يعاني في عكا من الجوع وندرة الحاجيات إلى حد أن سعر الربع من القمح صار يكلف ستين ماركاً، ولذلك بادر بالاسراع للتفريغ عن هذه الضائقة والآلام بسفنه المحملة بكميات كبيرة من القمح، وعندما كان مبحراً نحو عكا في ربح طيبة—وعكا هي المدينة التي كانت تعرف من قبل باسم بطوليس— رأى في الأفق، في السادس من حزيران، سفينة كبيرة اسمها درمونه Dromund، كانت مرسلة وهي محملة بكمية كبيرة من المال، من مدينة بيروت من قبل سيف الدين أخو صلاح الدين، الذي كان آنذاك سلطان مصر، وكانت مكلفة بحمل المساعدات إلى المسلمين المحاصرين في عكا، وكان مع المسلمين على ظهر هذا المركب النفوط، وكثيراً من الجرار المليئة بأفاعي سامة، وطاقم بحارة مؤلف من ألف وخمسمائة مقاتل، وذلك بالإضافة إلى ألف وخمسمائة من الرجال الأشداء، الذين بهم تقوت السفينة واندعمت، وأمر الملك رتشارد رجاله بالاستعداد على الفور للعمل، وصفت الغلايين إلى جانب بعضها بعضاً، ثم نشبت معركة قاسية بين الطرفين، لكن السفينة المعادية أصبحت يائسة بسبب توقف الرياح، وبعد بعض الوقت اقترب واحد من عمال التجديف لدى الملك، وكان غواصاً بارعاً، من سفينة المسلمين من تحت الماء، وفتح فيها ثغرة، وبعد ما فعل ذلك عاد تحت حماية المسيح، إلى سفينته، وأخبر الملك بالذي فعله، ودخل الماء في وقت قصير إلى السفينة،

ووصل سطحها، وعلى الفور فقد جميع البحارة الأمل بالنجاة، بعدما كانوا واثقين من سفيتتهم، وجرى اغراق ألف وثلاثمائة من هؤلاء بناء على أوامر الملك رتشارد، أما المائتين الذين بقيوا فاحتفظ بهم رهائن.

وصول الملك رتشارد إلى عكا والاستيلاء على تلك المدينة

وبعدما جمع الملك رتشارد جميع أسلاب السفينة المسلمة، وصل إلى ميناء عكا، الذي اتجه نحوه مع ريح موائمة، وفي الثامن من حزيران دخل الملك إلى الميناء، وزعقت أصوات الأبواق والنفير، وملأت أصوات القرون الهواء قرب الشاطئ، وأعيد التصويت بها حتى تملأ المنطقة الداخلية إلى مسافة بعيدة، وشجعت هذه الأصوات الصليبيين على القتال، لكنها قذفت بالرعب في قلوب المسلمين المحاصرين، لأنها أعلنت عن وصول مقدم كبير، وعبر الملك رتشارد عن مشاعره الطيبة وأظهرها نحو الجميع بتزويد الجيش الجائع بالأطعمة، ثم أعد الملكان على الفور، يعاونهما حشد من الفرسان والجنود المجانيق والآلات الأخرى ونشروها حول المدينة، وتمكنوا بوساطة وزن مقذوفاتهم، ومتابعة الرماية من المجانيق نهراً وليلاً، من دك أسوار المدينة، ولذلك أصيب المسلمون بالرعب، وفقدوا كل ثقة بقدرتهم على المقاومة، وأخيراً عقدوا اجتماعاً، وباشروا التباحث من أجل السلام، وكانت شروط الاتفاق، أن يعيد صلاح الدين الصليب الحقيقي، مقابل إطلاق سراح حامية المدينة، وكان هذا الصليب هو الذي استولى عليه أثناء القتال، وكان على صلاح الدين أيضاً إطلاق سراح ألف وخمسة من الأسرى الصليبيين، يجري اختيارهم من قبلهم، وبالإضافة إلى الاتفاق المتقدم ذكره كان عليه أن يدفع سبعة آلاف دينار، وبموجب ذلك جرى تسليم المدينة، بما كان فيها من سلاح وعتاد وكل شيء، باستثناء أشخاص المسلمين، إلى الملكين في الثاني عشر من تموز، وعندما حل موعد الدفع، لم يف صلاح الدين بما وافق عليه، وعقوبة على هذا الخرق الكبير،

وبسببه جرى اعدام ألفين وستمائة من المستسلمين، والذي احتفظ به كان عدداً صغيراً من الأعيان، حيث وضعوا في السجن، تحت تصرف الملكين.

كيف عاد الملك الفرنسي إلى بلاده بسبب الحسد

وبعد اخضاع المدينة أعدّ الملك الفرنسي نفسه للعودة إلى وطنه، وكان الحرب قد انتهت تماماً، ذلك أنه كان غاضباً إلى أبعد الحدود، لأن الفضل بنجاحات الجيش الصليبي قد عزيت كلها إلى الملك رتشارد، وبناء عليه تذرّع بالحاجة إلى المال، واتخذ الفقر عذراً فقال بأنه لا يستطيع الإقامة مدة أطول، لكن الملك رتشارد، الذي كان يتحرق رغبة لرفع شأن قضية الصليبيين، عندما سمع بهذا، وعد بأنه على استعداد لتزويد الملك الفرنسي بشطر جميع مملكته من مال، وموّن، وخيول وسلاح، وسفن، من أجل أن يبذلا الجهد متحدين في سبيل اخراج أعداء المسيح من الأرض المقدسة، ولكن الملك الفرنسي قابل هذا كله بأنه قد أقسم على العودة، وبتصميم بات أعد نفسه للعودة، ولم يعبا برفع أتباعه أصواتهم احتجاجاً على ذلك، واستثير الجيش كله وعبر عن انفعاله الكبير، ولذلك انطلق عائداً إلى بلاده مع فئة صغيرة برفقته، علاوة على ذلك نشب بين الملكين، عدم اتفاق بشكل سري، ولذلك اقترح ملك فرنسا تسليم مدينة عكا، وجميع المدن الأخرى، والقلاع والمناطق التي سوف يستولون عليها إلى مركزيز مونتفرات، وأن يجري تعيينه ملكاً على الأرض المقدسة، وهذه الغاية تزوج هذا المركزيز نفسه من ابنة الملك عموري، وأخت ملكة القدس التي توفيت مؤخراً، وكان الملك رتشارد معارضاً بشكل كلي لهذه الرغبة، وبرهن بشكل واضح، أن الذي عليهم فعله والذي هو الأصح هو إعادة الملك غي إلى مملكته، التي حرم منها منذ وقت قصير، بدلاً من تعيين واحد جديد، وهو ما يزال بين الأحياء، ولاسيما أنه كان من الواضح أنه فقد سيادته ليس بسبب تقاعسه بل

بسبب اقدمه وشجاعته في حرب حادة، وقع فيها بالأسر مثلما وقع الصليب بأسر المسلمين، وكان سبب ذلك تفوق عدد أعدائه، وضعف جيشه، ولقد كان هذا هو السبب الأساسي للخلاف بين الملكين المتقدمي الذكر، مع أن الخلاف قد تفجر بينهما في المقام الأول— وإن ظل مخفياً— في مسينا في صقلية، عندما استحوذ الملك رتشارد على المدينة بالقوة المسلحة، ودمر كثيراً من أتباع الملك الفرنسي، بسبب قسوة الجيش الفرنسي وفظاظته وسوء معاملته للانكليز، يضاف إلى هذا أن الملك الفرنسي رأى أن الناس من مختلف البلدان، الذين تدفقوا على الأرض المقدسة، قد وضعوا أنفسهم تحت قيادة الملك رتشارد، وأن شهرة رجولة هذا الملك ومقدرته قد إزدادت يومياً، وذلك بسبب أنه كان أفضل تزويداً بالمال، وأعظم كرمًا في منح الأعطيات، ثم إنه امتلك جيشاً أكبر، وكان أشجع في قتاله لأعدائه، ولقد اعتقد الملك الفرنسي بأن شهرته قد خبت وكذلك مقدرته تجاه ما تمتع به الآخر، ولذلك تعجل العودة، وبالإضافة إلى هذا كله، لقد رغب في أن يستحوذ لنفسه أراضي كونت فلاندرز الذي مات مؤخراً، وبناء عليه قام— بعدما أقسم أنه لن يغزو أراضي الملك الانكليزي، أو أراضي القادة الذين بقيوا معه— بالمغادرة، وتدبر الملك رتشارد بعد هذا ترميم الثلم في أسوار عكا، وتنظيف خنادقها، وشحنها بقوة من الرجال المسلحين.

نجاحات الملك رتشارد وتقدمه

بعد هذه الحوادث، وفي عشية يوم عيد صعود مريم المباركة، أخذ الملك رتشارد مع أتباعه المجريين الطريق خروجاً من أبواب عكا، وانطلق بجرأة زاحفاً ليحاصر، ومن ثم ليستولي على مدن ساحل البحر، وأمر بنصب معسكره على مقربة ومشهد من جيش صلاح الدين، وذلك في المكان الذي أعدم فيه الألفين والستمائة من المسلمين، كما تحدثنا من قبل، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى المسلمين الذين احتلوا

المدن الساحلية، خافوا من أن يقوم الملك أثناء غضبه بإنزال عقوبة مماثلة بهم، أي مثل العقوبة التي أوقعها بعكا، ولم تتوفر لديهم ثقة بمساعدة صلاح الدين لهم، بما أنه رفض أن يدفع فدية الآخرين التي طلبت منه، ولذلك أفرغوا مدنهم وهربوا على الفور لدى سماعهم باقتراب الملك، وكانت هذه هي الحالة مع سكان: حيفا، وقيسارية، وأرسوف ويافا، وغزة، وعسقلان، وهكذا— بإرادة من الرب— سقطت جميع المناطق البحرية في ذلك الشطر من البلاد في أيدي الصليبيين، وهذا على كل حال لم يكن من دون بعض القتال الحاد، لأن جيش صلاح الدين تبع من الخلف، أجنحة الجيش الصليبي، وأوقع ضربات قاسية بالأطراف، ونجم عن ذلك مذابح كبيرة من على الطرفين، وعانى منها الجيشين معاً، وبعدهما قام الملك رتشارد بتحسين المدن المتقدم ذكرها، عاد منتصراً إلى عكا،] وعاد بعد أيام إلى يافا التي هي غير بعيدة عن قيسارية، حيث أنزل بصلاح الدين هزيمة مهينة، وبعد ذلك منح مملكة القدس إلى هنري ابن أخته، مع أرملة مركيز مونتفرات كزوجة له، وأنقذ في الوقت نفسه آثار عدد كبير من القديسين كان صلاح الدين قد استولى عليها، ودفع مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال.]

وهذه الرواية التي قدمناها، نستطيع أن نفهمها أكثر بتقديم نص رسالة كان رتشارد قد بعث بها إلى وولتر رئيس أساقفة روان حول هذا الموضوع نفسه: « من رتشارد، بنعمة الرب، ملك انكلترا، الخ— اعرف بأن مولانا ملك فرنسا قد عاد إلى الوطن، وبعد ذلك تولينا ترميم الأماكن المهتمة والثلم في أسوار مدينة عكا، ثم قمنا بعد هذا في سبيل رفع شأن القضية الصليبية، ومن أجل الوفاء بأهداف نذرنا، فزحفنا إلى يافا، بصحبة دوق بيرغندي مع أتباعه الفرنسيين، والكونت هنري وعساكره، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات، هذا وتوجد منطقة شاسعة بين عكا ويافا، والطريق إلى هناك طويل، وبعد زحف

مديد، مع كثير من التعرق والتعب، وصلنا إلى قيسارية، وفقد صلاح الدين أيضاً بعضاً من أتباعه أثناء الزحف نفسه، وبعدهما استراح جيش الرب لبعض الوقت في يافا، استأنفنا مجدداً زحفنا الموفق، وعندما تقدمت طلائع قواتنا وكانت تنصب المعسكر قرب أرسوف، قام صلاح الدين مع حشد كبير من المسلمين بالهجوم على ساقية قواتنا، إنما بفضل الرب أرغم على الفرار، وقد طارده جنودنا لمسافة مرحلة، وأوقعوا مقتله كبيرة في ذلك اليوم بين أعيان المسلمين، وكان اليوم هو عشية عيد القديسة مريم، وهناك في أرسوف عانى صلاح الدين في يوم واحد مالم يعاني من مثله خلال أربعين سنة مضت، ووصلنا بعد هذا بعناية من الرب وإرشاد إلى يافا، ووقويناها مع خنادقها وأسوارها، ذلك أن هدفنا، هو أننا إلى حيث نستطيع الوصول، العمل على رفعة الشأن الصليبي، بقدر ما نمتلك من قوة، وفي الحقيقة، لم يتجرأ صلاح الدين، منذ يوم الهزيمة المتقدم ذكره أعلاه، على الاقتراب من الصليبيين والاشتباك معهم، لكنه نصب بشكل سري كمان لتدمير أصدقاء الصليب، مثله في ذلك مثل أسد في عرينه ينتظر الشاة المقدر لها الذبح، وكان — على كل حال — لدى سماعه بأننا كنا زاحفين بسرعة نحو عسقلان، قد قام بتدميرها وتسويتها بالأرض، والآن بما أنه لم تعد لديه خطة، ولا قدرة على التحرك والتحرير، ترك سورية كلها إلى قدرها، وهذا ماشجعنا، وجعلنا نمتلك آمالاً جيدة في أن نتمكن خلال وقت قصير من استرداد جميع ميراث ربنا — وداعاً ثم وداعاً».

كيف أعطى الملك رتشارد مملكة القدس إلى ابن أخته هنري

ولدى عودة الملك رتشارد إلى عكا، كما ذكرنا من قبل، أعطى ابن أخته هنري، مملكة القدس، مع زوجة مركز مونتفرات، لأنها كانت وريثة المملكة، بعد وفاة أختها ملكة القدس، ووافق على هذه الترتيبات برضا غي أوف لوزغان، الذي كان الملك المتقدم لتلك المملكة، وفي

سبيل ضمان السلام تسلّم هو جزيرة قبرص، التي كان انتزعتها في الحرب الأخيرة الملك الانكليزي من ملك تلك الجزيرة، وقدم غي الولاء إلى الملك الانكليزي من أجلها، وكان المركيز قد قتل مؤخراً في صور من قبل الحشيشية المسلمين، وبوفاته قيل بأن مملكة القدس صارت بموجب حق الوراثة لزوجته.

كيف أنقذ الملك رتشارد جميع الآثار المقدسة للأرض المقدسة

كان صلاح الدين قبل مضي بعض الوقت قد أسر غي ملك القدس، واستولى على صليب ربنا، وإثر ذلك مباشرة ألقى الحصار على القدس، وكان السكان الذين بقيوا في المدينة، محبطين بما نزل بهم، ويائسين من القدرة على مقاومة صلاح الدين، لذلك قاموا على الفور بتسليم المدينة له، وهو لم يسمح لأحد منهم بالمغادرة، ما لم يدفع عشرة دنانير فدية عن كل انسان، وتمكن الأغنياء على الفور من دفع الفدية عن أنفسهم، لكن سبعة آلاف رجل وجدوا في المدينة، كانوا لا يمتلكون وسائل الدفع، وقام بقية سكان المدينة بالعطف عليهم وتأسفوا لسوء حظهم، واتفقوا بالاجماع على أخذ الصلبان الذهب والفضة والكؤوس، والتمايم، وجردوا ضريح ربنا من زينته، وأخذوا الحلي الأخرى التي وجدوها في الكنائس، وأنقذوا بذلك فقراء أبناء المدينة، وجمعوا أيضاً جميع آثار القديسين التي وجدوها في المزارات، ووضعوها في أربعة صناديق كبيرة من العاج، ولدى استسلام المدينة لصلاح الدين، كان من بين الأشياء التي رآها بعدما استولى عليها هذه الصناديق، وقد سأل باهتمام عما كانت تحتويه، ثم أمر بإرسالهم إلى بغداد، وأن تعطى الصناديق إلى الخليفة، حتى لا يتمكن الصليبيون من متابعة الاعتزاز بعظام أناس أموات، وأن يتوقفوا عن الاعتقاد، بأن أصحاب العظام التي يعبدونها على الأرض سوف يشفعون لهم في السماء، لكن مقدم أنطاكية والبطريرك مع مؤمنين آخرين، كرهوا تماماً تشويه مثل هذه الذخائر

الشمينة، وفقدانها، فوعدوا، وأقسموا أنهم سوف يدفعون اثنين وخمسين ألف دينار، لانقاذ هذه الآثار نفسها، وأنهم إذا عجزوا عن دفع المبلغ المذكور، في موعد جرى الاتفاق عليه، سوف يتخلون عن الآثار المذكورة له ويعيدونها إليه، وأخذ مقدم أنطاكية الآثار وهي مختومة، وشعر الآن جميع أتباع المسيحية بحزن قاهر شديد، وباتوا خائفين، لأن موعد الدفع الميث من قبل صلاح الدين قد اقترب حلوله، وبات على المقدم المتقدم ذكره الذي أخذ الآثار معه أن يعيدها مختومة كما تسلمها، إلى صلاح الدين، هذا وسمع رتشارد الملك الانكليزي بهذا، وكان آنذاك بالفولة، وعلم بأن جميع الأشياء قد رتبت بشكل صحيح، فأمر على الفور بدفع المبلغ المتفق عليه إلى صلاح الدين مقابل الآثار المقدسة، وحافظ بتقوى على تعهدات القديسين بأن الذين ينقذون عظام رجال الرب هؤلاء من الأيدي غير التقية على الأرض، سوف ينالون الشفاعة لعون أرواحهم في السماء، وكان كل صندوق كبير الحجم كثيراً وثقيلاً جداً، إلى حد أنه تعذر على أربعة رجال حمله لأي مدة من الزمن.

اكتشاف آرثر الملك الأعظم شهرة في بريطانيا

وفي هذا العام نفسه، تم العثور على عظام آرثر، الملك المشهور لبريطانيا، وقد عثر عليها مدفونة في غلاستونبري في ناووس قديم جداً، قام إلى جانبه هرمين، وعليها كان محفوراً كلمات، لكنها كانت غير مفهومة بسبب خشونتها، وانعدام شكلها، وكانت مناسبة العثور عليها كما يلي: كان بعض الناس يحفرون في المكان نفسه قبراً، لراهب تمنى أثناء حياته بشغف في أن يدفن هناك، فوجدوا نوعاً من أنواع النواويس، عليه موضوع صليب رصاصي، مع هذه الكلمات محفورة عليه: « هنا يرقد آرثر المشهور، ملك بريطانيا، وقد دفن في جزيرة أفالون Avalon، وكان المكان محاطاً من جميع جوانبه بسبخ، وكان يعرف من قبل باسم »

جزيرة أفالون»، أي جزيرة التفاح، وفي هذا العام جرى تكريس روبرت، الذي كان راهباً نظامياً في كنيسة لنكولن، وكان ابناً لوليم مفوض الجيش في نورماندي وتم تكريسه في كاتري بري أسقفاً لوينكستر، من قبل وليم، نائب الكرسي الرسولي.

كيف أخذ الملك رتشارد تتولاه الشكوك تجاه المستشار

وأخذت في هذه الآونة تتوارد الشكاوى الجادة يوماً تلو آخر إلى الملك حول عجرفة مستشاره، وعن الأذى الذي ألحقه بكثيرين، ولهذا كتب إلى نبلاء انكلترا بما يلي: «نحن رتشارد ملك انكلترا، إلى مارشالنا وليم، وإلى غ. فتز — بطرس، وه. باردولف Bardolph، وو. برويير W. Bruyere، الخ، إذا صدف، ولم يقيم مستشارنا الذي عهدنا إليه بإدارة أمور مملكتنا، بالتصرف بإخلاص في تنفيذ واجباته، نأمركم باتخاذ الاجراءات من أجل إداره شؤون المملكة وفقاً لإخلاصكم واستقامتكم، وذلك فيما يتعلق بمسواريث الدولة والحصون»، وقدم في هذه الآونة إلى انكلترا، وليم رئيس أساقفة روان، حاملاً رسائل من الملك بهذا الخصوص جاء فيها: «نحن رتشارد، بنعمة الرب، ملك انكلترا، إلى وليم المارشال، والآخرين من نظرائه، تحيات — اعرفوا أننا رأينا من المناسب، أن نرسل إليكم، من أجل الدفاع عن مملكتنا وترتيب شؤونها، الأب المحبوب من قبلنا، وليم رئيس أساقفة روان، الذي استدعي من حجه وعاد بموافقة من الخبر الأعظم، وبناء عليه نحن نأمركم، ونفرض عليكم بدقة، أن تقوموا أثناء إدارة شؤوننا، أن تأمروا بكل شيء وفقاً لنصيحتته، وإن إرادتنا تقضي، أننا مادمننا في حجبنا، أن تتبادلوا الآراء مع بعضكم، في ترتيب جميع الأمور — هو معكم، وأنتم معه».

إهانة المستشار وسقوطه

في هذا العام نفسه، وفي يوم السبت التالي لعيد القديس ميكائيل، وبناء على طلب من الإيرل جون، أخو ملك انكلترا، اجتمع النبلاء الانكليز قرب جسر لندن فيما بين ردنغ ووندسور، لعقد مؤتمر حول المسائل الهامة بالنسبة للملك وللملكة، وفي اليوم التالي للمؤتمر، قام رئيس أساقفة روان، وكذلك رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ، ليكونوا حضوراً في المؤتمر، قاموا بشكل مهيب، ومع شموع مشتعلة، بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين أشاروا، أو ساعدوا، أو أمروا بالإبعاد عن الكنيسة، وبالمعاملة السيئة والسجن لرئيس أساقفة يورك، وذكروا بشكل خاص اسم ألبرت دي مارلين، والاسكندر بونتيل Puintil، وفي يوم الاثنين التالي، عرف الايرل المتقدم ذكره، بأن المستشار يخشى من هجوم منه عليه، فاقترح عليه، ليزيل من نفسه جميع الشكوك، القدوم إلى مؤتمر في مكان قرب قلعة وندسور، وذلك بناء على طلب المستشار، وأعطاه ضماناً على سلامته من قبل أسقف لندن، وعلى كل حال لم يقتنع المستشار بهذه الضمانة، فهرب على الفور، والتجأ إلى برج لندن، ولدى معرفة الايرل بفرار المستشار، جاء شخصياً إلى لندن، وعندما كان على وشك الدخول إلى المدينة، قابلته مجموعة من فرسان المستشار، بسيوف مجردة، وقام هؤلاء الفرسان بهجوم عليه وعلى أتباعه، وقتلوا واحداً من النبلاء اسمه روجر دي بلين Planes، وفي اليوم التالي الذي كان يوم الثلاثاء، اجتمع الايرل جون مع رئيسي الأساقفة، والأساقفة، والفرسان، والبارونات، في بيت هيئة كهنة كنيسة القديس بولص، وكان ذلك بحضور المستشار، وبعد نقاش طويل، أقسموا على الولاء للملك رتشارد، وكان الايرل جون أول من أدى اليمين، وتبعه رئيسا الأساقفة، وجميع الأساقفة، والفرسان والبارونات، الذين كانوا في الاجتماع، وفي

يوم الخميس التالي لهذا الاجتماع، جرى عقد مؤتمر آخر، في الجزء الشرقي من برج لندن، حضره النبلاء الذين تقدم ذكرهم، وفيه تقرر بشكل حاسم بالاجماع، وجوب عدم وضع مملكة انكلترا مرة ثانية تحت حكم رجل واحد، سببت إدارته انحطاط الكنيسة، وإنزال الناس إلى درجة الحاجة والعوز، لأن المستشار المذكور وأعوانه قد أنهكوا جميع ثروات المملكة، إلى حد أنهم لم يتركوا لانسان حزامه الفضي، ولا لامرأة طوقها، ولا لنبيلاً خاتماً، أو مالاً، أو أي شيء له قيمة عند يهودي، كما أنهم أفرغوا خزائنها، إلى حد أنه بعد مرور عامين، مامن شيء يمكن العثور عليه في صناديقها، غير المفاتيح وأواني فارغة، وتقرر أيضاً أن جميع الحصون التي قرر المستشار اسنادها إلى اتباعه، يتوجب عليه التخلي عنها وإعادتها، وفي المقام الأول برج لندن، ولقد أقسم المستشار على التقيد بهذه القرارات، وتطبيقاً لهذا قام يوم الثلاثاء التالي بمغادرة البرج مع آله وحاشيته، وعبر نهر التيمز إلى بيرموندسي Bermondsey، تاركاً أخويه: هنري، وأوسبرت Osbert ، بمثابة ضمانة لإعادة القلاع، لأنه أقسم على أنه لن يغادر المملكة، حتى يكون قد تم التخلي عن القلاع وتسليمها، ثم إنه ذهب من هناك إلى كانتربري، وحمل صليب الحج المقدس، متخلياً عن وظيفة النائب البابوي، التي شغلها لمدة سنة ونصف السنة، بعد موت البابا كليمنت، من أجل الإضرار بالكنيسة الرومانية، وكذلك بالكنيسة الانكليزية، وبعد فعله هذا ذهب إلى دوفر برفقة غيلبرت أسقف روكستر، وهنري دي كورنهل Cornhill ، وعمدة كنت، وظن أن بإمكانه اغلاق أعين البحارة هناك، فاقترح نوعاً جديداً من الخداع، فقد غير الرجل إلى امرأة، مثلما غير رداء الكاهن واستبدله بثوب عاهرة، حيث ألبس نفسه بثوب امرأة لونه أخضر، مع رداء من اللون نفسه ووضع قبعة على رأسه، وذهب نحو الشاطئ يحمل بعض الأقمشة الكتانية كأنها للبيع، وعندما كان الكاهن جالساً على هذه الصورة على صخرة قرب

الشاطيء، منتظراً ريحاً طيبة، كان هناك ملاح أراد أن يمزح مع المرأة، فاندھش لرؤيته سراويل على امرأة، فصرخ على الفور بصوت مرتفع قائلاً: « تعالوا إلى هنا، جميعكم، تعالوا إلى هنا وشاهدوا رجلاً بثياب امرأة»، وتجمع عدد من النساء من أهل البطالة، وسألن بإلحاح عن سعر القماش الذي حمله للبيع، فلم يجبهن، وكأنه كان لا يفهم اللغة الانكليزية، وبناء عليه تشاورن فيما بينهن، وتوجسن أن يكون محتالاً، لذلك وضعن أيديهن على حجابيه الذي غطى فمه، وجذبته ونزعه من على أنفه وسحبته نحو الخلف، فاكشفن ملامح رجل، داكن، وقد حلق مؤخراً، فصرخن على الفور إلى بعضهن بعضاً قائلات: « أقدمن، ودعونا نرجم هذا الوحش الذي أساء إلى كلا الجنسين»، واحتشد هناك وتجمع حشد من النساء والرجال، فانتزعوا قبعته من على رأسه، وبطحوه أرضاً وسحلوه بشكل مهين وجروه من أكمامه ومن رداءه، فوق الرمال والحجارة، مسببين الجراحة الكثيرة لهذا الأسقف، وبعد أمد جاء أتباعه لتخليصه، لكن من دون نجاح، لأن الناس لحقوه برغبة جامحة، وشموه، وهاجموه بالضربات، وبصقوا عليه، وبعدما سحلوه في الشوارع، ألقوه في الزنزانة سجيناً، وبذلك بات هدفاً لسخرية الناس، وكان من الممتنى أنه لو أهان نفسه فقط، ولم يهن الكهنوت كله، وهذا الذي تولى سحل رئيس أساقفة يورك وأودعه السجن، هو الآن قد جرى سحله وايداعه في السجن، وصار المعتقل الآن معتقلاً، والمقيد الآن مقيداً، والسجان سجيناً، وبناء عليه يمكن عدّ درجة العقوبة التي نالها متساوية مع درجة عدوانه، وأخيراً، لم يعط تقدير للرهائن التي أودعها، وأقسم أنه لن يغادر مملكة انكلترا قبل أن يجري تسليم القلاع، ولدى الفراغ من ذلك، عبر المستشار المذكور البحر إلى نورماندي في التاسع والعشرين من تشرين الأول.

حادثة لم يسمع بمثلها

وفي هذا العام نفسه، كان شاب من حاشية أسقف لندن، قد علم صقراً على اصطياد البط النهري الصغير فقط، وكان البط يطير فجأة ويهرب لدى سماع أصوات نقرات أداة اسمها الطبلية، كان يضرب عليها الذين سكنوا على شاطئ النهر، ولدى طيران البطات اعترض الصقر غنيمته، ثم اندفع نحو سمكة كراكي كانت تسبح في الماء، وأمسكها، وحملها بشكل مرثي لمسافة أربعين قدماً فوق اليابسة، واندھش الأسقف تجاه هذا الحادث الفريد، وأرسل الصقر والسمكة، كمؤشر غريب على مستقبل الأيام، إلى الايرل جون، وكان ذلك في الثاني والعشرين من تشرين الأول.

موت رينالد رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري

عام ١١٩٢م، فيه مات رينالد أسقف باث، الذي انتخب لرئاسة الأساقفة من قبل رهبان كانتربري، وكان موته في يوم عيد الميلاد، بعد تسعة وعشرين يوماً من تعيينه، وقد دفن في كنيسة في باث، قرب المذبح الكبير.

وصول الملك الفرنسي إلى باريس قادماً من حجه

وعاد في هذه الآونة الملك الفرنسي من حجه، وقد استقبل في باريس بمسيرة مهيبة، في السابع والعشرين من كانون الأول.

الاستيلاء على الدارون من قبل الملك رتشارد

وبعد عيد الفصح من هذا العام نفسه، وصل الملك رتشارد إلى الدارون، وهي الحصن الأخير للصليبيين مما يلي مصر، وبعدما حاصر البلدة لخمسة أيام استولى عليها، وترك الحامية تغادر، بعد دفع فدية كبيرة.